

136

زكي الميلاد

نحن والعالم

من أجل تجديد رؤيتنا إلى العالم





مؤسسة الانتشار العربي

زكي الميلاد

نحن والعالم

من أجل تجديد رؤيتنا إلى العالم





زكي الميلاد

نحن والعالم

من أجل تجديد رؤيتنا إلى العالم



المملكة العربية السعودية
عسير ـ أبها : 61411
ص.ب : 478
هاتف : 009662244210
adabiabha@hotmail.com



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-344-8

الطبعة الأولى
1434 هـ ـ 2013 م

الفهرس

مقدمة 9

الفصل الأول: منظورات في الرؤية إلى العالم

1 ـ رؤية العالم من منظور الصدام 15
2 ـ رؤية العالم في منطق الأصوليات 19
3 ـ الإرهاب وتغيير الرؤية إلى العالم 25
4 ـ العالم بين رؤيتين في الغرب 28
5 ـ العالم يتغير في رؤية الناس 34

الفصل الثاني: كيف نفهم العولمة؟

1 ـ تطوير المعرفة بالعولمة 41
2 ـ تفكيك النظر إلى العولمة 46
3 ـ هل تغير العولمة من صورتها؟ 51

الفصل الثالث: ماذا نريد من حوار الحضارات

1 ـ فلسفة حوار الحضارات 59
2 ـ الانخراط في حوار الحضارات 64
3 ـ من يقدم لنا معرفة بالحضارات 69
4 ـ مصداقية الحوار بين الحضارات 75
5 ـ تحالف الحضارات 79
6 ـ تقارب الحضارات 83

الفصل الرابع: تعارف الحضارات

1 ـ تعارف الحضارات 91

2 ـ تعارف الحضارات.. نظرية في كتاب التاريخ الثانوي ... 96
3 ـ تعارف الحضارات في الإسكندرية 100
4 ـ تعارف الحضارات.. وفكرة التواصل عند هابرماس 108
5 ـ تعارف الحضارات في تونس 114

الفصل الخامس: حوار الأديان.. تأملات في التجربة

1 ـ انطباع ومعايشة 121
2 ـ البحث عن الهوية المشتركة 124
3 ـ ضرورة تعميق المعرفة 127
4 ـ تطورات ومبادرات 130
5 ـ حضور الدين في العالم المعاصر 133
6 ـ حوار الأديان وحوار الحضارات 136

الفصل السادس: التجربة الماليزية.. انطباعات وتأملات

1 ـ انطباع عام 141
2 ـ صورتان مختلفتان 145
3 ـ روح الشرق 149
4 ـ تعايش الثقافات 153
5 ـ برنامج الإسلام الحضاري 156
6 ـ تساؤلات حول فكرة الإسلام الحضاري 161

الفصل السابع: الغرب وصدام الحضارات

1 ـ برنارد لويس وصدام الحضارات 167
2 ـ منطق إسرائيلي في الصدام بين الحضارات 171
3 ـ صدام الحضارات وفكرة اضمحلال الغرب 175
4 ـ حرب الأفكار 180
5 ـ الطاقة النووية وحرب الحضارات 187
6 ـ صدام الحضارات من الدول إلى المجتمعات 191

الفصل الثامن: الغرب والآخرون

1 ـ الغرب والآخرون.. معادلة ملتبسة لم تتغير 197
2 ـ الغرب وفكرة الحروب الصليبية 201
3 ـ الفكر الغربي واختراع مقولة البربرية 207
4 ـ اللاسامية الجديدة والتحول من المسيحية إلى الإسلام .. 213
5 ـ نزعة الإمبراطورية.. أمريكا وبقية العالم 217
6 ـ تغيير العقول.. أمريكا والعالم العربي 222
7 ـ حين يكون الشرق ساحرًا 227
8 ـ خطاب فرنسي.. مغامرة اللقاء بين الشرق والغرب 233
9 ـ العالم بدون الإسلام.. مطالعة وتحليل 239
10 ـ أمريكا والعالم بعد سبتمبر.. هل تتغير أمريكا بتأثير من العالم؟ 248
11 ـ خطاب أوباما في القاهرة.. 251
12 ـ مفهوم العالم الإسلامي في دائرة الشك 255

الفصل التاسع: الغرب وسؤال الهوية

1 ـ ما هو الغرب؟ 261
2 ـ هل انتهى مفهوم الغرب؟ 265
3 ـ هل يحتاج الغرب إلى هوية؟ 270
4 ـ هل هناك أزمة هوية في أوروبا؟ 274
5 ـ قبرص.. ومشكلة انقسام الهوية 280
6 ـ تركيا وأوروبا.. ومشكلة ازدواج الهوية 283
7 ـ تركيا وأوروبا.. وأوهام الهوية 286
8 ـ من صدام الحضارات إلى سؤال من نحن؟ 290
9 ـ ماهية الغرب.. الحدود والمحددات 294
10 ـ لماذا تخشى أوروبا على نفسها؟ 301
11 ـ خرافة مقولة أسلمة أوروبا 304

الفصل العاشر: هل الغرب في أزمة؟

1 ـ قوة الغرب.. هل هي في تقدم أم تراجع؟ 309
2 ـ الصدام الحقيقي.. صدام الغرب مع نفسه 314
3 ـ غربيون يناقشون هل يضمحل الغرب؟ 318
4 ـ أحداث سبتمبر تحرك النقاش الفكري والفلسفي في الغرب 324
5 ـ أفول الإمبراطورية الأمريكية وسقوطها 331

الفصل الحادي عشر: إصلاح الرؤية إلى العالم

1 ـ إصلاح الرؤية إلى العالم 345
2 ـ بناء النزعة الإنسانية 350
3 ـ تنوعنا الخلاق 356
4 ـ عبور الانقسام 361
5 ـ بناء الثقة 367
6 ـ التضامن من أجل أخلاقيات عالمية جديدة 371

مقدمة

حينما كنا نتحدث سابقًا عن العالم، كنا نتصور أننا نتحدث عن عالم تفصلنا عنه مسافات بعيدة، نتخيل معها البحار والمحيطات، الصحارى والجبال، والتضاريس الجغرافية الأخرى كافة. وكيف أن هذا العالم يختلف عنا في أشياء كثيرة، ونختلف عنه في أشياء كثيرة أيضًا. وكنا نظن كذلك أن العالم موزع على قارات كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى انفصالاً تامًا، كما لو أن كل واحدة من هذه القارات تمثل عالمًا يستقل كليًا عن غيره من القارات الأخرى في كثير من الأبعاد والمجالات، التي تعرفنا إليها في كتب الجغرافيا والتاريخ.

هذه الصورة عن العالم جعلتنا نعتقد أننا في عزلة شديدة عن العالم، وأننا بعيدون عنه، وهو بعيد عنا. هذا عن السابق، أما اليوم فإن الصورة تختلف جذريًا حين نتحدث عن العالم، فلم يعد ذلك العالم البعيد أو الغريب أو المقطوع عنا. فقد أصبح العالم في إدراكنا كأنه جزء منا ونحن جزء منه، وبدأنا نتخيل أنه قريب منا ونحن قريبون منه، وبات الحديث عنه وكأنه حديث عن عالمنا نحن، وليس عالم غيرنا الذي لا نعرفه، ولا نمت إليه بصلة.

هذه الصورة تكشف كيف أن العالم تغير ومازال يتغير، وأننا بدأنا نلتفت إلى هذه الحقيقة ونلامسها، وإحساسنا بهذه الحقيقة تنبعث منه دلالات كثيرة، الدلالات التي يكشف عن كميتها ونوعيتها، مستوى المفارقة وحجمها بين إحساسنا بأننا جزء من العالم، وإحساسنا بأننا لسنا جزءًا منه.

فقد دخلت العولمة حياتنا، وأصبحت النظرة إلى العالم تقسم إلى ما قبل وما بعد، ما قبل العولمة وما بعدها. فالعولمة جعلت العالم حاضرًا ومؤثرًا في حياة الناس، وقد يكون العامل الأكثر تأثيرًا في ماجريات حياتهم الخاصة والعامة. والعولمة هي التي جاءت بالعالم إلى الناس، وانتصرت للزمان على المكان، وأصبح العالم وكأنه يعيش على إيقاع زمن واحد، وجعلت العلم ينتصر على الجغرافيا، من خلال ثورة المعلومات، والتطورات المذهلة في تكنولوجيا الاتصالات، وشبكات الإعلام، وتقنيات النظم الرقمية.

لهذا ينبغي أن نجدد في رؤيتنا إلى العالم لكي نحافظ على وجودنا وبقائنا، ونتغلب على ضعفنا وعجزنا وجهلنا وتخلفنا، ومن أجل أن نستفيد من تلك المنجزات والمكتسبات العلمية والحضارية، ونعرف ماذا نريد، وحتى نكتشف طريقنا إلى المستقبل، لأن المستقبل لن يكون خارجًا عن العالم.

لهذه المهمة جاءت هذه الكتابات التي يضمها هذا

الكتاب، الذي يحاول الكشف عن تعدد منظورات الرؤية إلى العالم واختلافها، وعلاقة هذه الرؤية بالعولمة، وحوار الحضارات، وصدام الحضارات. مرورًا بضرورة أن يغير الغرب من رؤيته إلى الآخرين، ويتخلى عن ذهنية المركز والأطراف، ومنطق السيطرة والتبعية، والالتفات إلى أزماته ومشكلاته. وصولاً بالحاجة إلى إصلاح الرؤية إلى العالم.

آمل أن يكون هذا الكتاب قد قدم فكرة، أو ساهم في إضافة، أو لفت النظر إلى تصورات تستحق التأمل، أو حرض على تفكير في أبعاد من الجدير التوقف عندها.

والله ولي التوفيق.

زكي الميلاد

2 شوال 1425هـ

14 تشرين الثاني/نوفمبر 2004م

الفصل الأول

منظورات في الرؤية إلى العالم

- 1 -
رؤية العالم من منظور الصدام

في الفترة ما بين زوال الاتحاد السوفياتي وأحداث الحادي عشر من سبتمبر، ظهرت العديد من المقولات والنظريات والأفكار التي تحاول رؤية العالم من منظور الصدام. وهو المنظور الذي ساهم ويساهم في إشاعة وتعميم مفهوم الصدام بين الثقافات والمجتمعات، وفي مجال العلاقات الدولية.

وكأن الصدام هو الأصل في النظر إلى العالم، أو أنه ما يسبق إلى الأذهان ابتداء. فما هو تفسير ذلك؟ هل لأن صورة العالم لا توحي إلا بهذا المنظور؟ أم أن الإعلام بوسائله المرئية والمقروءة والمسموعة، قد أحكم طوقه علينا، بحيث بات لا يتيح لنا مجالًا أو خيارًا إلا تصور ذلك المنظور؟ أم أن التاريخ بحروبه ونزاعاته وتوتراته مازال هاجسًا حاضرًا في حياتنا؟ أم أن التراث بانقساماته وانجراحاته وأحاديثه ما زال محفورًا في ذاكرتنا؟ أم هي عصبيات الثقافة وجبروت السياسة وطغيان الاقتصادي؟!

لا أريد أن أبرر منظور الصدام، ولست بهذا الصدد

على الإطلاق، وإنما يدهشني هذا النمط من التشبث والإصرار بذلك المنظور، بطريقة تصور العالم وكأنه ساحة حرب وصراع.

واللافت أن معظم هذه المقولات والنظريات والأفكار تنسب غالبًا إلى غربيين، وتصنف وفق تصورات الغرب في رؤيته إلى العالم. أو أقله هي التصورات التي تكتسب شهرة وتداولًا وانتشارًا على مستوى العالم. فبعد زوال الاتحاد السوفياتي ظهرت مقولة صدام الحضارات، التي اشتهر بها صمويل هنتنغتون مع أنها تنسب من حيث الأصل إلى المستشرق برنارد لويس، وهي المقولة التي كان لها وقع الصدمة الشديدة على العالم، وما زال صداها باقيًا.

وقد ظل هنتنغتون متمسكًا بها، ويذكّر بها من وقت لآخر، مع ما تعرضت له من نقد عنيف، ومع ما أظهرته مجتمعات إنسانية كثيرة من هواجس ومخاوف حقيقية تجاه تلك المقولة.

والذي تحفظ من الغربيين عن هذه المقولة، تبنى مقولة أخرى لا تخرج على منظور الصدام. كالذي ذهب إليه أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كولومبيا، ومساعد وزير التجارة الأمريكية في الفترة الأولى لإدارة كلينتون، دافيد روثكوبف في مقولته عن صراع الأجيال، وحسب قوله: لوقت طويل حتى الآن شعرت بأن ما نواجهه حقًا ليس هو صراع حضارات بل صراع أجيال. فهناك عالم متطور عجوز

خصوصًا في أوروبا التي تحاول أن تحمي سوق العمل فيها، وفي المقابل أيضًا هناك عالم شاب باحث عن العمل خصوصًا في العالم الإسلامي، وهؤلاء الناس على استعداد للذهاب إلى أي مكان، ولاستغلال أي فرص عمل تتوافر لهم، وإلا فإنهم يعبرون عن مشاعرهم بالإحباط نتيجة غياب الفرص المناسبة لهم.

كما عرف روثكوبف بمقولة أخرى مثيرة للجدل، كانت عنوانًا لدراسة نشرها في صيف1997م، وهي مقولة (في مديح الإمبريالية الثقافية).

وحينما ظهرت مقولة العولمة حاول البعض أن ينظر إلى هذه المقولة من منظور الصدام أيضًا، كالذي ذهب إليه الكاتب الأمريكي بنيامين باربر في كتابه الصادر عام1995م بعنوان (الجهاد ضد السوق الكونية)، إذ يرى أن النزاعات العالمية ستتمحور على نحو متزايد حول التوترات بين القيم المحلية وقوى العولمة.

وأما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فقد كان العالم والغرب خصوصًا في أشد حالاته انفعالًا وتواترًا، وجرت أكبر تعبئة في العالم لمكافحة الإرهاب. الظاهرة التي تحولت إلى مقولة يجري الحديث عنها في كل مكان، وعلى المستويات السياسية والاقتصادية والإعلامية والثقافية والتربوية وغيرها كافة. ومن هذه الظاهرة وعلى خلفياتها انبثقت مقولة أخرى، هي مقولة حرب الأفكار التي تحدث عنها وزير الدفاع الأمريكي الأسبق دونالد رامسفيلد، ومن

ثم الكاتب الأمريكي توماس فريدمان. وبعد الحرب الأمريكية على العراق أطلق السناتور الأمريكي جوزيف ليبرمان مقولة الحرب الدينية الكونية، حين وصف تلك الحرب بقوله إن هذه الحرب هي حرب دينية كونية، ولا يمكن معرفة تداعياتها.

وحينما ظهرت مشكلة الحجاب في فرنسا صرح أحد السياسيين الفرنسيين بقوله: نحن ضد صدام الحضارات، وضد صدام الطوائف أيضًا. معتبرًا أن مشكلة الحجاب تأتي في سياق صدام الطوائف. إلى غير ذلك من مقولات.

والمشكلة أن جميع هذه المقولات تتضمن تحريضًا وتكريسًا لمفهوم الصدام، وتدفع العالم نحو الصدام، وهذه الرؤية إلى العالم هي التي ينبغي أن تتغير!

- 2 -
رؤية العالم في منطق الأصوليات

الأصوليات مهما تعددت واختلفت في انتماءاتها وانتساباتها الفكرية والسياسية والاقتصادية والدينية، تكاد تشترك وتتوافق على منطق متشابه ومتقارب فيما بينها، ويكون حاكمًا على طريقتها في التفكير، ومنهجيتها في النظر، وموجهًا لأنظمتها المعرفية، ومؤثرًا في تشكيل ملامحها واتجاهاتها العامة.

وهو منطق يتصف بالصرامة التي لا تقبل المرونة، وبالنهائية التي لا تقبل المراجعة، وباليقين الذي لا يقبل الشك. ولا مجال في هذا المنطق للمساءلة والتعدد والاختلاف، وهي الحالات التي قد تصور بحسب هذا المنطق حالًا أو مآلا، ظاهرًا أو تأويلًا، بأوصاف لا تخلو من القسوة والشدّة، ويستحق عليها صاحبها الردع والزجر والتويب، أو ما هو أقسى من ذلك وأشد.

وغالبًا ما يحاول هذا المنطق وبنوع من الاعتزاز والكبرياء والتعالي، أن يظهر نفسه بامتلاك الحقيقة المطلقة وحرمان الآخرين منها، أو انكشاف هذه الحقيقة لأصحاب هذا المنطق وانسدادها عن الآخرين، أو الادعاء بالأفضلية والأحقية في فهم هذه الحقيقة وامتلاك ناصيتها.

وبالتالي فأصحاب هذا المنطق هم الذين يمثلون الطريق المستقيم، والآخرون في نظرهم يمثلون الطرق غير المستقيمة، وهم على هدى وغيرهم في ضلال مبين. ويترتب على ذلك أن يكون هذا المنطق مشبعًا بالإكراهات وبالمواعظ السخية، والتظاهر بنوع من الاكتمال، والسعي نحو هداية الناس، وإعادتهم إلى الصواب، وإلى جادة الحق.

ومن صور هذا المنطق ما وقعت فيه الماركسية التي تشكلت على قاعدة القوانين الصارمة، واليقينيات النهائية، والحتميات التاريخية، التي لا تقبل التبديل أو التغيير، لكي تضفي على نفسها خاصية الموضوعية الخالصة، والثبات العلمي الجازم.

ومع شدة المبالغة في هذا التوصيف، تظهر الماركسية وكأنها تتفوق من هذه الناحية على العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء وغيرها التي تعرف بقوانينها العلمية الصارمة. فالماركسية كما يقول عنها فالح عبد الجبار في مقدمة كتاب (ما بعد الماركسية) الصادر عام 1998م، كانت ترى التاريخ حقلًا منكشفًا بالكامل، ومتاحًا بالتمام، وتخيلت هذه الماركسية في نفسها القدرة على استحواذ هذا الحقل، في ماضيه وحاضره ومستقبله، وحددت خطوط التطور لا بلغة المراحل أو التشكيلات العامة وحدها، بل بلغة الصراع الطبقي، مسندة أدوارًا محددة، متجوهرة للطبقات، ومستنبطة شكلًا تنظيميًا واحدًا محددًا يوائم التغيير. كما أنها سعت، والكلام لعبد الجبار في جموح يتجاوز تخوم

استنتاجات القرن التاسع عشر الأكثر احترازًا وتواضعًا، إلى تفسير كلي للكون: الطبيعة، المجتمع، الفكر ثلاثية هيغل الأثيرة، وانطوى ذلك كله بالمضمر أو المعلن على عالم معروف بكليته، عالم قابل للتنبؤ، بل قابل للسيطرة والتحكم القبلي، ما كان بوسع آلهة الإغريق، أو العناية الإلهية الكنسية أن تجاري هذا.

ومن صور هذا المنطق أيضًا، منطق الأصوليات، ما وقعت فيه مقولة نهاية التاريخ التي بشر بها فرنسيس فوكوياما، وهي المقولة المصادمة تمامًا للماركسية، وجاءت على أنقاضها، ولكي تعلن نهايتها والانتصار عليها، وإخراجها من فضاء الحداثة إلى فضاء التراث.

ولعل هذه المقولة كانت الأكثر تعبيرًا عن حالة النشوة والزهو للمصير الذي آلت إليه الماركسية ومعقلها الاتحاد السوفياتي، ولا يمكن تقييم هذه المقولة بعيدًا عن هذا المكوّن النفسي. فقد أعلن فوكوياما في مقدمة كتابه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) أن الديموقراطية الليبرالية بإمكانها أن تشكل فعلًا منتهى التطور الأيديولوجي للإنسانية، والشكل النهائي لأي حكم إنساني، أي إنها من هذه الزاوية نهاية التاريخ.

وقد اعتبر مطاع صفدي الذي أشرف على الترجمة العربية لكتاب (نهاية التاريخ) أننا حسب قوله أمام اغتصاب جديد لمفهوم التاريخ وحركته ونهايته، يأخذ شكل تأويل ليبني مشروع أيديولوجيا في عصر تم الاتفاق على وصفه بأنه عصر انهيار الأيديولوجيات.

والحقيقة أن فوكوياما وضع نفسه في موضع ليس هو مكانه، ولا يحق لأحد أيًا كان أن يضع نفسه في موضع يكون فيه حكمًا على التاريخ كله، وليس هناك من هو أعلم بحركة التاريخ وقوانينه أكثر من التاريخ نفسه. فالماركسية التي تبجحت باعتبار أن التاريخ هو علمها وفنها وقانونها وفلسفتها وجدلها، هو التاريخ الذي انقلب عليها، وطمسها، وأزهق روحها.

وليست هناك أصولية أكثر من الادعاء بأن أمام البشرية حقيقة واحدة فحسب، وهي الديموقراطية الليبرالية التي بإمكانها بناء تاريخ شامل لكل البشرية مزود باتجاه معين، وبتماسك معين. فهذا هو الحق حسب منطق فوكوياما وما بعد الحق إلا الضلال المبين. وهذه هي الحقيقة المطلقة والنهائية التي على الناس كافة الأخذ بها، واعتناقها، والعمل وفق مبادئها، فهي الطريق المستقيم، وجادة الصواب، وسبيل النجاة، فاعتبروا يا أولي الألباب، وكأن هذا هو لسان حال فوكوياما.

ومن صور هذا المنطق كذلك ما تعبر عنه العولمة حين تحاول تنميط العالم وقولبته في اتجاه واحد، وربطه بنظام القطب الواحد، والعمل على تحويل العولمة إلى آليات في تحكيم السيطرة، وضبط الهيمنة، وتوجيه التبعية. بحيث تكون العولمة هي المثل الأعلى لكل البشرية ولها الحق المطلق في إصدار القرارات الدولية أو حجبها أو تعطيلها، وهي المرجع والحكم في كل شيء، وهي التي تقرر للجميع ما هو صائب وما ينبغي أن يكون أو ما لا يكون.

وإذا أردنا أن نبالغ بعض الشيء يمكن القول إنها أي العولمة هي التي تقرر علينا ماذا نأكل وماذا نلبس وماذا نقتني، وكيف نمضي أوقاتنا، وبأي لغة نتحدث، إلى غير ذلك، لكي نحظى بعطف العولمة ورضاها، ومن أجل أن نقبل في ناديها ومحفلها، ونتجنب غضبها وانفعالها الذي لا يحتمل كما يصور لنا.

فالعولمة بهذا المنطق تتحول إلى أصولية لأنها ترى نفسها على الطريق المستقيم، ولا خيار أمام الإنسانية برمتها إلا أن تسلك هذا الطريق، لأنه طريق النجاة.

وهناك صورة أخرى لهذا المنطق، هي تلك التي تحدث في داخل الديانات، من خلال بعض التفسيرات الدينية التي يكوّنها الناس حول دياناتهم أو مذاهبهم، وذلك حين يعتقدون بأنهم الوحيدون الذين هم على صواب، وغيرهم دائمًا على خطأ، ويزكون أنفسهم دون الآخرين، وينظرون إلى حالهم بعين الرضى دائمًا. وهو التصور أو السلوك الذي انتقده القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [سورة النجم: 32] وقوله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [سورة النساء: 49].

وأصحاب هذا المنطق لا يكون لهم الاستعداد للتواصل مع الآخرين والاستماع إليهم، في حين أن المنطق القرآني هو منطق التواصل والانفتاح والاستماع، قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة الزمر: 18].

ومن جانب آخر ينهى المنطق القرآني عن القطيعة والانغلاق حتى مع المختلفين في الرأي قال تعالى ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة سبأ: 24 ـ 26].

- 3 -
الإرهاب وتغيير الرؤية إلى العالم

لأول مرة في تاريخ العالم الحديث يظهر هذا المستوى من الاهتمام الكمي والكيفي المتصاعد بموضوع الإرهاب. الموضوع الذي أصبح الأكثر حضورًا وتداولًا في مختلف مراكز العالم، وبات الحديث عنه لا ينقطع أو يتوقف بصورة شبه يومية، ويتصدر العناوين الرئيسية في وسائل الإعلام المختلفة السمعية والبصرية والمقروءة. وتعطى له درجة عالية من الاهتمام في معظم الاجتماعات والملتقيات والمؤتمرات المحلية والإقليمية والدولية، وفي المجالات السياسية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية والثقافية والإعلامية كافة وحتى التكنولوجية.

وهذه المجالات المتعددة تكشف عن ضرورة تعدد مداخل النظر والتفكير لموضوع الإرهاب، وكيف أن له طبيعة متعددة قد تتصل، وقد تنفصل.

والنتيجة الخطيرة التي يمكن التوصل إليها في هذا الشأن، هي أن الإرهاب بات يملك من القدرة ما أصبح يؤثر بها في تغيير صورة العالم. وهذه المقولة من أشد المقولات تعبيرًا عن تعاظم خطورة الإرهاب، واتساع

حجمه ومساحته، وكيف أن تأثيراته أخذت تتجاوز حدود نطاقاته المادية والحسية والظاهرية، وبدأ يلفت النظر إلى كونه يعبر عن نظام من الأفكار له دلائله ورموزه وإشاراته، كما له براهينه وتأويلاته واستدلالاته. وليس من السهولة على الإطلاق تغيير صورة العالم، وإذا حدث هذا التغير فإنه بالتأكيد سوف يكون على علاقة بنظام الأفكار.

ومن جهة أخرى، فإن الإرهاب بات يشكل مدخلًا لتكوين رؤية البعض إلى العالم، الرؤية التي يتشابك فيها عالم السياسات بنظام الأفكار، وهذا ما يحدث تحديدًا في الولايات المتحدة الأمريكية التي تغيرت رؤيتها إلى ذاتها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وترتب على ذلك تغيير رؤيتها إلى العالم، ليس هذا فحسب، وإنما محاولة الدفاع عن هذه الرؤية وتحريض العالم على التناغم معها، والانخراط فيها. ومتى ما تغيرت أمريكا فإن بإمكانها أن تفرض هذا التغيير، أو قدرًا كبيرًا منه على العالم، لكونها الأكثر تأثيرًا في أحداثه وتطوراته ومساراته، وبالذات في المجالات السياسية والاقتصادية والإعلامية.

وهذا التغير في رؤية أمريكا إلى العالم بدأ يلفت النظر إليه، وظهرت محاولات لتفسير هذا التغير بطريقة فلسفية لكونه يستند إلى نظام من البراهين والاستدلالات، ومن المفاهيم والتصورات، وهذا ما لفت إليه الباحث الفرنسي بيير هاسنير في كتابه الصادر سنة 2003م بعنوان (الإرهاب والإمبراطورية)، الذي ينطلق فيه من مساءلة فلسفية هي أن إمبراطورية الولايات المتحدة الأمريكية قائمة

على مبادئ الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز وماكيافيلي، أم على مبادئ الفيلسوف الإنجليزي الآخر جون لوك ومن بعده الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط؟

ويجيب إننا قبل الحادي عشر من سبتمبر كنا في عالم تسيطر عليه تصورات جون لوك مع انفتاحات على كانط، وأما بعد الحادي عشر من سبتمبر فقد انتقلنا إلى عالم تسيطر عليه تصورات توماس هوبز مع انفتاحات على نيتشه.. فقد فهمت أمريكا كما يضيف هاسنير أن عقلانية جون لوك أو مثالية إيمانويل كانط لا تكفي لمواجهة التحديات الراهنة في العالم، فأمام شخصيات الشر والإرهاب لا تنفع المثاليات والأخلاقيات.. لأن العالم لم يتحضر بما فيه الكفاية، أو أنه لم يتحضر في كل مكان، وبالتالي فإن لغة القوة لا تزال ضرورية.

هذا العالم الذي أصبح محكومًا بذهنيات الإرهاب بأنماطها المختلفة، بين ذهنية من يمارسه، وذهنية من يكافحه، وذهنية من يناصره، وذهنية من يتضرر منه. هذه الذهنيات جعلت العالم مخيفًا ومرعبًا وكئيبًا، ليس في الدول النامية أو التي هي في طريق النمو فحسب، بل حتى في الدول المتقدمة والمتحضرة التي لم تعد واحة للأمن والأمان كما كانت تصور حالها. لذلك فإن الحقيقة التي يجب أن تترسخ هي أننا في عالم ينبغي أن يتغير، وينبغي أن يتحضر، وضرورة أن يصل هذا التحضر إلى كل العالم وليس إلى الغرب فحسب!

ـ 4 ـ

العالم بين رؤيتين في الغرب

طبيعة النظريات والفرضيات والأفكار التي طرحت في الغرب لمرحلة ما بعد الحرب الباردة، كشفت عن المسافات البعيدة التي باتت تفصل بين الأوروبيين والأمريكيين في أنماط ومنهجيات النظر والتفكير نحو العالم، وطريقة التعاطي مع التحولات والتغيرات الدولية في مجالات السياسة والاقتصاد، والتقلبات الحادة في مجالات الثقافة والاجتماع. ففي الوقت الذي كان الأوروبيون يتجهون وكأنهم يحاولون انتزاع ذلك الإرث التاريخي في علاقتهم بالعالم، كان الأمريكيون يحاولون أن يرثوا ذلك الإرث من أوروبا لكي يجعلوا من أنفسهم أعظم إمبراطورية في هذا العصر.

وفي الوقت الذي تتجه فيه أوروبا نحو تقليص وتحجيم وجودها وحضورها في العالم، كانت أمريكا تتجه نحو التوسع والانتشار لوجودها وحضورها في العالم. وفي الوقت الذي كانت أوروبا تعيد ترتيب أولوياتها وتتجه نحو ذاتها وقارتها لكي تستعيد وحدتها وتكاملها، وتتخلص من ذاكرة وذهنية الانقسامات والنزاعات التي حدثت في تاريخها الحديث، كانت أمريكا ترتب أولوياتها بشكل آخر

ومختلف بحيث تكون القوة العظمى الأولى في العالم، والقطب الأوحد بدون منافس أو منازع.

فأمريكا على رأي بعض الكتاب الأمريكيين هي الإمبراطورية، ويجب أن تتصرف في العالم على هذا الأساس، مستفيدة من التفوق العسكري الكاسح. وبالتالي هي التي تحدد شكل النظام العالمي الجديد وطريقة صياغته، وهندسة توازناته، ولها حق التدخل في التشريعات والقوانين الدولية. فلا أحد يستطيع أن يلزمها بالتوقيع على اتفاقية كيوتو للحد من التلوث والمحافظة على الحياة الطبيعية في هذا الكون، أو التصديق على اتفاقية المحكمة الجنائية الدولية، لكنها إذا احتاجت إلى شراكة الآخرين معها فرضت عليهم الالتزام، ومن يخرج عن هذا الالتزام قد تفرض عليه بعض القيود، أو يخسر بعض الامتيازات، إلى غير ذلك من أدوات الضغط وآلياته.

وبحسب هذه المسارات والاتجاهات والأولويات، أو انسجامًا وتناغمًا معها، أو تجسيدًا وتمثلًا لها، تحددت بعض النظريات والفرضيات والمقولات، فعند الأمريكيين ظهرت نظريات من نوع نهاية التاريخ سنة 1989م بعد سقوط الاتحاد السوفياتي ونهاية الحرب الباردة، ونظرية صدام الحضارات سنة 1993م بعد حرب الخليج الثانية.

كما ظهرت مقولة العولمة في التسعينيات من القرن العشرين، ومكافحة الإرهاب بعد أحداث أيلول ـ سبتمبر 2001م. وهي النظريات والمقولات التي روجتها

المؤسسات الإعلامية الأمريكية حتى أصبحت الأكثر تداولًا واهتمامًا في العالم. كما أنها النظريات والمقولات التي بعثت في العالم روح التشاؤم، وأجواء الخوف، وأعادت إليه مناخ الحرب الباردة، وذهنيات السيطرة والتحكم والسيادة على العالم.

فنظرية نهاية التاريخ جاءت لكي تكرس التفوق الفكري والفلسفي بانتصار النموذج الأمريكي في الديموقراطية الليبرالية، وتعلن توقف صراع الأفكار بين الأطروحات والنماذج والاتجاهات الفكرية والفلسفية الكبرى في العالم، بعد سقوط الماركسية والاشتراكية العلمية، وانهيار الاتحاد السوفياتي، وتفكك الكتلة الشرقية.

وجاءت نظرية صدام الحضارات لكي تكرس التفوق السياسي والحضاري للغرب بصورة عامة، ولأمريكا بصورة خاصة على العالم، وتقف في طريق انبعاث الحضارات الأخرى غير الغربية، وتحظر عليها إمكانية التفوق والتقدم.

ولهذه الغاية أيضًا جاءت العولمة لكي تكرس التفوق الاقتصادي والتكنولوجي لأمريكا، وتجعل من العالم فضاءً مستباحًا لها. وهكذا جاءت مقولة مكافحة الإرهاب لإظهار التفوق العسكري والأمني الأمريكي، والتلويح بمنطق القوة لكل من يتعرض للمصالح والكرامة الأمريكية، في أي مكان من العالم.

وقد انتقد الأوروبيون هذه النظريات والمقولات، وشككوا فيها، وكشفوا عن سطحيتها وأحاديتها، وعيوب

هذا النوع من المقولات التي تتصف بالجزم والإطلاق والتعميم والنهائية. وكانت لهم في المقابل بعض النظريات والمقولات والمحاولات، التي جاءت في سياق إعادة النظر إلى رؤيتهم نحو العالم، والعمل على تشكيل رؤية جديدة تتجاوز مخاطر الانقسام، أو تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ ومعسكرات.

وفي هذا النطاق جاءت بعض الأفكار والدعوات، ففي سنة 1994م دعا الرئيس الفرنسي السابق ميتران إلى عقد إنمائي جديد بين الشمال والجنوب، والاتفاق على رؤية عالمية واحدة للتنمية، على غرار الرؤية العالمية المشتركة للبيئة، التي أفرزتها قمة ريودي جانيرو في البرازيل.

وفي سنة 1995م طرح ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز في مؤتمر نظمه المعهد الملكي للشؤون الدولية تحت شعار (بريطانيا في عالم متغير)، أن المصالحة بين الإسلام والغرب تمثل دورًا حيويًا وهي من أهم الأدوار حسب رأيه التي يمكن لبريطانيا أن تلعبها في عصر ما بعد الحرب الباردة. إلى جانب الرؤية البديعة التي عبر عنها تقرير (تنوعنا الخلاق) الذي أصدرته اللجنة العالمية للثقافة والتنمية سنة 1995م. بالإضافة إلى دعوة فرنسا إلى حوار الثقافات الذي كان شعارًا للفرانكفونية سنة 2001م.

ومن الأفكار المهمة في هذا المجال تلك التي عبرت عنها لجنة إدارة شؤون المجتمع العالمي، التي وجدت في

أحداث 1989م ونهاية عصر الحرب الباردة، أن العالم أصبح في حاجة إلى رؤية جديدة، يمكن أن تحرك البشر في كل مكان، لتحقيق مستويات أعلى من التعاون في المجالات ذات الاهتمام والمصير المشترك، واستخدام قدرتنا الجماعية كبشر على خلق عالم أفضل.

غير أن هذه الرؤية، كما يقول التقرير الذي أصدرته تلك اللجنة، لإدارة شؤون عالمنا، لا يمكن أن تزدهر إلا إذا استندت إلى التزام قوي بمبادئ المساواة والديموقراطية المترسخة في المجتمع المدني. لقد آن الأوان لكي يكون المجتمع الدولي جسورًا، وأن يستكشف أفكارًا جديدة وينمي رؤى جديدة، ويثبت التزامه بالقيم في ابتداعه لترتيبات جديدة لإدارة شؤون عالمنا. إن نشوء إدارة لشؤون المجتمع العالمي هو جزء من تطور الجهود الإنسانية لتنظيم الحياة على هذا الكوكب، وتلك عملية ستظل دائمًا مستمرة، والزمان ليس في مصلحة التردد، وينبغي الإقدام الآن على خيارات مهمة لأننا على عتبة عصر جديد، وجدة هذا الوضع واضحة بذاتها والناس في كل مكان يعرفون ذلك وكذلك الحكومات. وأقوى رسالة يمكن أن ننقلها كما يضيف التقرير هي أنه في استطاعة الإنسانية أن تتفق على أسلوب أفضل لتصريف أمورها، وإعطاء الأمل للأجيال الحالية والمقبلة.

لقد أتاحت مرحلة ما بعد الحرب الباردة فرصة كبيرة أمام العالم للتعبير عن أفكار خلاقة، وطموحات عالية، ومشروعات ذات جاذبية إنسانية، وتصورات أخلاقية

للانتقال بالعالم نحو مرحلة جديدة، تتجاوز إشكاليات القرن العشرين ومعضلاته، وتدفع الإنسانية نحو أمل جديد. لذلك يظهر الفرق واضحًا بين الأوروبيين والأمريكيين في رؤية العالم. كما أن هذه الاتجاهات والطروحات تكشف عما يزخر به العالم من أفكار ورؤى بحاجة إلى التواصل معها، والانفتاح عليها، كما تؤكد من جهة أخرى على ضرورة تجديد رؤيتنا إلى العالم.

ـ 5 ـ
العالم يتغير في رؤية الناس

إلى وقت قريب كانت صورة العالم في رؤية الجمهور العريض من الناس في عالمنا العربي، تكاد تختزل وتتحدد في نطاق الحارة، أو القرية، أو المدينة. والنطاق الواسع في رؤية هؤلاء الناس إلى العالم، نادرًا ما كان يتجاوز نطاق الدولة التي ينتمون إليها. فالبعض كانت الحارة تمثل إليه صورة العالم، فالعالم هي الحارة، والحارة هي العالم.

وفي هذا النطاق كانت تتحدد الإدراكات الذهنية لهؤلاء، وتتأطر به عالم الصور والإشارات والرموز والكلمات، وهكذا شبكة العلاقات الاجتماعية، ودورة الزمن وحركة الحياة العامة. وما يتعرفون إليه خارج نطاق الحارة، غالبًا ما يكون مشتتًا ومتناثرًا، ولا يلفت الانتباه إليه، ويفتقد الضبط والتوثيق.

وهناك من يتجاوز أفق الحارة إلى أفق القرية، أو إلى أفق المدينة، أو إلى أفق الدولة. هذا كان واقع الحال إلى وقت، وكثيرًا ما عبرت الروايات العربية عن هذا الواقع، وكذلك كتب السير الذاتية.

أما اليوم فهناك ما يشبه الانقلاب على تلك الصورة.

فالناس على اختلاف شرائحهم وتكويناتهم الاجتماعية والثقافية والمهنية، أخذوا يتحدثون عن العالم بطريقة غير معهودة في السابق، ويجدون أنفسهم مندفعين في هذا النوع من الحديث، بعد أن كان غائبًا عن إدراكهم.

ولا شك أن هذه ظاهرة ثقافية واجتماعية جديدة، تلفت الانتباه، وتستدعي النظر، وتعبر بنسبة ما عن تغير في اهتمامات الناس، وأنماط حياتهم، وفي تصوراتهم الذهنية. كما أن هذه الظاهرة من ملامح هذا العصر الذي باتت تلعب فيه النظم الرقمية، وتقنيات الاتصال، وشبكات الإعلام العابرة ما بين الأمم والثقافات واللغات، الدور الفاعل والمؤثر في تشكيل الصور والأذواق والانطباعات.

ولعل من أكثر ما يعبر عن هذه الظاهرة، ويصلح أن يكون دليلًا عليها حديث الناس عن العولمة، حيث يتحدثون عنها كما لو أنها تنتمي إلى قاموس كلماتهم اليومية، حيث دخلت مجال التداول اللغوي الشعبي. وظل الناس أو قطاع كبير منهم يتساءلون عنها، ولديهم الرغبة في التعرف إليها، من شدة تداولها، وكثرة الاستماع إليها. ولعل هذه صورة من صور الانخراط في العولمة، ومن مظاهر قوتها أو سحرها حين استطاعت أن تفرض هذا المستوى من التداول، وقوة الحضور، وتصل إلى أوسع شريحة عددية وعمرية من الناس.

ولم يسبق لأي مفهوم آخر من المفاهيم التي ظهرت مع بداية القرن العشرين، أو ما قبله أيضًا أن حقق هذا

المستوى الواسع من التداول الشعبي كالذي حدث مع مفهوم العولمة. فلا الحداثة وما بعد الحداثة، أو فكرة التقدم، أو التمدن، ولا حتى فكرة الثقافة أو الأدب أو الفن.. هذه المفاهيم وغيرها لم تصل إلى ما وصل إليه مفهوم العولمة من جهة علاقة الناس به.

وبقدر ما كانت العولمة تنتمي إلى فضاء متقدم، وتعبر عن مستويات عالية من التطور، كانت قادرة أيضًا على الاقتراب من عالم الناس بتفاصيله، وخطوط الطول والعرض في خرائطه، وبرغبتهم أو بدون رغبتهم.

والذي جعل العولمة بهذه القدرة والجاذبية هو أنها أخذت تعبر عن نفسها من خلال أدوات هي الأكثر شعبية وتواصلًا بين الناس، وفي مقدمة هذه الأدوات التلفاز الذي دخلت عليه تقنية الأقمار الصناعية والنظم الرقمية، والحاسوب الذي دخلت عليه تقنية الأنترنت، والهاتف الذي دخلت عليه تقنية الاتصال عن بعد أو ما يعرف بالهاتف المتحرك أو الجوال.

فهذه الأدوات هي الأكثر شعبية بين الناس، وهي في الوقت نفسه الأدوات التي جعلت الناس يتعرفون إلى العالم، وينظرون إليه، ويدركون حركته وأحداثه، وتصلهم صوره ومرئياته بطريقة سريعة ومكثفة، وكأنهم في داخل العالم وليس خارجه، أو هكذا هو إحساسهم. ولم يعد الذين يتحدثون إليهم، ويتبادلون الكلمات والمقولات معهم هم أهل الحارة أو القرية أو المدينة فحسب، وإنما أصبحوا من أهل الملل والنحل والعوالم المتعددة والمختلفة.

والعولمة هي التي جاءت بالعالم إلى الناس، وسهلت اقتحام العالم على الناس، وحرضت الناس على التفاعل والتشابك معه، وهذا هو مصدر قوة العولمة من جهة، وشعبيتها من جهة أخرى.

ومقولة أن العالم يتغير في رؤية الناس، هذه المقولة شديدة الأهمية والخطورة من حيث المعايير الثقافية والفكرية، والحضارية، وهذا يعني أن الناس أصبحوا في قلب العاصفة!

الفصل الثاني

كيف نفهم العولمة؟

- 1 -
تطوير المعرفة بالعولمة

في ربيع 1998م، أطلقت بشكل متعمد عبارة (ما بعد العولمة) وعبارة (نهاية العولمة)، ولم أكن حين ذاك قد سمعت من استخدم مثل هذه العبارات. لا أريد من ذلك أن أدعي حق السبق في نحت هذه المقولة وتكوينها، فليس هذا غرضي، ولا يترتب على ذلك أية إضافة أو اعتبار، فلا هي بمنزلة براءة اختراع بحاجة إلى حماية فكرية، ولا الشروط التاريخية قد نضجت لمثل تلك المرحلة عالميًا، فليس هناك ما يبرر موضوعيًا شروط الحديث ومقتضياته عما بعد العولمة أو نهاية العولمة، وما زال من المبكر مثل هذا الطرح، خصوصًا وأن العالم كان حديث العهد بالعولمة التي ما زالت تتشكّل في أطوارها الأولى، وإن كانت خطاها متسارعة، فهذا هو إيقاع العالم المعاصر.

وكان القصد من إطلاق هذه المقولة، كشف الاختلال البنيوي العميق في طرائق تعامل الأدبيات العربية والإسلامية مع المفاهيم والظواهر والقضايا التي تتولد وتتشكل من غير عالمنا النامي أو الثالث أو الجنوبي، ومن خارج مرجعيتنا وهويتنا، وبعيدًا عن زماننا الثقافي والتاريخي.

فبعد زمن طويل من الاشتغال الواسع بظاهرة

الحداثة، الظاهرة التي تظهر بوضوح كبير ما أصابنا من اختلال منهجي ومعرفي، وبعد أن قلبنا الحديث عن هذه الظاهرة في أشكالها وأزمنتها ومكوناتها ومساراتها وعلائقها ومفاعيلها، واجتمع لدينا تراكم كبير بالمقاييس الكمية، ومع كل هذا التراكم، يمكن الجزم بأن الفكر العربي الحديث والمعاصر، منذ عصر النهضة إلى اليوم لم ينجز حداثته الخاصة به، أو المستقلة، أو المتوافقة والمندمجة بهويته ومرجعيته وتاريخه. ولم يتبلور أي توافق على تكوين فهم مشترك للحداثة، فالجميع يفهمها بشكل مختلف ومتباين وبطريقة استتباعية وليست إبداعية، وبمنهجية تقليدية وليست اجتهادية.

فالفكر العربي ما زال يكوّن فهمه للحداثة من داخل الفكر الأوروبي، وبمرجعياته المختلفة وبطرائقه وإسقاطاته. وبالشكل الذي يعوق إمكانية تكوين فهم اجتهادي ومستقل للحداثة. وقبل استكمال شروط هذه الظاهرة واستجماع عناصرها، طالعنا الفكر الأوروبي بمقولة ما بعد الحداثة، فتحول الاشتغال والاهتمام نحو هذه المقولة الجديدة التي ليس لها واقع في حياتنا، ولا تأثير فعلي في أوضاعنا، ولا تصلح أن تكون مقولة تفسيرية أو نقدية أو معيارية لحركة التغيرات والتحولات في مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

وتعتبر من المقولات الغامضة والمبهمة والمختلف عليها، حيث لم تتحدد لها مفهومية وهوية واضحة ومحددة، كما أنها وثيقة الصلة والارتباط بالزمان الأوروبي ثقافيًا وتاريخيًا ونقديًا. وجاءت لتفسير ومواكبة تغيرات مرحلة ما

بعد المعلوماتية وثورة الاتصالات في المجتمعات الغربية.

وهكذا يتكرر الاختلال البنيوي مع ظاهرة العولمة، التي أحسب أن الأدبيات العربية والإسلامية في هذا الوقت إنما تقدم قراءتها الأولى للعولمة، القراءة التي تفتقد اكتمال النضج في فهم هذه الظاهرة.

وهي القراءة التي سوف يعاد النظر فيها لاحقًا، والانقلاب عليها، وتوجيه النقد إليها، فقد اعتاد الفكر العربي والإسلامي خلال القرن الأخير وخلال احتكاكه بالمفاهيم والأفكار والمقولات الوافدة عليه من خارج منظومته ومرجعيته الفكرية والتاريخية، أن يبدأ قراءته الأولى بالتوجس والتشكيك والهجوم والرفض إلى زمن، وينتهي في زمن آخر إلى رؤية أخرى، وفهم مختلف يكون على قدر من التوازن والثقة والثبات.

لقد قابلت الأدبيات العربية والإسلامية العولمة بخوف وهجوم شديدين، بوصفها إرادة للهيمنة والإقصاء والتدمير، واعتبارها تمثل مرحلة ما بعد الاستعمار والإمبريالية الجديدة، وأنها استلاب وطمس وتنميط، إلى غير ذلك من أوصاف وتسميات تصلح أن يجعل منها قاموس يطلق عليه قاموس العولمة.

هذه الطريقة بالتأكيد لا تقدم فهمًا ومعرفة وإدراكًا للعولمة، ولا تبني قدرة على المواجهة والتحدي أو التحصن والممانعة. كما أن هذه الطريقة لا تقدم حلًا ولا تعالج مشكلة ولا تنتج بديلًا. فمشكلة العولمة ليست في

الهجوم عليها، فهذا من أسهل الأمور وأبسطها، بل مشكلة العولمة وأي ظاهرة جديدة، هي كيف نفهمها ونكوّن معرفة بها، أما قبل الفهم وتكوين المعرفة فلا جدوى من أي هجوم.

والخوف من العولمة له كل ما يبرره، لكن ما هي حدود هذا الخوف؟ أو كيف ندرك ماهية هذا الخوف؟ ونفصل ما هو وهم مصطنع عما هو خوف مشروع؟ وهل سنظل خائفين باستمرار؟.

قبل تكوين الفهم والمعرفة بالعولمة لا قيمة لأي خوف، فهناك خوف قبل العلم، وخوف بعد العلم تجاه ظاهرة العولمة. قبل العلم يمتزج الخوف بالوهم، فلا ندرك حدوده وماهيته، أي لماذا نخاف من العولمة؟ وبعد العلم يفترض أن ينكشف الوهم ويتحدد الخوف.

وفي ظل دوامة الاشتغال بالعولمة، قد يفاجئنا الغرب في أي وقت بالحديث عما بعد العولمة أو نهاية العولمة على نمط المقولات الكثيرة التي تطورت إلى هذا الشكل. وحينئذ سوف ننساق بالحديث عن هذه المقولة الجديدة، وبنوع من الانبهار أو التعجب أو المبالغة، وقد نكتشف عندئذ أن هذا الانتقال حدث قبل إنجاز رؤيتنا إلى العولمة، وقبل أن نعرف ماذا نريد منها؟ وما هي فلسفتها وأبعادها ومكوناتها وأرضياتها؟ وهكذا سوف تتكرر الحال ويتجدد الاختلال.

انشغل الغرب بالعولمة حينما أنجزها على الأرض،

وهو الطرف الفاعل والمؤثر في حركتها وديناميتها، يعيشها ويمارسها ويتكيف معها، ويهيىء لنفسه الاستعدادات والتحضيرات، لذلك فهو يدرك ماهية العولمة وفلسفتها ومفاعيلها وتأثيراتها في مصالحه وتوجهاته ومستقبلياته.

أما نحن في العالم العربي والإسلامي، فننشغل بالعولمة ولسنا طرفًا فاعلًا ومؤثرًا في حركتها واتجاهاتها وخياراتها، ولم نحسم أو نتفق على قراءتنا لماهية العولمة وفلسفتها. فنحن منفعلون بها ولسنا فاعلين، متأثرون بها ولسنا مؤثرين، محكومون بالخوف والحذر منها لأننا لا نعرف موقعنا فيها ولا مستقبلنا معها.

فالفكر العربي والإسلامي بحاجة لأن يستعيد توازنه واستقلاليته، وضرورة أن نكتشف العولمة التي نحتاج إليها لعالمنا العربي والإسلامي.

ـ 2 ـ
تفكيك النظر إلى العولمة

سوف يسجل المؤرخون الاجتماعيون والاقتصاديون، وفي الحقول الأخرى، لاحقًا، أن أكثر قضية استحوذت على أوسع اهتمام، من حيث الزمان والمكان، ومن حيث تعدد الميادين والحقول، وبالشكل الذي يفوق الاهتمام بأي قضية أخرى تقريبًا، هي قضية العولمة.

القضية التي يشتغل عليها في زمن واحد العالم برمته، بكل ثقافاته وأديانه وقومياته وجغرافياته، يختلفون عليها، وينقسمون ويتصادمون حولها. وقد تحولت إلى قضية شعبية، الناس بمختلف شرائحهم يتساءلون عنها، ويحاولون التعرف إليها بأي صورة مبسطة كانت، وبالنمط الذي لم يحدث مع أي قضية أخرى من القضايا التي تتصف بالتعقيد والتشابك، أو التي تنشغل بها في العادة شرائح معينة مثل الخبراء أو أهل العلم والمعرفة والاختصاص.

وفي نظر رئيس كلية لندن للاقتصاد والسياسة، والمنظر لأطروحة الطريق الثالث في أوروبا، أنتوني غيدنز فإن النقاش حول العولمة في الوقت الراهن هو أهم نقاش دائر في العالم، لأنه كما يضيف يتناول كيفية تشكيل

التغيير، أو التأثير في التغيير، الذي يعمل على صياغة حياتنا فوق هذا الكوكب، وأن هذا النقاش كسر حدود الاحتكار الأكاديمي في سياتل وواشنطن وبراغ.

والحقيقة أن هذا النقاش الواسع حول العولمة، هو من صور الانخراط في العولمة التي اقتحمت علينا حياتنا بدون استئذان، وفرضت علينا وجودًا يكاد يكون قسريًا، بحيث لا يمكن تجاهله أو التنكر له أو القفز عليه. الأمر الذي يفسر انخراط حتى المعارضين والمناهضين للعولمة في النقاش والسجال الدائرين حولها.

ومن المؤكد أن هذا النقاش سوف يحافظ على وتيرته الناشطة والمتصاعدة، وفي مختلف مراكز العالم، لما تحمله العولمة من موجات شديدة التغيير، يصفها البعض بالتيار الكاسح، كتعبير عن قوة تأثيراتها.

ومع تزايد هذا النقاش حول العولمة، والكتابات التي لا تكاد تتوقف أو تنقطع حولها، إلى درجة أنه يمكن الجزم بأنه ما من كاتب أو صاحب قلم، إلا كتب شيئًا عن هذه الظاهرة، أو راودته الكتابة حولها على أقل تقدير.

ولا أدري إذا كنا قد وصلنا إلى درجة الملل من الكتابة حول العولمة، أو مازالت هذه الكتابات تلفت النظر، وتبعث على الاهتمام بمتابعتها. أو أننا وصلنا إلى درجة الإسراف والاستغراق الذي لا جدوى منه! لكن ما يمكن القطع به أننا لم نكوّن لنا تلك المعرفة الناضجة والمتماسكة حول العولمة. المعرفة التي يفترض أن تساعدنا

على القدرة على التحكم في إدارة العولمة أو في طرائق التعامل معها، أو حتى السيطرة على أوضاعنا وضبط شؤوننا، وتوجيه حياتنا أمام تأثيرات العولمة.

والفكرة التي توصلت إليها، وبإمكانها حسب اجتهادي أن تساهم في تكوين قدر من الفهم الموضوعي أو المعرفي لظاهرة العولمة، وأن تضع حدًا نسبيًا للسجالات والاحتجاجات المتصادمة، هذه الفكرة تنطلق من قاعدة تفكيك النظر إلى العولمة، بين جانب يتصل بالعلم والواقع الموضوعي، وجانب آخر يتصل بالأيديولوجيا والتفسير الأيديولوجي.

الجانب الأول: ويرتبط بالتطور العلمي والتقني والتكنولوجي، وميادينه الإعلام والمعلوماتية والاتصالات والمواصلات، وتقنياته الكومبيوتر والتلفاز والهاتف والأقمار الاصطناعية. وهي التقنيات التي ارتبطت بالحاجات الحيوية للناس، ودخلت في كل مرافق حياتهم، وجعلت العالم الكبير والواسع متقاربًا بصورة كما لو أنه قرية صغيرة أو هكذا يوصف. هذا الجانب الذي يتصل بالعلم وبالتطور العلمي لا يمكن رفضه أو مناهضته أو استنكاره.

أما الجانب الآخر: والذي يتصل بالأيديولوجيا، فإنه ينقسم إلى أمرين: الأول هو تحويل العولمة إلى أيديولوجيا. والثاني: هو التفسير الأيديولوجي للعولمة. تحويل العولمة إلى أيديولوجيا هو منشأ الحذر والخوف والخطر من

العولمة، وذلك من خلال توظيفها لخدمة بعض الأهداف والمصالح وتحقيق بعض الامتيازات، والاستفادة منها في فرض بعض الاتجاهات، وقولبة بعض المفاهيم والأفكار، وتكوين خطاب يحاول أن يحتكر تفسير العولمة وفهمهما، بحيث يكون متلازمًا معها، وترويج هذا الخطاب وتعميمه.

والأمر الثاني وهو الفهم الأيديولوجي للعولمة، والنظر إليها من زاوية الأيديولوجيا، أي من خلال قوالب وتركيبات فكرية وسياسية متحيزة، وبإضفاء فهم محدد والتمسك به إلى درجة التشدد، والانغلاق عليه إلى درجة الجمود. وهذا ما وقعت في إشكاليته أكثر القراءات العربية، التي تسرعت في إعطاء أحكام اتصفت بالنهائية والجزم والقطع، في الوقت الذي كانت العولمة تمر بأطوار مختلفة ومتغيرة. وتلك الأوصاف هي من صور الفهم الأيديولوجي وملامحه. فالأيديولوجيا التي تكون عاجزة أو مشلولة، لا تقدم فهمًا أو تفسيرًا بعيدًا عن تلك الأوصاف.

لست في موقع الدفاع عن العولمة، ولا أريد أن أضع نفسي في مثل هذا الموقع، وإنما ألح دائمًا على أن تكون المعرفة هي سيدة الموقف، المعرفة المبنية على الاجتهاد، الذي يقتضي أعلى درجات الفاعلية في تكوين الفهم المنهجي المحكم. فالمعرفة ينبغي أن تتقدم دائمًا وقبل كل شيء، وتكون هي الحاكمة.

مع ذلك سوف يظل الحديث عن العولمة ملحًا بين وقت وآخر، الأمر الذي يتطلب تجديد الفهم حولها بصورة

دائمة. وأن لا نعطي أنفسنا صفة النهائية في تكوين المعرفة بها. هذا التمسك بالفهم المعرفي للعولمة هو الشرط الرئيسي لبناء التوازن، وإيجاد القدرة على التحكم، والقدرة على التحصن والممانعة، والاستفادة من المكاسب والمنجزات! لذلك فإن المعرفة هي أولًا!.

- 3 -
هل تغير العولمة من صورتها؟

أول مرة سمعت فيها للدكتور محمد عابد الجابري كان في مدرج كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الفلسفة بجامعة دمشق، في أبريل 1995م، حين دعي إلى إلقاء محاضرة حول الفكر القومي العربي: الحاضر والمستقبل.

في هذه المحاضرة اعتبر الجابري أن أهم نجاحات الماركسية هو أنها نبهت الرأسمالية إلى نقاط ضعفها، فعملت هذه على تلافيها وطورت نفسها، فتجنبت المصير الذي تنبأت لها به الماركسية. لذلك فقد أفرزت الماركسية نقيض ما كانت قد قامت من أجله، وساعدت الليبرالية على إعادة بناء نفسها وتجنب نتائج أخطائها. وتنبهت إلى ضرورة الاهتمام بطبقة العمال، ووفرت لهم نظام التأمين الاجتماعي والصحي والتعليمي، وضمنت لهم حقوقهم، وحسنت من معيشتهم، بالشكل الذي لم يعد للماركسية أي تأثير فيهم.

هذا التاريخ كان قد بدأ مع بداية القرن العشرين بعد ظهور الرأسمالية في أوروبا، الذي أعقبه ظهور الماركسية التي عملت على مقاومة النظام والفكر الرأسماليين. هذا

التاريخ يكاد يتكرر اليوم مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، مع ظهور العولمة، الوضع الذي يشابه إلى حد كبير وكأنه ظهور الرأسمالية أول مرة.

والماركسية التي سقطت بعد انهيار قلعتها العظمى في الاتحاد السوفياتي، وتفكك منظومتها الشرقية في أوروبا، وتحولها إلى بقايا متناثرة تكاد تتلاشى بمرور الوقت، بدأت مع ظهور العولمة تستعيد أنفاسها، وأخذت تتكتل من جديد، تحت شعار مناهضة العولمة، الوضع الذي يشبه ظهور الماركسية أول مرة.

وكما كانت الماركسية في السابق تحاول أن تدافع عن طبقة العمال وحقوقهم، وتجد في الرأسمالية تعديًا على تلك الحقوق، ذلك الدور هو ما تحاول أن تقوم به اليوم جماعات اليسار المناهضة للعولمة، التي تتكتل للدفاع عن الفقراء والطبقات الضعيفة والمحرومة والمهمشة، حيث يجدون أن العولمة تكرس الفروقات واللامساواة بين الأثرياء والفقراء، وبين عالم الشمال الذي يزداد غنى، وعالم الجنوب الذي يزداد فقرًا. ولعل الذي سوف يتكرر مجددًا أيضًا، هو أن العولمة قد تغير من صورتها، وتبدل من فلسفتها، ويعاد النظر في أهدافها وآلياتها وبرامجها.

وليس بالضرورة أن تحدث هذه التغيرات في العولمة بما يشمل العالم برمته، وإنما قد تقتصر على حدود منشئها في أوروبا والغرب عمومًا، بتحسين أحوال الطبقات الفقيرة والضعيفة التي تضررت هناك من العولمة، كما جرى مع

الرأسمالية حين أولت الاهتمام بطبقة العمال هناك أيضًا بعد انبعاث الماركسية وخطابها الفكري والاقتصادي المتصادم مع الرأسمالية.

وقد بدأت تظهر بعض الملامح والمؤشرات على مستوى الخطابات والبيانات والإعلانات والتقارير الإقليمية والعالمية، التي تلفت الانتباه إلى نوع من المراجعة وإعادة النظر والتفكير في العولمة وسياساتها وخططها وآلياتها، والتأكيد على عدم العجلة والتسارع في حركتها، أو الإفراط في التفاؤل والتبجح بها، وجعلها أكثر توازنًا وضبطًا وعدالة، أقله هكذا تصور تلك الخطابات والبيانات والتقارير.

ففي أبريل 1999م أعلن مسؤولو البنك الدولي عزمهم على إعداد إطار تنموي جديد يركز على العوامل الاجتماعية والإنسانية. وصدر بهذا الخصوص تقرير استراتيجي هو الأول من نوعه يشرح رؤية البنك الدولي إلى استراتيجيته الجديدة التي تؤكد على حماية الفقراء من مخاطر العولمة، وتمكين هؤلاء من الاستفادة من منافعها الاقتصادية، الأمر الذي يقتضي كما يشرح التقرير من الدول النامية تحسين شبكات الأمان الاجتماعي، وضرورة تحويل برامج الحماية لاجتماعية، من أشكالها التقليدية التي تنحصر في تقديم المساعدة للفقراء إلى قواعد انطلاق تتيح للفقراء الخروج من دائرة الفقر، والانتقال إلى حياة أكثر أمانًا، وقد صدر هذا التقرير في يناير 2001م.

وفي ديسمبر 1999م وفي خلال اجتماع منظمة

التجارة العالمية الذي عقد في سياتل بالولايات المتحدة الأمريكية، دعا وزير الاقتصاد الفرنسي آنذاك كريستيان سوتيه إلى اعتماد ميثاق للعولمة، تلتزم بموجبه جميع الدول باستراتيجية مشتركة للتنمية المتبادلة، واعتماد قواعد عادلة في حقل التجارة، وحذر من اللامساواة التي يمكن للعولمة أن تخلقها على مستوى العالم.

وفي يناير 2000م أطلقت الأمم المتحدة موقعًا على شبكة الأنترنت، بغية أن تستخدمه المؤسسات الكبرى والنقابات، لتبادل وجهات النظر حول المشاكل المتعلقة بالعولمة. وكان الهدف الرئيسي لهذا الموقع، تحسين القيم العالمية المتعلقة بحقوق الإنسان وقوانين العمل والبيئة.

وفي مؤتمر الأمم المتحدة العاشر للتجارة والتنمية أونكتاد، الذي عقد في فبراير 2000م بالعاصمة التايلندية بانكوك، دعا الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان في كلمة الافتتاح، إلى ضرورة تقاسم فوائد العولمة بالتساوي بين الجنوب والشمال. وكان الهدف الرئيسي لهذا المؤتمر، إشراك الدول الأكثر فقرًا في العولمة.

وبمناسبة اختيار برنامج الأمم المتحدة للتنمية، باريس، لإصدار تقريره السنوي حول التنمية، في يونيو 2000م، اعتبر الرئيس الفرنسي جاك شيراك أن العولمة قد تكون خيرة وشريرة، ولذا من الضروري أنسنتها والسيطرة عليها.

وقد أطلق منتدى دافوس العالمي سنة 2000م، على

أعماله شعار العولمة المسؤولة أو العولمة الرؤوفة. أما شعاره سنة 2001م فكان عنوانه دعم النمو وتجاوز الفروق بين الأغنياء والفقراء، ومن الموضوعات التي ناقشها في دورته الأخيرة التي عقدت ما بين 23 ـ 28 كانون الثاني يناير 2003م، موضوع مدى إمكانية أن تكون العولمة أخلاقية.

وجاء في إعلان الألفية الذي صدر عن قمة رؤساء دول العالم التي دعت إليها الأمم المتحدة في سبتمبر 2000م، أن التحدي الرئيسي الذي يجب أن نواجهه اليوم، هو أن تتحول العولمة إلى سلاح إيجابي من أجل الإنسانية جمعاء.

أما المنتدى الاقتصادي العالمي الذي عقد بمدينة كانكون المكسيكية في فبراير 2001م، فقد كان موضوعه الأساسي مناقشة الفجوة القائمة بين الدول الغنية والدول الفقيرة، واعترف الحاضرون بأن بعض الانتقادات التي وجهها معارضو العولمة يمكن الأخذ بها.

هذه بعض الشهادات والقرائن التي تشير إلى إمكانية أن تغير العولمة من صورتها المخيفة والمتوحشة والاستلابية، إلى صورة أخرى أقل بطشًا وسيطرة وترهيبًا. تبقى هذه القضية داخلة في دائرة الإمكان وليس في دائرة الوجوب والتحقق الفعلي، لكن هذا ما تطمح إليه ضمائر العالم ونداءات الحكماء، وتبقى القضية في دائرة الأمل.

الفصل الثالث

ماذا نريد من حوار الحضارات

- 1 -
فلسفة حوار الحضارات

البحث في فلسفة حوار الحضارات، هو لتكوين المنظور الكلي، والتعرف إلى ماهية الحضارات، والرؤية الكونية إلى الوجود الإنساني، وعن مستقبلنا المشترك في هذا العالم.

هذا المعنى يظهر وثوقية العلاقة بين الفلسفة وحوار الحضارات، فالفلسفة هي لبناء القاعدة الفكرية المتماسكة لقضية حوار الحضارات، وتعميق الرؤية حولها، ورفدها بمنظومة من المفاهيم والأفكار والرؤى التحليلية والاستشرافية والنقدية.

ولعل من أعمق النقاشات وأكثرها جدية ومنهجية تلك النقاشات التي تبحث في المنظورات الفلسفية لهذه القضية، التي لم تتبلور لها هوية واضحة، أو يتحدد حولها منطق مشترك. ولتجريد هذه القضية من حسابات المصالح السياسية الضيقة، أو المنافع الاقتصادية المحكومة بذهنية الربح والخسارة. ولرفع مستوى التفكير، وتجاوز الإدراك السطحي، والأفق المحدود حول هذه القضية. لذا ينبغي أن يتوسع الحديث ويتعمق حول بلورة المنظورات الفلسفية

لحوار الحضارات، ومن داخل جميع الحضارات. والمفكرون دائمًا هم أكثر الناس التفاتًا إلى هذا الجانب، وأشدّهم إدراكًا لقيمته، وحرصًا على النظر إليه.

وفي نظري فإن فلسفة حوار الحضارات هي البحث عن المشتركات العامة والجوهرية والحية بين الحضارات في الحقول والمجالات المختلفة والمتعددة. المشتركات في حقول الثقافة والفلسفة والقانون والفنون والآداب، وفي السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية.. إلى غير ذلك من حقول.

وهكذا في مجالات القيم والمبادئ كالعدالة والحرية والمساواة والحقوق.. إلى قضايا البيئة والسكان والصحة وغيرها. فكل حضارة لها عبقريتها وإبداعاتها واكتشافاتها وفتوحاتها.

وهذا بخلاف الرؤية التي تنطلق منها مقولة صدام الحضارات، التي تتضمن تحريضًا للغرب على مقاومة انبعاث الحضارات وتجددها، وبخلاف مقولة نهاية التاريخ التي تحرض الحضارات الأخرى على الالتحاق والاندماج في الحضارة الليبرالية والديمقراطية، التي يتبجح فوكوياما بانتصارها وتفوقها وبها يختم التاريخ.

والبحث عن تلك المشتركات ليس بقصد الوصول إلى أحادية الرؤية، أو نمط التفكير الواحد، أو فرض الاتجاه الواحد، أو التسلط الثقافي. فهذا من غير الممكن على الإطلاق، فكل حضارة لها تاريخ وكل ثقافة لها تراث.

وإنما القصد إظهار عظمة التنوع البشري الخلاق، وقدرة البشر على اختلافهم وتنوعهم في التفوق والإبداع. ولترسيخ النزعة الإنسانية بين البشر ومقاومة العنصرية وكل أشكال التمييز أو التفاضل بين الناس، مصداقًا لقوله تعالى (ولقد كرمنا بني آدم)، الآية التي تؤسس لأصالة مفهوم الكرامة، لذلك جاء ربط الكرامة بوصف لا يحتمل أية إضافة، وهو وصف الآدمية، الذي يعني أن الأصل في الإنسان أن يكون مكرمًا بغض النظر عن أي صفة أو إضافة أخرى.

ومن المقاصد أيضًا تأكيد المنحى الأخلاقي، الذي يبرز قيم الخير والحق والجمال في العلاقات بين الأمم والحضارات. وهو المنحى الذي حاول تعزيزه بشفافية كبيرة ألبرت شفيتسر في كتابه (فلسفة الحضارة)، حيث يعتبر أن ماهية الحضارة وطبيعتها كما تبين له في خاتمة المطاف حسب قوله هي في جوهرها أخلاقية، ويضيف: إن الحضارة بكل بساطة، معناها بذل المجهود، بوصفنا كائنات إنسانية، من أجل تكميل النوع الإنساني، وتحقيق التقدم من أي نوع كان، في أصول الإنسانية، وأحوال العالم الواقعي.

وهذا الموقف العقلي حسب رأي شفيتسر يتضمن استعدادًا مزدوجًا. فيجب أولًا أن نكون متأهبين للعمل إيجابيًا في العالم والحياة، ويجب ثانيًا أن نكون أخلاقيين. وقد منح شفيتسر جائزة نوبل للسلام سنة 1952م لنزعته الإنسانية الشاملة، ودعوته المستمرة إلى السلام بين الناس.

ويصفه عبد الرحمن بدوي الذي قدم الترجمة العربية للكتاب من الألمانية، بأنه من أنبل الشخصيات العالمية في القرن العشرين. ولد في ألمانيا وتوفي في أفريقيا بدولة الغابون سنة 1965م، حيث أنشأ هناك مستشفى لمعالجة الفقراء والضعفاء. فكان مثالًا حيًا للنزعة الأخلاقية التي دافع عنها.

وحينما ظهر الكفاح ضد نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقيا، عبر المناضلون هناك عن خطاب شديد التمسك بالنزعة الأخلاقية، حيث وصفوا كفاحهم بأنه ليس مجرد حركة لإنهاء التمييز العنصري، بل وسيلة لنا جميعًا لتأكيد إنسانيتنا المشتركة. لذلك كانت معركتهم واحدة من الصراعات الأخلاقية العظيمة التي أسرت مخيلة العالم، وكسبوا مساندة العالم لقضيتهم بهذه النزعة الأخلاقية والإنسانية، وأنهوا نظام التمييز العنصري وكسبوا معركة الحرية في أبريل 1994م. ولم يجر في العالم احتفاء بشخصية يفوق الاحتفاء الذي جرى لنيلسون منديلا لنزعته الأخلاقية الشديدة، التي لم يتخل عنها أو يفرط فيها أو يساوم عليها.

لهذا فإن الحوار بين الحضارات ليس لإظهار التفوق والتميز أو القوة والسيادة بين هذه الحضارات، وإنما لاكتشاف المشترك الإنساني، والتنوع البشري الخلاق، وترسيخ النزعة الإنسانية والمنحى الأخلاقي. وهي القيم والاتجاهات التي تراجعت في العالم المعاصر، حيث تفشت ظواهر العنصرية بشكل متزايد وخطير، خصوصًا

داخل المجتمعات الغربية، التي قطعت الصلة في منظومتها الفكرية بين مفهوم التقدم ومفهوم الأخلاق.

فأوروبا هي من أكثر الحضارات الكبرى التي تعاملت بوحشية مع المجتمعات والحضارات الأخرى في تاريخ نهضتها وتقدمها. لذلك يمكن اعتبار الغرب في التاريخ الحديث هو الذي أدخل العالم في صراع الحضارات، وكان هو الطرف المصادم للحضارات، في الأزمنة التي كان يشهد فيها تقدمه وتفوقه، فقد تعامل مع المجتمعات غير الغربية، بمنطق الاستعمار والإمبريالية، وبذهنية السيطرة والهيمنة، ومارس سياسات التمييز والاستغلال وسلب الثروات، وكرس في الثقافة والفلسفة والأدب مفاهيم التمايز بين الأجناس والتفوق بين الأعراق، واعتبر حاله يمثل دائمًا مركز التمدن والتقدم والحداثة في العالم، وبقية العالم تمثل موقعية الأطراف.

وهذا هو منشأ الاختلال الحضاري في العالم، الغرب يريد أن يحتكر لنفسه الحضارة لكي يفرض على العالم التبعية، وهذا الموقف يصطدم بشدّة مع منطق التاريخ، لأن التاريخ لا يمكن أن يستمر وفق ذلك المنطق. فالتاريخ له قوانينه، وهو الذي يفرض هذه القوانين على العالم. ونظرية حوار الحضارات هي لتأكيد الاعتراف بالحضارات ورفض سيطرة الغرب الأحادية على العالم.

ـ 2 ـ
الانخراط في حوار الحضارات

حينما أطلق صمويل هنتنغتون مقولته الشهيرة صدام الحضارات في صيف 1993م، تحولت هذه المقولة إلى واحدة من أنشط الأفكار تداولًا ونقدًا وسجالًا بين المفكرين والنخب في العالم، وفجرت جدلًا هو الأوسع من نوعه في السنوات الأخيرة من القرن العشرين. وانخرط المثقفون والمفكرون والكتاب العرب باهتمام كبير في تلك النقاشات الاحتجاجية المثيرة للجدل.

وفي 4 نوفمبر 1998م أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة في جلستها العامة رقم 53 موافقتها على أن تكون سنة 2001م سنة لحوار الحضارات، وحينما دخل العالم هذه السنة لم يظهر المثقفون والمفكرون والكتاب العرب انخراطًا واضحًا واهتمامًا جادًا وفاعلًا بتلك المبادرة، التي كان يفترض أن تتأكد قيمتها لكونها جاءت من طرف العالم الإسلامي، الذي يصنف على دول العالم الثالث، ونادرًا ما تأتي مثل هذه المبادرات الحضارية من هذه العوالم غير المتقدمة، أو أن تقنع الدول المتقدمة بها، الاقتناع الذي يتحول إلى التزام ومشاركة.

هذه الحالة السكونية التي ظهرت من المثقفين

والكتاب العرب في صور التعاطي مع تلك المبادرة، لا تقارن أو تقاس بصور التعاطي مع مقولة صدام الحضارات. فهل يفسر هذا الموقف من المثقفين العرب بطبيعة الاستفزاز والتحدي الصارخ الذي أثارته مقولة صدام الحضارات، كما وصفها الكاتب الأمريكي جيمس كورت في معرض نقده لها، بأنها فجرت صدامًا كبيرًا بين الكتاب. خصوصًا وأنها جاءت في مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

في حين جاءت مقولة حوار الحضارات بعيدة عن أي استفزاز أو تحدٍ، أم أن هذه السكونية التي نصفها بالنسبية حتى لا نقع في إشكالية التعميم، تفسر بأن مقولة صدام الحضارات كانت أقرب إلى المزاج العالمي والأمريكي بوجه خاص، من مقولة حوار الحضارات. بمعنى أن المقولة الأولى لها أرضياتها الموضوعية ومعادلاتها السياسية والاقتصادية، وهو ما تفتقده المقولة الثانية، التي هي بحاجة إلى تأسيسات وأرضيات جديدة، والعالم لا يعيشها في معادلاته السياسية والاقتصادية.

فبعد أن طور هنتنغتون فكرته من مقالة نشرتها مجلة فورين أفيرز - الشؤون الخارجية - إلى كتاب صدر عن دار سايمون أندشوستر بنيويورك سنة 1996م، الدار الناشرة قدمت الكاتب على أنه أصبح في أهمية جورج كينان الدبلوماسي والأستاذ الجامعي الأمريكي الذي وضع نظرية احتواء الشيوعية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، قبل حوالى خمسين عامًا، وتنبأ بأن القضاء على النازية ليس نهاية المشاكل العالمية، وبأن الشيوعية ستصبح الخطر

الجديد الذي سيهدد الغرب، وبالتالي لابد من احتوائها بتأسيس أحلاف عسكرية تحيط بالاتحاد السوفياتي، ووضع خطط لمنع انتشار الشيوعية في الدول الغربية ودول العالم الثالث.

وها هو هنتنغتون كما تضيف مقدمة الدار الناشرة، يقول بأن القضاء على الشيوعية ليس نهاية المشاكل العالمية، وبأن حضارات العالم الثالث ستشكل الخطر الجديد على الحضارة الغربية.

هذه الرؤية تصور ذهنيات التفكير الاستراتيجي عند السياسيين الأمريكيين، لذلك فإن مقولة صدام الحضارات هي أقرب إلى روح العالم المحكوم بذهنيات السيطرة والهيمنة والصراع والنزاع. وهو الأمر الذي جعل هذه المقولة تصور بتأويلات وتفسيرات شديدة الحساسية والاستفزاز، في حين تصور مقولة حوار الحضارات بالدعوة إلى السلم والعدالة والمساواة بين دول العالم. وإذا كانت مقولة حوار الحضارات لا تمتلك مقومات السجال أو التحريض والاستفزاز، فلا يعني ذلك أن يتحدد التعامل معها بطريقة جامدة وباهتة.

في الوقت الذي كان يفترض من المثقفين العرب والمسلمين أن يكونوا الأكثر اندفاعًا وحماسة في تبني هذه المقولة والدفاع عنها والتحريض عليها، لأنها من مبادرات العالم الإسلامي، ولأنها من منافذ التواصل مع العصر، وأكدت على إمكانية أن يساهم عالم الإسلام، حضاريًا في هذا العصر.

كما برهنت أيضًا على صحة المقولة التي بات يطرحها بعض الغربيين المعاصرين، حول انتماء عالم الإسلام إلى عوالم الحداثة، بخلاف الرؤية الاستشراقية القديمة عند البعض، التي تعمدت توصيف وتصنيف عالم الإسلام بعوالم الثقافات البدائية، والمجتمعات التي تنتسب إلى المدارات المتخلفة أو التقليدية أو العاجزة.

مع ذلك فإننا مع مشروع حوار الحضارات ينبغي أن نتعامل معه كفعل وليس كرد فعل في مقابل نظرية صدام الحضارات، حتى لا نقع مجددًا في إشكالية الثنائيات والتجاذبات السجالية، التي قد تضيق علينا عمليات الفهم ومحدوديات الإدراك وسطحيات المعرفة، كما يحدث أحيانًا في الجدليات السجالية.

وهذا يعني أن منظورات الرؤية لمقولة حوار الحضارات لا يفترض أن تتحدد بالنسق المعرفي لمقولة صدام الحضارات. وإنما بالسعي إلى تطوير اجتهادات وابتكارات من داخل الحضارات المختلفة للتقدم بمفاهيم الحوار وأرضياته وآلياته ومقاصده. والنظر إلى مفهوم حوار الحضارات باعتباره يمثل حاجة معرفية وإنسانية من جهة، ومن جهة أخرى ينطلق من رؤية إلى المستقبل، فلا ينبغي للتاريخ أن يغلق علينا جسور التواصل، أو نقف في حدود الماضي ونأسر حالنا بتفكير استرجاعي وارتدادي.

ولا يكفي أن ندعي بأنه كانت لنا حضارة، ونقف عند أمجادها وأطلالها. كما لا يفترض أن يصبح لنا الماضي

مجرد حروب وصراعات ونزاعات، بالشكل الذي يغلق علينا أبواب المستقبل. فحوار الحضارات هو لأجل البحث عن المستقبل المشترك، مستقبل الجميع للجميع، كما يقول روجيه غارودي في كتابه (من أجل حوار بين الحضارات)، والبحث عن مستقبلنا في هذا العالم، ومستقبل العالم الذي نحن فيه.

ـ 3 ـ
من يقدم لنا معرفة بالحضارات

لا يفترض أن يفهم من قضية حوار الحضارات أنها حوار بين الإسلام والغرب، أو تتحدد في هذا النطاق، ولا أن تتأطر في حضارات المتوسط بين ضفتيه الجنوبية والشمالية، كالذي حاول دراسته باهتمام كبير المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل في كتابه (المتوسط والعالم المتوسطي).

وهذه إشكالية يحتمل أننا قد وقعنا فيها بشكل من الأشكال. لذلك فإننا نفتقد رؤية الحضارات الأخرى، كالحضارات الصينية أو الهندية مثلًا، في موضوع حوار الحضارات على وجه التحديد. وينقصنا في العالم العربي والإسلامي تكوين المعرفة بتلك الأفكار والمفاهيم والنظريات، الغائبة تمامًا عن دراساتنا وكتاباتنا حتى ونحن ندرس مثل هذه القضية.

وهذا يعني أننا لا نمتلك معرفة بالحضارات الحية أو التي بإمكانها التجدد والنهوض، ونفتقد من يقدم لنا معرفة جديدة وحيوية بالحضارات، أو من ينهض بالبحث التاريخي المعمق بحفرياته المعرفية، أو من يبتكر لنا اكتشافًا يوثق به ويلفت أنظار العالم إليه.

والأشدّ حساسية، أننا مع هذه القضية الكبرى في اهتمامات العالم، نعاني غياب المفكرين والمؤرخين والباحثين، الذين يمكن أن يقدموا لنا معرفة متخصصة وواسعة بتاريخ الحضارات، من أمثال ول ديورانت صاحب الكتاب الشهير (قصة الحضارة)، الذي أمضى نصف قرن في دراسة تاريخ الحضارات بالتعاون مع زوجته. وقد شجعه نجاح كتابه (قصة الفلسفة) المنشور سنة 1926م، على التخلي عن التدريس سنة 1927م، لتكريس كل جهده لمشروع كتابه (قصة الحضارة)، وجال حول العالم، وأصدر أول مجلد منه سنة 1935م، خصصه للتراث الشرقي.

أو أمثال أرنولد توينبي المفكر والمؤرخ البريطاني صاحب كتاب (تاريخ البشرية)، أو فرناند بروديل صاحب كتاب (تاريخ وقواعد الحضارات)، المنشور سنة 1966م، حيث اقترح إدخال دراسة الحضارات الكبرى في التعليم الثانوي. وكذلك أمثال إدوارد بروي المشرف على كتاب (تاريخ الحضارات العام)، ومارتن برنال صاحب كتاب (أثينا السوداء)، الذي أثار الكثير من الجدل في الغرب.. إلى غير ذلك من كتابات وأبحاث.

فمنذ ابن خلدون الذي اكتشف مفهوم العمران البشري، وفتحت مقدمته الشهيرة على الفكر الإسلامي والدراسات الإسلامية وعيًا جديدًا بحقل معرفي شديد الأهمية، ولقد أحسن ابن خلدون اختيار التسمية لهذا الحقل المعرفي حين أطلق عليه العمران البشري.

إلى رفاعة الطهطاوي الذي نقل إلى العربية كتاب (تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم)، للمفكر الفرنسي مونتسكيو الذي اكتشف القيمة المعرفية لمقدمة ابن خلدون، وشجع في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي مطبعة الحكومة في بولاق على نشرها.

وحين التفت الشيخ محمد عبده إلى تلك المقدمة، اقترح إدخالها في المنهج الدراسي لجامعة الأزهر، وكان شديد الحماسة لهذا الاقتراح، وذلك في سياق تفكيره في إصلاح النظام التعليمي للأزهر، وتقدم بهذا الاقتراح بعد عودته إلى مصر سنة 1888م، إلى شيخ الأزهر آنذاك، الشيخ محمد الأنبابي.

وبعد ابن خلدون، حاول بعض الباحثين المهتمين بهذا الشأن، البحث عن الحلقة المعرفية التي تتصل بابن خلدون، فوجدوا مالك بن نبي الذي فتح أوسع حديث عن مشكلات الحضارة، ولعله الأعمق من نوعه في الفكر الإسلامي المعاصر، أقله في النطاق العربي. وقد شغلت هذه القضية كل تفكيره واهتمامه كما يقول، خلال ربع قرن، وكان يرى أن المشكلة الرئيسية التي تواجه العالم الإسلامي هي مشكلة الحضارة، وكيف تدخل الشعوب الإسلامية في دورة حضارية جديدة.

ومن بعد مالك بن نبي تنقطع هذه الحلقات، ولا يبقى إلا بعض الكتابات المتفرقة وغير المتخصصة، ولا تتصف بالاستكشاف العلمي أو التاريخي، وهي أقرب إلى

الوعظ والدعوة إلى الاعتبار، وتفتقد البراهين والاستدلالات على ما تطرحه من أفكار أو حقائق.

مع ذلك فإن مالك بن نبي قبلة ابن خلدون لم يقدما دراسات في تاريخ الحضارات، وإنما تركز الاهتمام عندهما على دراسة منطق الحضارة أو الحضارات، فابن خلدون حسب رأي مالك بن نبي، قد تمكن من اكتشاف منطق التاريخ في مجرى أحداثه، فكان بهذا المؤرخ الأول الذي قام بالبحث عن هذا المنطق.

والتاريخ الذي كتبه ابن خلدون لم يحظ باهتمام كالاهتمام الذي حظيت به مقدمته، التي كانت أكثر تميزًا في معرفياتها واكتشافاتها من ذلك التاريخ، وهذا ما التفت إليه المؤرخون والباحثون، الذين وجدوا فروقًا واضحة في المستوى العلمي بين المقدمة وذلك التاريخ.

لذلك أصبحت الدراسات الغربية في تاريخ الحضارات مرجعًا أساسيًا في الدراسات العربية، على حساب استقلالها الفكري والعلمي، واختلاف منظوراتها ومنهجياتها في البحث التاريخي.. وهذا بالتأكيد لا يقلل من شأن تلك الدراسات، ولا يلغي الاستفادة منها والرجوع إليها.

والعالم العربي اليوم يفتقر إلى مراكز متخصصة في دراسة الحضارات، مع أنه في قلب هذه الحضارات تاريخيًا.. ومن المدهش حقًا أن يبدأ ديورانت مقدمة كتابه (قصة الحضارة) بقوله: (إن قصتنا تبدأ بالشرق)، ويوجه

نقده إلى الكتابات الغربية الذي يصفها بالتقليدية للتاريخ، حيث يقول: (إن التعصب الإقليمي الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان، وتلخص آسيا في سطر واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقًا ذريعًا في تصوير الواقع، ونقصًا فاضحًا في ذكائنا. إن المستقبل يولي وجهه شطر المحيط الهادي، فلا بد للعقل أن يتابع خطه هناك).

أما مارتن برنال فقد فجر جدلًا واسعًا في الغرب والعالم، حينما طالب بإعادة قراءة التاريخ القديم والتراث الفكري لليونان وحضارة الإغريق، فالثقافة الإغريقية قد ظهرت حسب منظوره نتيجة لنشاط استيطاني أو استعماري، قام به المصريون والفينيقيون حوالى 1500 ق. م، ووضعوا من خلاله أبناء المنطقة الإغريقية على طريق التحضر، وقد استمر الإغريق بعد ذلك في نقل ثقافات الشرق الأدنى بشكل واسع.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، وعلماء الآثار يسعون جاهدين إلى الكشف عن تاريخ الشرق الأدنى القديم، وتتبع الآثار التوراتية للمنطقة، وقد ركزوا اهتمامهم على الهلال الخصيب الواقع بين نهري الفرات ودجلة في العراق. لقد افترض العلماء أن جنوبي بلاد الرافدين فقط كان مركز القوة وأصل الحضارة والمدنية.

وحتى عهد قريب، كانت السهول الواقعة شمالي بلاد الرافدين في سوريا حاليًا مهملة إلى حد كبير من قبل علماء

الآثار، ولكن عندما قطعت الحرب التي نشبت بين العراق وإيران في الثمانينيات من القرن الماضي الطريق إلى المواقع الجنوبية، أجبر علماء الآثار على إعطاء اهتمام أكبر للمناطق المحيطة.. وقد كشفت الحفريات في شمالي سوريا حاضرة نابادا التي تأسست قبل 4500عام، والتي نافست بإدارتها المحكمة وحضارتها، تلك الحضارات التي تمتعت بها المدن الأسطورية في جنوبي بلاد الرافدين. جاء هذا الكلام في مجلة العلوم التي هي الترجمة العربية لمجلة (ساينتفيك أمريكان)، الصادرة في الكويت، حيث خصصت غلاف العدد لشهر يناير وفبراير 2001م لهذا الاكتشاف.

وهذا يعني أن بإمكان الاكتشافات والحفريات التي جرت وتجري في المنطقة العربية، أن تعيد كتابة تاريخ الحضارات، أو أن تغير في الاتجاهات الرئيسية لكتابة تاريخ الحضارات، فمن ينهض بهذه المهمة؟ ومن يقدم لنا معرفة بالحضارات.

- 4 -
مصداقية الحوار بين الحضارات

خططت المفوضية الأوروبية إنشاء مؤسسة كبرى للحوار بين الحضارات والثقافات الإنسانية، ومن المرجح أن يكون مقرها في مدينة الإسكندرية بمصر. وقد ذكرت مصادر بسفارة الاتحاد الأوروبي بالقاهرة آنذاك، أن هناك عدة دول في حوض البحر المتوسط تتنافس في استضافة هذه المؤسسة، إلا أن هناك اتجاهًا قويًا بين دول الاتحاد الأوروبي لإقامتها في مصر. وقد بحث رئيس المفوضية الأوروبية في ذلك الوقت رومانو برودي الخطوات التنفيذية والإجرائية لإقامة هذه المؤسسة خلال زيارة قام بها لمصر.

وتستهدف هذه المؤسسة تشجيع الحوار بين الأديان والحضارات والثقافات، وتشجيع المبادرات الإقليمية والدولية في هذا المجال، وتبني المواقف التي تدعو إلى التسامح ونبذ العنف، وتنمية الوعي بهذه القضايا بين الأمم والشعوب.

وفي وقت سابق، وتحديدًا في أواخر شهر أغسطس 2003م، تحدث الرئيس الفرنسي الأسبق جاك شيراك أمام اجتماع لسفراء فرنسا في الخارج، وقال كلامًا مهمًا بشأن

العلاقة مع المجموعة العربية والإسلامية، وحسب رأيه فإنه لا شيء أسوأ من أن نترك هذه المجموعة الواسعة المليئة بالمواهب والطاقات تحدد هويتها ليس معنا وإنما بالتعارض معنا.. وأضاف: يجب أن نقف إلى جانب هذا العالم - يقصد العالم العربي والإسلامي - لنساعده على التغلب على التحديات التي تواجهه، ومنها تحديات التنمية والديموقراطية والحداثة والانفتاح على العالم، وطالب أوروبا والعالم الغربي بصورة عامة بالاهتمام بالعالم العربي والإسلامي، باعتبار أن مصير الطرفين متصل بعضه ببعض.

وفي زيارته لمصر في بداية شهر أكتوبر 2003م، افتتح المستشار الألماني الأسبق جيرهارد شرودر الجامعة الألمانية الجديدة بالقاهرة، التي تعد أول جامعة ألمانية تقام خارج ألمانيا.

وقد تزامنت هذه الخطوات والمواقف مع تجدد النقاش والجدل حول قضية الحجاب الإسلامي في ألمانيا وفرنسا، فلم يؤد قرار المحكمة الدستورية العليا، الذي قضى بالسماح بارتداء الحجاب الإسلامي، إلى اتفاق مشترك بين المشاركين في مؤتمر وزراء الثقافة في المقاطعات الألمانية، فقد خرج هؤلاء مختلفين فيما بينهم، بين سبع مقاطعات ترفض ارتداء الحجاب أثناء العمل الرسمي وثماني مقطعات تؤيده. وذلك بعد نقاشات وصفت بأنها كانت حادة، فلم يحسم هذا الخلاف، وانتهى البيان الختامي إلى ترك الحرية لاتخاذ القرار المناسب بحسب تقاليد وعادات كل مقاطعة.

ويكشف هذا القرار عن عجز في إمكانية بلورة سياسة وطنية واضحة وموحدة بهذا الشأن، وتضع حدًا أمام قضية أثارت جدلًا واسعًا، وانقسمت حولها المواقف واتجاهات التفكير في أوروبا.

وفي فرنسا تشدد رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق جان بيار رافاران، حين اعتبر أن المجتمع الفرنسي سيكون مجبرًا على التعامل مع قضايا تتعلق بالحجاب بشكل دائم، مشيرًا إلى أن قرار منع الحجاب في المدارس والمؤسسات الرسمية كان بمثابة الملاذ الأخير بالنسبة إلى الحكومة.

الحجاب الذي يجعل أوروبا تظهر خوفًا وقلقًا حيال أنظمتها وتشريعاته وتقاليدها، هل هذه أوروبا التي تريد أن تقود حوارًا على مستوى الحضارات؟، أو أن تبني جسرًا للحوار والانفتاح والتواصل بين ضفتي المتوسط الجنوبية والشمالية؟. أوليست هذه المواقف المتشنجة من قضية الحجاب، قد تدفع العالمين العربي والإسلامي إلى تحديد هويتهما ومصيرهما بعيدًا عن التناغم والتوافق مع أوروبا والعالم الغربي عمومًا، وهذا ما حذر منه جاك شيراك نفسه.

أوروبا التي تنظر إلى تاريخها على أنه تاريخ من الثورات والمعارك من أجل العقل والحرية، هل هذه هي أوروبا التي لا تستطيع أن تحتمل وجود طالبة أو موظفة محجبة في مدرسة أو مؤسسة!. وكل ما يطرح من ذرائع ومبررات، ومن هواجس ومخاوف، لا تصمد أو تستقيم أمام ما شهدته وتشهده أوروبا على مستوى ما يعرف بثورة

المنهجيات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وتطور المعارف وتراكم العلوم، وبإمكان أوروبا التي تفتخر بعقلانيتها وبالعقل الفلسفي الذي قاد الثورات العلمية الكبرى هناك، أن تتخلص من تلك الأوهام والهواجس التي تحيط بقضية الحجاب الإسلامي في مجتمعاتها إن هي أرادت، وإلا فما جدوى الحوار بين الحضارات!

ـ 5 ـ
تحالف الحضارات

منذ أن طرحت مقولة صدام الحضارات في صيف 1993م، والاهتمام يتواصل بفكرة الحضارات في مجال العلاقات الدولية. ولأول مرة يتكثف ويتراكم هذا النمط من الاهتمام بفكرة الحضارات في تاريخ العلاقات الدولية الحديث والمعاصر، ومنذ القرن الماضي وإلى هذا القرن.

فبعد الحديث الواسع والعابر بين الأمم والمجتمعات عن فكرة حوار الحضارات، التي خصصت لها منظمة الأمم المتحدة سنة دولية، هي سنة 2001م، وعقدت لأجلها العديد من الندوات والمؤتمرات، وأصبح السياسيون ورجالات الدول لأول مرة يتحدثون في خطاباتهم السياسية عن هذه الفكرة، ويلفتون النظر إليها باستمرار، خصوصًا بعد صدمة الحادي عشر من سبتمبر، الصدمة التي وضعت العلاقات بين الثقافات والحضارات على المحك.

فبعد الحديث الواسع عن تلك الفكرة التي تراجعت نسبيًا اليوم، جاء الحديث عن فكرة أخرى، عرفت بفكرة تحالف الحضارات، التي دعا إليها رئيس الوزراء الأسباني الأسبق خوزيه ثاباتيرو في أعقاب تفجيرات مدريد المؤلمة في الحادي عشر من مارس 2004م.

وقد عبرت هذه الفكرة في وقتها عن موقف اتصف بالحكمة وبعد النظر، وقطعت الطريق على من كان يريد توظيف مثل تلك الأحداث باتجاه تعزيز كراهية المسلمين، وربط الإسلام بالإرهاب، أو بما يخدم مقولة صدام الحضارات، ودعت في المقابل إلى تحريك الموقف الدولي باتجاه تحالف الحضارات في مواجهة الإرهاب الذي بات عابرًا بين الدول والمجتمعات.

وشرح ثاباتيرو فكرته عن تحالف الحضارات، في خطاب بعث به إلى الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك كوفي أنان بعد أحداث مدريد. وكان أول المساندين لهذه الفكرة رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان الذي وقف إلى صف رئيس الوزراء الأسباني، ودعا إلى التضامن معه.

وعندما شارك ثاباتيرو في اجتماع القمة العربية التي عقدت بالجزائر في مارس 2005، دعا القادة العرب إلى دعم وتأييد مبادرته حول تحالف الحضارات للقضاء على الإرهاب، وتجاوز الفجوة بين الشرق والغرب. ونجح ثاباتيرو في حشد تأييد دولي لمبادرته، مستفيدًا من التعاطف الدولي والإنساني مع بلده بعد تلك الأحداث الدامية في مدريد. فكسب دعم الاتحاد الأوروبي والجامعة العربية والمؤتمر الأسباني اللاتيني.

كما حضيت الفكرة بتأييد كوفي أنان، وأطلقها رسميًا في الرابع عشر من يوليو 2005م، بإقرار تشكيل فريق عمل رفيع المستوى لإعداد برنامج عمل التحالف بين

الحضارات، وأطلق عليها لجنة الحكماء، وتشكلت من سبعة عشر عضوًا.

وفي 27 نوفمبر 2005م عقد الاجتماع التأسيسي لما عرف بمجموعة الأمم المتحدة حول تحالف الحضارات، في جزيرة مايوركا الأسبانية، وفي 26 فبراير 2006م عقد اجتماع في العاصمة القطرية الدوحة، مثل الجولة الثانية في اجتماعات هذه المجموعة الدولية. وتأتي هذه الاجتماعات بقصد بلورة وصياغة فكرة تحالف الحضارات ومحاورها وفلسفتها، وتقديم برنامج عمل متكامل تعتمده الأمم المتحدة.

وتجاوبًا مع هذه الفكرة في النطاق الإسلامي، عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ندوة دولية في تونس حملت عنوان (الحضارات والثقافات الإنسانية.. من الحوار إلى التحالف) في 30 يناير 2006م.

وأول ما يلفت النظر في مقولة تحالف الحضارات هو اختيار هذا المصطلح، وكأنه جاء بديلًا مقصودًا من مقولة حوار الحضارات، التي كانت سائدة بزخم ونشاط في مجال التداول الدولي، وبالتأكيد فإن هذه المقولة لم تكن غائبة عن إدراك ثاباتيرو حين دعا إلى مقولة تحالف الحضارات، مع ذلك فإنه لم يشرح طبيعة هذا الاختيار وحكمته وفلسفته، وجهة تفضيله على مقولة حوار الحضارات.

وما يمكن أن نفهمه عند تحليل المقولتين، هو أن

مقولة تحالف الحضارات، هي في الأساس مقولة سياسية من حيث البنية والطبيعة والمجال، وهذا ما توحي به كلمة تحالف التي تنتمي إلى المجال السياسي، إلى جانب أن السياق الذي ارتبطت به هذه المقولة كان سياقًا له طبيعة سياسية. في حين أن مقولة حوار الحضارات هي في الأساس مقولة ثقافية من حيث البنية والطبيعة والمجال.

ولعل الطبيعة السياسية كانت مطلوبة في مقولة تحالف الحضارات بقصد أن توحي بالمباشرة، وبقضايا ومشكلات فعلية وواقعية، ولا تحتمل التأجيل أو التأخير. والنقد الذي يتوجه إلى هذه المقولة هو أنها لا توحي بذلك التخلق في أبعادها الأخلاقية والثقافية والإنسانية.

وما أتمناه أن يلتفت أولئك الذي ينشغلون بفكرة الحضارات، إلى فكرة أخرى شديدة الفاعلية والتخلق، وهي فكرة تعارف الحضارات التي دعا إليها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات، الآية: 13].

- 6 -
تقارب الحضارات

أعلنت منظمة اليونسكو سنة 2010م سنة دولية لتقارب الحضارات، وجاء هذا الاختيار حسب بيان المنظمة، في إطار رغبة الدول الأعضاء في السعي إلى إقامة الحوار بين الحضارات والثقافات والشعوب، باعتباره مبدأ متجذرًا في صميم الميثاق التأسيسي لليونسكو.

وخلال التحضير لهذه السنة الدولية، جرى الاتفاق في داخل المجلس التنفيذي للمنظمة، على عدد من الأنشطة، منها: مضاعفة عدد الفرص المتاحة للبحث واللقاءات والمناقشات العامة، وزيادة عدد الأماكن التي تتيح ممارسة الوساطة بين الثقافات المتعددة، مثل المعارض التي تبين أشكال التبادل والنقل بين الثقافات، ومعارض ومهرجانات الكتب والأفلام والمسرح، وتوظيف المتاحف ومعارض الفن والمؤسسات باستخدام التكنولوجيا الجديدة، ولاسيما التكنولوجيا التي تخدم التنوع والترجمة بما يناسب رغبة كل بلد وثقافته.

كما جرى في هذا الصدد، الحث على الابتكار والنهوض في إبراز التنوع الثقافي الذي يتمتع به كل بلد في

العالم، بالتأكيد تارة على خصوصيات كل مجتمع، وتارة أخرى على عناصر التشابه التي توحد المجتمعات.

وعلى أساس أن يتم تعزيز رؤية شاملة للتراث بكل أشكاله، وذلك بوصفه حاملًا للتاريخ والهوية، وموردًا للتنمية المستدامة، وقوة دافعة لها، ووسيلة للحوار بين الثقافات والتقارب بينها.

وفي هذا النطاق، تم الاتفاق على أربعة موضوعات رئيسية، يفترض أن تؤطر أنشطة اليونسكو خلال هذه السنة الدولية، وهذه الموضوعات هي: تعزيز المعرفة المتبادلة للتنوع الثقافي واللغوي والديني، ووضع إطار للقيم المشتركة، وتدعيم التعليم الجيد والقدرات المعززة للتقارب بين الثقافات، وتشجيع الحوار المكرس لخدمة التنمية المستدامة.

لا شك في أهمية وقيمة هذه المبادرات، وحاجة العالم والمجتمع الإنساني إليها، الحاجة التي ستظل دائمة ومستمرة، في ظل ما يشهده العالم من انبعاث لنزعات التطرف والتعصب والكراهية، وفي ظل ما يقع من حروب ونزاعات متنقلة بين مجتمعات العالم.

لكن الذي بحاجة إلى التوقف عنده هو هذه التسميات المتعددة والمتعاقبة التي جرى استعمالها وتداولها في هذا الشأن، فمن تسمية حوار الحضارات، إلى تسمية تحالف الحضارات، إلى هذه التسمية الجديدة تقارب الحضارات، فما هي الحكمة من وراء ذلك؟

لعل الحكمة من وراء ذلك، هي تجديد النظر باستمرار إلى قضية الحوار بين الحضارات، ولفت الانتباه إليها بصور مختلفة، والمحافظة على حيويتها وديناميتها، وإظهارها بمظهر التجدد المستدام، ومحاولة الكشف عن أبعاد وعناصر جديدة، وتجاوز حالة الرتابة والسكون، والتفلت من الأحادية والأفق الضيق، إلى غير ذلك.

ومن السهولة تعقل هذه الحكمة والركون إليها، لكنها حكمة لا يشار إليها بهذا القدر من الوضوح، ولا يأتي الحديث عنها، فلم أجد عند تعاقب استعمال هذه التسميات الإشارة إلى الداعي إلى هذا التغير وحكمته ومقتضياته، والكشف عما بين هذه التسميات من فروقات وتوافقات، وأين تفترق وأين تشترك!

الأمر الذي يستدعي التساؤل لماذا جرى التحول من مفهوم حوار الحضارات الذي جرى التوافق عليه سنة 2001م، التي كانت سنة دولية لحوار الحضارات، إلى مفهوم تحالف الحضارات الذي تحول إلى منتدى عالمي يعرف بالمنتدى العالمي لتحالف الحضارات يعقد سنويًا بصورة متنقلة بين المجتمعات والثقافات؟

ولماذا جرى التحول لاحقًا من مفهوم تحالف الحضارات إلى مفهوم تقارب الحضارات؟

من الممكن القول إن هذا التعدد والتحول والتعاقب، جاء نتيجة اختلاف الجهات التي تبنت وطرحت هذه التسميات، فحوار الحضارات تبنته الجمعية العامة للأمم

المتحدة، وتحالف الحضارات طرحه رئيس الوزراء الأسباني الأسبق خوزيه ثاباتيرو في أعقاب تفجيرات مدريد الدامية في مارس 2004م، وتعاقب الحضارات تبنته منظمة اليونسكو.

وما يعترض هذا التفسير، وجود إطار مشترك تلتقي عنده هذه الجهات الثلاث، وهو إطار الأمم المتحدة، فاليونسكو هي منظمة من منظمات الأمم المتحدة وتعنى بالثقافة والتربية والعلوم، وثاباتيرو حين طَرح تحالف الحضارات لم يتم التوافق الدولي على هذه التسمية، إلا بعد موافقة الأمم المتحدة عليها، التي دعت إلى اجتماع تأسيسي في نوفمبر 2005م، انبثقت منه ما عرف بمجموعة الأمم المتحدة لتحالف الحضارات.

ولعل التفسير الأقرب، هو أن هذه التسميات تعددت نتيجة تعدد واختلاف الدواعي والبواعث، وجاءت متأثرة بهذه الدواعي، ومتناغمة معها، فتسمية حوار الحضارات جاءت ردًا على مقولة صدام الحضارات التي أثارت جدلًا واسعًا على مستوى العالم، ودفعت الدول والمجتمعات لأن تتحدث عن الحوار بوصفه بديلًا من الصدام.

ومقولة تحالف الحضارات جاءت على خلفية الانفجارات الدامية والمتنقلة بين مجتمعات العالم، من نيويورك ولندن ومدريد إلى الرياض والدار البيضاء وبالي وغيرها، الأمر الذي استدعى موقفًا دوليًا متضامنًا لمواجهة هذه الموجة العمياء من الإرهاب المتصاعد، وهو ما عبرت عنه مقولة تحالف الحضارات.

ومقولة تقارب الحضارات جاءت على خلفية ما أشار إليه تقرير المدير العام لليونسكو في سبتمبر 2009م، من أن مظاهر الاختلاف بين الثقافات والحضارات يمكن أن تتحول إلى حروب بسبب الجهل والتوجس والريبة وإنكار حقوق الإنسان، في حين أن المهمة الموكلة إلى اليونسكو هي قلب هذه العملية رأسًا على عقب، من خلال التثقيف بكيفية معرفة الآخر، واحترام الناس للناس.

وكنت أتمنى لو أن اليونسكو اختارت مفهوم تعارف الحضارات بدلًا من تقارب الحضارات، فهو أكثر صوابًا وتخلقًا ولمعانًا من المفهوم الثاني، وأقرب إلى المعاني والمقاصد والغايات المشار إليها، وذلك لأن الحضارات لن تتقارب ما لم تتعارف!

الفصل الرابع

تعارف الحضارات

- 1 -
تعارف الحضارات

حوّل يورغن هابرماس المفكر الألماني المعاصر، الذي ينتمي إلى الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت النقدية، مفهوم التواصل إلى فلسفة، أطلق عليها الفاعلية التواصلية. وقد عُرف هابرماس بهذه الفلسفة، واشتهر بها، وكسبت اهتمامًا، وما زالت تلفت الأنظار، وتستقطب النظر والنقد بين مفكري الحداثة وما بعد الحداثة.

وما عزز من القيمة المعرفية لهذه المقولة، أن هابرماس توصل إليها أو أعلنها، بعد دراسته لكبريات النصوص الفلسفية باتجاهاتها المختلفة في منظومات الفكر الأوروبي، من فلاسفة الأنوار إلى فلاسفة ما بعد الحداثة المعاصرين، من كانط وهيغل إلى فوكو ودريدا. وذلك في كتابه الأكثر شهرة من بين مؤلفاته، ولعله الأكثر شهرة في حقله أيضًا، وهو كتاب (القول الفلسفي للحداثة) كما في ترجمة المشارقة، و(الخطاب الفلسفي للحداثة) كما في ترجمة المغاربة. والذي بدأ فيه من مقولة أن الحداثة مشروع لم ينجز، إلى محاولة التوصل إلى درب آخر للخروج من فلسفة الذات عبر العقل التواصلي. فالعقل عند هابرماس تتحرك طاقاته في الفاعلية التواصلية من خلال ممارسات

اجتماعية، وإن طاقة العقل المتضمنة في الفاعلية التواصلية تتحقق بواسطة حركة الصيرورة في حياة البشر.

التواصل هذا المفهوم السهل والبسيط، حوله هابرماس إلى فلسفة شديدة الأهمية من خلال تأسيسات جوهرية، أعطت هذا المفهوم قيمة معرفية، ووطدت صلته بالفكر الفلسفي، الحقل الذي يضفي أو يضاعف صفة الاعتبار العلمي والأخلاقي للمفاهيم.

وهذا يؤكد على إمكانية أن يكون لبعض المفاهيم قيمة معرفية مهمة، لكنها بحاجة إلى اكتشاف وتأسيس واتصال بأحد الحقول المعرفية. كما يؤكد أيضًا على عدم الجمود على بعض المقولات والاقتصار عليها والتوقف عندها بصورة نهائية، أو أن تكون بعيدة عن الكشف والتجدد والإبداع. فالفكر الإنساني والعقل البشري مزودان بطاقات هائلة لا نستطيع أن نحدد مداها وسعتها وفاعليتها.

ومن المفاهيم الفعالة، أو التي بالإمكان أن تتحول إلى مفهوم فعال، مفهوم التعارف الذي يلتقي ومفهوم التواصل في نسق معرفي مشترك. فكلاهما يتضمن بناء الجسور، والوصول إلى الآخر، وتجاوز الذات أو فلسفة الذات حسب تعبير هابرماس، ويفترقان من ناحية المجال، فالتواصل لأنه يرتبط بمجال المعرفة، أو هكذا حاول هابرماس ربطه فتحددت علاقته بالعقل فهو تواصل بين العقول، واستنهاض طاقات العقل وتحريكها في علاقة تفاعلية بين الناس. ويقارب هذا المعنى ما ورد في الحديث

النبوي الشريف: (أعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله)، فهذا الحديث يتضمن دعوة إلى التواصل الفعال بين عقول الناس. أما التعارف فيرتبط بمجال الاجتماع، فتحددت علاقته بالمجتمع والناس.

من جهة أخرى فإن التعارف يتضمن مفهوم التواصل، فليس هناك تعارف بدون تواصل، لكنه يتجاوزه، بمعنى أن التعارف أوسع وأشمل منه، أما التواصل فقد يكون بتعارف أو بدون تعارف.

والتعارف هو المفهوم الذي حدده القرآن الكريم لشكل العلاقة بين الناس بعد أن توزعوا شعوبًا وقبائل، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، علمًا بأن القرآن الكريم لم يذكر في كل آياته تسمية ﴿شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ إلا في هذه الآية، التي أبرزت مفهوم التعارف وأكدت عليه وأظهرت قيمته وفاعليته، وقاعديته وعموميته.

فقد جاء في سياق مخاطبة الناس كافة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وبعد تذكيرهم بوحدة الأصل الإنساني ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾، وتقرير التنوع الإنساني ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾، التنوع الذي ينبغي أن يكون محكومًا بقاعدة التعارف، الذي هو تعارف بين الجماعات وليس في نطاق وحدود الأفراد.

وهذا ما يوصلنا إلى مفهوم تعارف الحضارات، وهو اصطلاح جديد ما زال بحاجة إلى تأسيسات وتراكمات

وبناءات، فكرية ومعرفية وتاريخية، لكي تتحدد هويته بصورة متجلية وتتبلور مكوناته الجوهرية، ويصل إلى درجة من الإحكام العلمي والاصطلاحي تبرر له شرعية التداول والاستعمال على أوسع نطاق.

وقد طرحت هذا الاصطلاح لأول مرة في صيف 1997م، ولقي اهتمامًا وتقبلًا في بعض الأوساط الأكاديمية، فقد تحدث عنه الدكتور سيف الدين عبد الفتاح أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة، في ورقة تقدم بها لندوة (الإسلام والعولمة)، عقدت بجامعة القاهرة، كلية العلوم، في مايو 2000م. وتبنته الدكتورة نادية مصطفى أستاذة العلاقات الدولية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، ورجحته على مفهوم حوار الحضارات، واعتبرت أنه يعبر عن المنظور الإسلامي في العلاقات بين الحضارات، وذلك في ورقة بحثية تقدمت بها لندوة (كيف ندخل سنة حوار الحضارات؟) عقدت بدمشق، في نوفمبر 2000م.

وفي هذه الندوة جرى الحديث عن هذا المفهوم باهتمام بين نخبة من المفكرين والأكاديميين العرب، وكنت حاضرًا فيها ومشاركًا في مناقشاتها، وتطرق إليه بعض الكتاب والمثقفين في مقالات نشروها في صحف عربية.

وإذا تأملنا في هذا الاصطلاح بطريقة معرفية، فإنه بالإمكان أن نكتشف قيمته الدلالية، التي منها:

1 ـ الخروج من الإشكالية الثنائية التي كرست الطابع

الجدلي والاحتجاجي بين مقولتي حوار الحضارات وصدام الحضارات، الإشكالية التي قد تضيق عمليات الفهم وتورث السجال.

2 ـ تجاوز إشكالية الجمود والتوقف، أو الاقتصار على تينك المقولتين فحسب، إلى نوع من التجدد والكشف من خلال مقولة جديدة ومختلفة.

3 ـ إن مفهوم تعارف الحضارات هو أوسع وأشمل وأعمق من مفهوم حوار الحضارات، وهو ينطلق من أرضية تكوين المعرفة والتأسيس عليها، فالتعارف هو الذي يحدد شكل العلاقات وحدودها ومستوياتها وآفاق تطوّرها.

4 ـ إن المشكلة بين الحضارات ليست في عدم الحوار فيما بينها، وإنما في عدم التعارف، والانقطاع عن تكوين هذه المعرفة، وسيادة الجهل أو الفهم المنقوص، أو النمطية والسطحية في المعرفة. لذلك فإن كل حضارة غالبًا ما تصور مشكلاتها مع الحضارات الأخرى على أساس عدم المعرفة السليمة أو الصحيحة بها.

ـ 2 ـ

تعارف الحضارات.. نظرية في كتاب التاريخ الثانوي

في صيف 1997م نشرت مقالة مطولة عنوانها (تعارف الحضارات)، وكانت هذه أول محاولة في نحت واستعمال هذه التسمية، التي دخلت المجال التداولي العربي منذ ذلك الوقت، وظلت تتموج وتتسع بوتيرة متصاعدة، وما زالت محافظة على هذه الوتيرة إلى اليوم.

وكنت قد تحدثت عن هذه الفكرة باستمرار كتابة وحديثًا ونقاشًا، وحاولت لفت النظر إليها في كل مناسبة ممكنة، ونبهت إلى أهميتها وقيمتها، وضرورة التثاقف والتواصل معها، والحاجة إلى رفدها وإنمائها معرفيًا وتاريخيًا:

وحينما دعيت إلى المشاركة في الندوة الدولية حول (الإسلام وحوار الحضارات) التي نظمتها في الرياض مكتبة الملك عبد العزيز العامة سنة 2002م، قدمت ورقة عنوانها (من حوار الحضارات إلى تعارف الحضارات)، ختمتها بالإشارة إلى تحديات الإنماء المعرفي، وما يعترض المفاهيم والنظريات التي تأتي من المجال العربي في انتزاع

الاعتبار العلمي، والجدارة العلمية ليس من الغرب فحسب، وإنما من داخل العالم العربي أيضًا.

وفي سنة 2006م أصدرت كتابًا يحمل التسمية نفسها (تعارف الحضارات)، جمعت فيه المقالات والكتابات التي تناولت هذه الفكرة، وتطرقت إليها، وتحدثت عنها، واتخذت من تعارف الحضارات عنوانًا لها، وقد احتوى الكتاب على عشرة نصوص، لكتاب وباحثين وأكاديميين من مصر وسوريا والعراق والكويت والجزائر والمغرب، بالإضافة إلى ما كتبته ونشرته حول هذه الفكرة.

وفي تطور لافت، نوقشت سنة 2007م بكلية الآداب قسم الفلسفة جامعة بغداد، رسالة ماجستير حول هذه الفكرة، حملت عنوان (تعارف الحضارات.. الأطروحة البديل في التعامل مع الآخر)، تقدم بها الباحث العراقي علي عبود المحمداوي، وأشرف عليها الدكتور نبيل رشاد سعيد، وكنت على تواصل مع صاحب الرسالة من البداية إلى النهاية.

وفي يناير 2008م عقدت ندوة في العاصمة السورية دمشق عنوانها (تعارف الحضارات في ظل الأسرة الإنسانية الواحدة)، نظمها معهد جمعية الفتح الإسلامي في دمشق، بالتعاون مع جامعة هاتفورد سيمزي الأمريكية. علمًا أن كتاب (تعارف الحضارات) صدر في دمشق عن طريق دار الفكر.

وتطرق إلى هذه الفكرة، وأشار إليها العديد من

الكتاب والباحثين والعلماء والأكاديميين من مختلف أقطار العالم العربي، في مؤلفات وكتابات ومقالات وحوارات، أحتفظ بالكثير منها.

والتطور الجديد واللافت جدًا، أن هذه الفكرة بدأت تدرس في المقرر الدراسي لكتاب التاريخ الصف الحادي عشر في دولة الإمارات العربية المتحدة، وهو المقرر الجديد والمطور للسنة الدراسية 1430 ـ 1431هـ/ 2009 ـ 2010م.

وجاء الحديث عن هذه الفكرة في الجزء الأول من كتاب التاريخ، الدرس الثاني الذي حمل عنوان (أسس العلاقات بين الحضارات الإنسانية)، حيث تطرق هذا الدرس إلى ما أسماه نظريات التفاعل الحضاري، وأشار إلى أربع نظريات، معرفًا بفكرتها وصاحبها، وهذه النظريات الأربع بحسب ترتيبها وصياغتها في الكتاب هي:

أولاً: نظرية صراع الحضارات من وجهة نظر صمويل هنتينغتون.

ثانيًا: نظرية حوار الحضارات من وجهة نظر روجيه غارودي.

ثالثًا: نظرية نهاية التاريخ من وجهة نظر فرانسيس فوكوياما.

رابعًا: نظرية تعارف الحضارات من وجهة نظر زكي الميلاد.

وفي قسم النشاط، ويراد منه مهارة التشابه والاختلاف، ورد السؤال التالي:

استخرج أوجه التشابه والاختلاف بين كل من نظرية (صمويل هنتنغتون وروجيه غارودي) و(فرانسيس فوكوياما وزكي الميلاد) حول التفاعل في الحضارات؟

كما جرت الإشارة إليها في نهاية تقويم الوحدة.

وفي تصور لجنة التأليف التي وضعت هذا الكتاب، أنه يأتي في إطار خطط وزارة التربية والتعليم لتطوير المناهج التعليمية، وتحديثها بما يواكب التطورات والمستجدات التربوية في عالمنا اليوم، وبشكل يتيح للمتعلم التعرف إلى واقعه المعاصر وأطروحاته بمنظور شمولي متكامل ومتزن للقضايا والمشكلات المعاصرة.

ولا شك في أن هذه الخطوة ستعطي فكرة تعارف الحضارات دفعة جديدة وقوية، وستعرف الأجيال الجديدة بهذه الفكرة الخلاقة، التي اتخذت من القرآن الكريم منبعًا لها، فهي مستنبطة من آية التعارف في سورة الحجرات ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾.

وما زالت هذه الفكرة تشق طريقها، وستظل في حالة تطور وتجدد دائمين، وسنسمع عن أعمال ورسائل جديدة حول هذه الفكرة في الأيام القادمة.

- 3 -
تعارف الحضارات في الإسكندرية

في الثامن عشر من شهر مايو 2011م، عقد في مدينة الإسكندرية المصرية مؤتمر دولي عنوانه (تعارف الحضارات)، نظمته مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع مركز الحوار في الأزهر ومركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة.

حضر المؤتمر جمع كبير من الباحثين والأكاديميين من مصر والعالم العربي، ومن بعض الدول الإسلامية مثل تركيا وماليزيا وأندونيسيا وكوسوفا ونيجريا ومالي.

وقد ناقش المؤتمر على مدى يومين، خمسة محاور أساسية، توزعت على خمس جلسات عمل، وتحددت هذه المحاور في الموضوعات التالية: تعارف الحضارات الفكرة والتأسيس، التعارف الحضاري في الفكر الإسلامي، تعارف الحضارات الخبرة والممارسة، تعارف الحضارات وتغيير العالم.

وتحدث في المؤتمر ثمانية عشر باحثًا وأكاديميًا من مصر والسعودية وتونس والجزائر والمغرب وتركيا، إلى

جانب مداخلات ومناقشات موسعة ومستفيضة من الحاضرين.

وفكرة هذا المؤتمر بدأت مني، إذ قدمت اقتراحًا وطلبًا في هذا الشأن لإدارة مكتبة الإسكندرية في شهر يونيو 2010م حين شاركت في مؤتمر نظمته المكتبة نفسها، وكان الاقتراح مشفوعًا بتصور موسع يشرح طبيعة فكرة تعارف الحضارات خلفياتها وأبعادها، عناصرها ومكوناتها، فلسفتها وحكمتها، مع الإشارة إلى علاقة هذه الفكرة بفكرة حوار الحضارات وما بينهما من مفارقات في المبنى والمعنى، والسياق والاتجاه، والمصدر والمنبع.

وحين قصدت مكتبة الإسكندرية بهذا الاقتراح، كنت مدفوعًا بثلاث خلفيات متصورة عندي وراجحة، وهذه الخلفيات الثلاث هي:

أولاً: كنت واثقا بدرجة كبيرة بإمكانية موافقة إدارة مكتبة الإسكندرية على هذا الاقتراح، ومنشأ هذه الثقة بهذه الدرجة، كان نابعًا من أمرين متلازمين، الأول العلاقة الطيبة والممتازة بيني وبين إدارة المكتبة، العلاقة التي نمت وتواصلت بصورة متصاعدة، وتطورت إلى التعاون في أعمال مشتركة.

والأمر الثاني قادني إليه ما تكوّن عندي من معرفة مباشرة ومتراكمة عن المكتبة، إذ وجدتها مكتبة منفتحة على الأفكار، ومرحبة بالمبادرات، ومشجعة على الابتكار، ومتعاملة بأفق واسع ونظر بعيد.

وقد وجدت فيما بعد أن هذه الثقة كانت في مكانها، فبعد أن تحدثت عن فكرة المؤتمر في شهر يونيو 2010م، وقبل سفري من هناك حصلت على شبه موافقة مبدئية، وخلال أقل من سنة تحول هذا الاقتراح إلى فعل عملي، بانعقاد هذا المؤتمر.

ثانيًا: لقد وجدت أن مكتبة الإسكندرية في رسالتها وخطابها وأنشطتها لا تنهض بفكرة تعارف الحضارات فحسب، وإنما تتمثلها فعليًا، وتمارسها عمليًا بصورة فعالة ومستمرة، وذلك من خلال مراكزها المتعددة، وعلاقاتها الواسعة مع العديد من المجتمعات والثقافات، وبواسطة مجموع أنشطتها السنوية المكثفة والمتنوعة.

أما الرسالة التي حددتها المكتبة لنفسها، وأرادت الوصول إليها، والنهوض بها، فهي تتحدد حسب رؤية المكتبة، في أن تصبح المكتبة (مركزًا للتميز في إنتاج المعرفة ونشرها، وملتقى للحوار والتفاهم بين الشعوب).

وترى المكتبة نفسها بكل ثقة، أنها (قد نجحت في أن تصبح مركزًا فريدًا للحوار بين الشعوب والحضارات، من خلال اجتذاب المشاركين من كل أنحاء العالم، ففي المكتبة تتلاشى كل الاختلافات، ويبقى حب المعرفة والتفاهم واحترام إنسانيتنا المشتركة)، هذا ما جاء في التقرير السنوي للمكتبة للفترة الممتدة ما بين يوليو 2007 ويونيو 2008م.

وفي كل سنة هناك جدول كبير من المشاريع والأعمال التي تنهض بها المكتبة في إطار تواصلها مع

الثقافات الإنسانية المتنوعة، والتي تشمل العديد من المجالات والميادين، ومنها ميادين العلوم والفنون والآداب والبيئة والجغرافيا وغيرها، ومن خلال مراكز متعددة تنشط داخل المكتبة، ومنها مركز الفنون، ومركز الخطوط، ومركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي وغيرها.

ثالثًا: الإسكندرية المدينة التي يعرفها التاريخ جيدًا بوصفها مركزًا مهمًا لالتقاء الثقافات وتعارفها، هي المدينة التي أسست كما يقول الدكتور مصطفى النشار في كتابه (مدرسة الإسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقي والفلسفة اليونانية) الصادر سنة 1995م، لا لتكون عاصمة للدولة فحسب، بل مدينة عالمية وذلك للمرة الأولى في تاريخ المدن، واعتبرها المؤرخ تارن أنها كانت أعظم مدينة في العالم المعروف آنذاك، وإذا كانت أثينا، برأيه، قد احتفظت لنفسها منذ قديم الزمان، فإن الإسكندرية قد علت عليها، وحجب بهاؤها بريق أثينا فأصبحت قبلة العلوم والآداب التي يشد إليها الدارسون رحالهم.

لهذه الخلفيات الثلاث، بادرت إلى فكرة مؤتمر تعارف الحضارات لمكتبة الإسكندرية.

وقد مثل هذا المؤتمر محطة مهمة في مسارات تطور فكرة تعارف الحضارات، سوف يتذكرها ويتوقف عندها من يتتبعون تاريخ تطور هذه الفكرة، التي شقت طريقها نحو المجال التداولي، وشهدت وما زالت تشهد نموًا وتجددًا وتراكمًا فكريًا ومعرفيًا.

وجرى في هذا المؤتمر، تقديم مجموعة من الأوراق البحثية الجادة والمهمة، لباحثين وأكاديميين مشهود لهم بالخبرة والمعرفة، تناولوا الحديث عن فكرة تعارف الحضارات من زوايا متنوعة، وبمداخل متعددة، وبالاستناد إلى خبرات ومعارف متخصصة.

فمن مصر، كانت هناك مشاركات لمجموعة من الباحثين المعروفين، وهم حسب ترتيبهم في البرنامج، الدكتور سيف الدين عبد الفتاح أستاذ النظرية السياسية بجامعة القاهرة، وقد تحدث عن (الإشكاليات المنهجية والمعرفية لبناء مفهوم تعارف الحضارات)، والأستاذ مدحت ماهر وتحدث عن (التأسيس المعرفي والرؤية القرآنية لتعارف الحضارات)، والدكتور محمد كمال الدين إمام أستاذ ورئيس قسم الشريعة كلية الحقوق جامعة الإسكندرية، وحملت ورقته عنوان (مصطلح تعارف الحضارات.. رؤية إسلامية حوار مع زكي الميلاد)، والدكتور محمود عزب الأستاذ بجامعتي الأزهر والسوربون ومستشار شيخ الأزهر لشؤون الحوار، وتحدث عن (حوارات التعارف البينية داخل الحضارة الإسلامية)، والدكتور عاصم حفني محاضر في قسم الدراسات الإسلامية والعربية في مركز الدراسات الشرق أوسطية بجامعة ماربورج الألمانية، وحملت ورقته عنوان (المنظومة القيمية وتعارف الحضارات)، والدكتور سامح فوزي نائب مدير منتدى الحوار بمكتبة الإسكندرية، وحملت ورقته عنوان (الحضور المسيحي العربي.. العمق والإشكاليات)، والدكتورة نادية مصطفى أستاذة العلاقات

الدولية ورئيسة قسم العلوم السياسية بجامعة القاهرة، وحملت ورقتها عنوان (نماذج تاريخية للتعارف خلال الحرب والدبلوماسية)، إلى جانب ورقة للدكتور محمد عمارة الذي تغيب عن المؤتمر، وحملت ورقته عنوان (التعارف بين الحضارات.. رؤية إسلامية ونماذج تاريخية).

ومن المغرب، كانت هناك مشاركات لمجموعة من الباحثين المعروفين كذلك، وهم حسب ترتيبهم في البرنامج، الدكتور يحيى اليحياوي أستاذ اقتصاد المعرفة والشبكات الرقمية بجامعة محمد الخامس بالرباط، وحملت ورقته عنوان (في القابلية على التعارف.. على هامش أطروحة تعارف الحضارات)، والدكتور سعيد بن سعيد العلوي الرئيس السابق لجامعة محمد الخامس، وحملت ورقته عنوان (من أجل تعارف إيجابي للحضارات.. المركزية الفكرية الغربية في ميزان النقد)، والدكتور عبد الرحيم بن حادة أستاذ التاريخ الحديث وعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس، وتحدث عن (نماذج من الأدب والرحلات والترجمة)، والأستاذ محمد بن صالح خبير في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وتحدث عن (رؤية الإيسيسكو لتعارف الحضارات وتعزيز المشترك الإنساني).

ومن الجزائر، شارك الدكتور محمد مراح أستاذ محاضر في كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة العربي بن مهيدي، وحملت ورقته عنوان (نحو رؤية إسلامية لتعارف الحضارات)، ومن تونس، شاركت الدكتور سارة حكيمي

كاتبة وباحثة، وحملت ورقتها عنوان (الصورة الثقافية للآخر في إطار نظرية تعارف الحضارات)، ومن تركيا شارك الدكتور نوزاد صواش رئيس القسم العربي في مؤسسة البحوث الأكاديمية في اسطنبول، وتحدث عن (استنفار التعليم والمال في صناعة الإنسان وتعارف الحضارات).

إلى جانب هؤلاء المتحدثين وأوراقهم، كانت هناك مناقشات ثرية، لعلها من أهم المناقشات التي جرت في المجال العربي، حول فكرة تعارف الحضارات.

ومن وجهات النظر التي نوهت بفكرة تعارف الحضارات، ما أشار إليه الدكتور سعيد بن سعيد العلوي الذي اعتبر في مفتتح ورقته أن تعارف الحضارات مشروع مستقبلي يستهدف مجاوزة حال النفور والحرب الخفية القائمة اليوم، ويتطلع إلى غد قوامه الحوار والتفاهم والسلام، وفي خاتمة ورقته اعتبر أن تعارف الحضارات مشروع ضخم أوله النقد وقبوله، والسبيل إليه هو الحرب الدؤوب ضد الأوهام والعوائق التي قد نكون نحن أنفسنا أطرافًا فيها، وجنودًا مدافعين عنها.

ومن جهته رأى الدكتور محمد كمال الدين إمام أن فكرة صدام الحضارات تقوم على المغالبة حيث الدنيا لمن غلب، في حين أن فكرة تعارف الحضارات تقوم على المصاحبة حيث الدين المعاملة.

ورأت الدكتورة سارة حكيمي أن نظرية تعارف الحضارات هي الحل الأجدى في تكوين صورة ثقافية

واقعية عن الذات والآخر، وإتاحة الفرصة للتفاعل التلقائي والاختيار الواعي، فتبنى العلاقة مع الآخر على أسس من التعارف والتفاعل والتعايش بعيدًا عن الوهم والجهل.

ودعا الدكتور محمد مراح إلى إنشاء منتدى عالمي لتعارف الحضارات، وإحياء يوم عالمي لتعارف الحضارات.

وتفاعلًا مع الفكرة، وفي اليوم الثاني للمؤتمر، تقدم الدكتور حسام الدين بدر المشرف على شعبة اللغة الألمانية في كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر، تقدم بتصور مكتوب لتأسيس جمعية باسم تعارف الحضارات، لنقل الفكرة حسب رأيه من حيز النظرية إلى حيز التطبيق.

ومن المؤكد أن هذه الأوراق والمناقشات، قد وضعت فكرة تعارف الحضارات أمام أفق جديد.

ـ 4 ـ

تعارف الحضارات.. وفكرة التواصل عند هابرماس

في المؤتمر الدولي لتعارف الحضارات، الذي نظمته في مدينة الإسكندرية المصرية مكتبة الإسكندرية، بالتعاون مع مركز الحوار في الأزهر ومركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بجامعة القاهرة، والمنعقد في الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة 1432هـ، الثامن عشر من شهر أيار ـ مايو 2011م، في هذا المؤتمر قدم أستاذ ورئيس قسم الشريعة في كلية الحقوق جامعة الإسكندرية الدكتور محمد كمال الدين إمام ورقة عنوانها (مصطلح تعارف الحضارات رؤية إسلامية.. حوار مع زكي الميلاد).

في هذه الورقة، تتبع الدكتور إمام علاقتي بفكرة تعارف الحضارات منذ مرحلة الانبجاس الأولى، إلى أن استوت على سوقها نظرية تم الاعتراف بها، وذلك بالعودة إلى كتاب (تعارف الحضارات) الصادر سنة 2006م، وتحديدًا لمدخل الكتاب الذي حمل عنوان (تعارف الحضارات.. فكرة وتطورًا ومصيرًا).

وإلى جانب هذا التتبع الاستطلاعي قدم الدكتور

إمام أيضًا، مطالعة مضيئة ومفيدة لفكرة تعارف الحضارات.

وفي هذا التتبع توقف الدكتور إمام بنوع من القلق وصفه بالقلق العلمي، عند العلاقة بين فكرة تعارف الحضارات، وفكرة التواصل عند الفيلسوف الألماني المعاصر يورغن هابرماس، وشرح هذا القلق بقوله: (وسرعان ما يحتوينا قلق علمي عندما يحاول زكي الميلاد، أن يوجد نسبًا أو في القليل تجاورًا بين مفهوم التعارف ـ الإسلامي المدرك والصياغة والمضمون ـ وبين مفهوم التواصل عند المفكر الألماني المعاصر يورغن هابرماس خاصة في كتابه القول الفلسفي للحداثة).

ومن الواضح أن منشأ هذا القلق العلمي عند الدكتور إمام، هو النسب أو التجاور المفترض بين فكرة تنتمي إلى المجال الإسلامي، وفكرة أخرى تنتمي إلى المجال الغربي، الأمر الذي يعني أن هذا القلق له علاقة بهاجس الهوية، والشعور بالتمايز الفكري، والخشية من الاختراق الثقافي، والحذر من الإصابة بالتغرب والتغريب، أو أقله ضرورة الاحتفاظ بمسافة أو مسافات تفصل وتباعد بيننا وبين الغرب الاستعماري والإمبريالي، المخادع والمتحامل، الفاتن والساحر، إلى غير ذلك من صور وأوصاف ظهر عليها الغرب في تاريخ علاقاته بالأمم والمجتمعات الأخرى غير الأوروبية.

وما يعنيني بالدرجة الأولى، ليس تبديد هذه الهواجس والمخاوف أو التخفيف منها، ولا حتى إسقاطها وعدم

الاكتراث لها، وهذا ما لم أشعر به على الإطلاق، لا قبل إطلاق هذه الهواجس والمخاوف ولا بعدها، وما كان يعنيني فعلًا هو أمر آخر بعيد كل البعد عن تلك الهواجس والمخاوف.

وما أطلق عليه الدكتور إمام النسب أو التجاور بين فكرتي التعارف والتواصل، كانت الغاية منه تتحدد في النقاط الآتية:

أولاً: إن تعارف الحضارات هو مفهوم جديد، والكشف عن أي مفهوم جديد يستدعي من الناحيتين المنهجية والمعرفية، اختبار هذا المفهوم من مختلف جهاته التي يتصل بها، حتى تكتشف أبعاد هذا المفهوم وعناصره، وتتضح هويته وماهيته، وتتبلور حدوده وعلائقه، وبهذه الطريقة تتحدد صورة المفهوم، ويصك ويستوي على سوقه.

وفي هذا النطاق جاء الحديث عن مفهوم التواصل عند هابرماس، فقد وجدت أن هذا المفهوم يشترك مع مفهوم التعارف في جهة، ويفترق عنه في جهة أخرى، وكان لا بد من الكشف عن هذين الجانبين الاشتراك والافتراق، لكي تتحدد بعض ملامح مفهوم التعارف.

فمن جهة الاشتراك، هناك اشتراك بين المفهومين في تبني فلسفة العبور من الذات إلى الآخر، فالتواصل مهما قلنا عنه من تفسيرات وتأويلات، هو مفهوم ناظر إلى الآخر، وهكذا الحال مع مفهوم التعارف.

وفلسفة العبور من الذات إلى الآخر تعني أن الوجود والحقيقة والقيمة ليست إلى الذات فحسب، وإنما إلى الآخر أيضًا، الأمر الذي يعني ضرورة الوصول إلى هذا الآخر واكتشافه، والاعتراف بوجوده، وحتى حمايته والدفاع عن كرامته وحقوقه.

ومن جهة الافتراق، هناك افتراق في المجال بين المفهومين، فالتواصل عند هابرماس هو مفهوم له علاقة بالمعرفة، ويتصل بالعقل، وينتمي إلى المجال الفلسفي، في حين أن التعارف هو مفهوم له علاقة بالناس، ويتصل بالجماعات والمجتمعات، وينتمي إلى المجال الإنساني العام.

وبهذا يكون مفهوم التعارف أوسع من تلك الحدود التي تحدد بها مفهوم التواصل عند هابرماس.

ثانيًا: إن هذه المقاربة مع مفهوم التواصل، تنطلق أساسًا من خلفية انتساب هذا المفهوم إلى حقل المعرفة الإنسانية، وليس بوصفه مفهومًا غربيًا متطبعًا بالثقافة الغربية، ومتسلحًا بالأيديولوجيا الأوروبية.

والمفترض أن لا خشية كثيرًا من المفهوم الذي ينتسب إلى الحقل المعرفي، وإلى المعرفة بصورة عامة، من جهة المس بالهوية، أو اختراق الثقافة، أو الإصابة بالتغرب، أو غير ذلك من هواجس ومخاوف.

ثالثًا: أردت من هذه المقاربة أيضًا، القول إن التواصل هي فكرة سهلة وبسيطة مع ذلك تحولت إلى نظرية عرف واشتهر بها هابرماس في المجال الأوروبي والإنساني عمومًا، وجرت حولها نقاشات فكرية وفلسفية لم تنقطع إلى اليوم.

وهذا يعني أن بإمكان فكرة تعارف الحضارات، أن تتحول إلى نظرية لا تقل أهمية وقيمة في المحتوى الفكري والأخلاقي والإنساني عن نظرية التواصل، خصوصًا وأن فكرة التعارف تستند إلى أصل متينٍ يرجع إلى القرآن الكريم، الذي هو أصل الأصول عند المسلمين كافة، الاستناد الذي يضاعف من قيمة هذه الفكرة، ويرفع من منزلتها، ويكسبها قدرة على البقاء والديمومة.

وكنت أعلم أن هذه الفكرة حتى تنتقل وتتحول إلى نظرية، هي بحاجة إلى إنماء معرفي متجدد ومتراكم، وإلى مزيد من النقاش العلمي، وإلى حالة من الاحتضان والتضامن الفكري والأخلاقي.

رابعًا: إلى جانب تلك الخلفيات والأبعاد، وجدت أن بإمكان هذه المقاربة تقريب الكتاب والباحثين والمثقفين عمومًا من فكرة تعارف الحضارات، بوصفها فكرة جديدة بحاجة إلى نوع من العناية والالتفات، وإلى تكثيف النقاش حولها، ودفعها نحو المجال التداولي.

وكان في ظني أن هذه المقاربة بإمكانها أن تمثل

إغراء معرفيًا ينجذب إليه هؤلاء الكتاب والمثقفون الذين تستحوذ على اهتماماتهم عادة مثل هذه المقاربات، التي لا تخلو من إثارة وطرافة، وما تتسم به من جدل ونقاش، وما تظهر فيها من فروقات ومفارقات.

هذا ما كان يعنيني فعلًا من هذه المقاربة بين فكرة تعارف الحضارات، وفكرة التواصل عند هابرماس.

ـ 5 ـ
تعارف الحضارات في تونس

في السادس من شهر ديسمبر 2011م، نوقشت في جامعة تونس المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي، رسالة دكتوراه في العلوم الثقافية عنوانها: (الصور الثقافية المتبادلة بين العالم الإسلامي والعالم النصراني.. زمن الحروب الصليبية)، من إعداد الباحثة التونسية سارة حكيمي، وإشراف الدكتور إبراهيم جدلة.

تكونت هذه الرسالة من أربعة أبواب رئيسية إلى جانب مقدمة ومدخل عام وخاتمة، واحتوى كل باب من هذه الأبواب الأربعة ما بين فصلين وثلاثة فصول، الباب الرابع والأخير في هذه الرسالة حمل عنوان: (الصورة الثقافية للآخر ونظرية تعارف الحضارات)، وتكون هذا الباب من فصلين، الفصل الأول جاء بعنوان: (ما قبل نظرية تعارف الحضارات)، وتطرق إلى ثلاث نظريات هي نهاية التاريخ، وصدام الحضارات، وحوار الحضارات، وجاء الفصل الثاني بعنوان: (نظرية تعارف الحضارات)، وتطرق إلى ثلاثة مباحث هي: مفهوم نظرية تعارف الحضارات، مفاهيم متعلقة بنظرية تعارف الحضارات والصورة الثقافية، الصورة الثقافية في نماذج من تعارف

الحضارات، وتقع الرسالة كاملة في 572 صفحة من القياس الكبير.

وعن رؤيتها لنظرية تعارف الحضارات، ذكرت الباحثة سارة حكيمي في المذكرة التي قدمتها أثناء مناقشة الرسالة، أن حجم الإشكال في العلاقات القائمة بين الأمم والشعوب قد أصبح جليًا، الأمر الذي استوجب تكاثف الجهود للخروج من دائرة الحروب والصراعات إلى رحاب السلام والتعايش.

وبعد تنقيب طويل تراءى للباحثة أن الحل بداية يكمن في حوار الحضارات بوصفه بديلًا حضاريًا، إلا أنها وجدت نقائص في هذه الأطروحة، فما كان منها إلا إعادة السعي والبحث في حل آخر يمكنه تقريب الرؤى، لأن التحاور مع الآخر لا يعني بالضرورة أن أغير صورتي النمطية عنه، أو أن يغير هو صورته النمطية عني، بل قد يؤدي ذلك إلى التصميم أكثر على تبني المواقف، فشعرت بوجود حلقة منقوصة في المسألة، وبعد تجارب وتساؤلات أعادت البحث من جديد، إلى أن وجدت ضالتها في نظرية تعارف الحضارات، ورأت فيها حلًا مجديًا في ملاقاة المتعدد، وبديلًا في صياغة أو إعادة صياغة متمثلنا عن الآخر.

وخلال فترة إعداد الرسالة كانت الباحثة حكيمي على تواصل معي، وتحديدًا في الباب المتعلق بنظرية تعارف الحضارات، وأشارت إلى ذلك في رسالتها، وشملتني في من شملتهم بالشكر والتقدير.

وقبل مناقشة الرسالة اقترحت على المشرف الدكتور جدلة، دعوتي إلى حضور جلسة المناقشة بحكم علاقتي بنظرية تعارف الحضارات، فرحب الدكتور المشرف بهذا الاقتراح وأضاف إليه فكرة المشاركة أيضًا في مناقشة الرسالة، والحلول ضيفًا على الجامعة، وللأسف لم أتمكن من الحضور لأن الموعد ظل يتأجل عدة مرات.

وعندما جرى التنسيق مع مكتبة الإسكندرية لعقد مؤتمر حول تعارف الحضارات، اقترحت اسم الباحثة حكيمي للمشاركة لكونها باحثة في هذا الموضوع، وقد دعيت، وحضرت فعلًا المؤتمر الذي عقد في شهر جمادى الآخرة 1432هـ / مايو 2011م، وقدمت ورقة من وحي رسالتها، وكانت بعنوان: (الصورة الثقافية للآخر في إطار نظرية تعارف الحضارات).

وسلمتني في المؤتمر نسخة كاملة من رسالتها، وأكدت علي الدعوة إلى حضور جلسة المناقشة، وبعد عودتها من هذا المؤتمر أخبرتني في رسالة إلكترونية أنها وجدت فيه مؤتمرًا رائعًا، وكان مفيدًا جدًا بالنسبة إليها، وقد وجدت فيها باحثة جادة تتسم بالنضج والذكاء والطموح، كما وجدت فيها وبعد هذا المؤتمر حماسة كبيرة لنظرية تعارف الحضارات، وتجلى ذلك في اقتراحاتها ومناقشاتها وكتاباتها حول هذه النظرية، ورغبتها في تكوين جمعيات تتأطر حول هذه الفكرة، وتعرف بها، تعميمًا لثقافة وقيم تعارف الحضارات.

وهذه على ما أعلم أول رسالة دكتوراه في تونس

تتحدث وتناقش نظرية تعارف الحضارات، ومن هنا تكمن أهمية هذه الرسالة وقيمتها، ويسجل لهذه الرسالة أيضًا أنها مثلت إضافة جديدة سوف يؤرخ لها في مسارات تطور هذه النظرية، التي شقت طريقها تقدمًا وصعودًا بوصفها نظرية تنتمي إلى المجال الحضاري الإسلامي، وتبشر بالتعارف بين الحضارات، وهذه أسمى رسالة تقدم إلى الناس كافة، في عالم تطحنه الحروب والنزاعات ويبحث عن أمل جديد.

الفصل الخامس

حوار الأديان.. تأملات في التجربة

- 1 -
انطباع ومعايشة

انتظرت الكتابة عن حوار الأديان إلى ما بعد معايشة التجربة، ومحاولة التأمل في هذا القضية من خلال المعايشة، وليس عن طريق التأمل النظري المجرد. وهي التجربة التي كنت حريصًا على الاقتراب منها، والاحتكاك بها، بعد كل ما كتبته ونشرته وتحدثت به عن حوار الحضارات وتعارف الحضارات.

وكان في تقديري أن صورة هذه القضية عند من يعايشها، تختلف إلى حد كبير عند الذي لم يعايشها، وهذا ما يدركه من يرى نفسه في أجواء التجربة سمعًا وبصرًا، تفاعلًا واندماجًا، تذاكرًا وتفاكرًا.

ولعل من الصعوبة التأمل والنظر في هذه القضية، بعيدًا عن معايشة التجربة والاقتراب منها، أقله هذا ما لمسته بنفسي، وحين سطرت هذه الكلمات كانت الصور اليومية التي عايشتها تتلاحق بلا توقف في ذهني، وهي التي أوحت إلي بهذه الكلمات، وبهذه التأملات.

وقد عايشت هذه التجربة حين شاركت في مؤتمر الدوحة السادس لحوار الأديان، الذي ينظمه سنويًا مركز

الدوحة الدولي لحوار الأديان، المنعقد في الفترة مابين 13 ـ 14 مايو 2008م، وكان موضوعه لهذا العام (القيم الدينية بين المسالمة واحترام الحياة)، حضر المؤتمر جمع كبير يقارب المائتي شخص من مختلف دول العالم، ينتمون إلى الديانات التوحيدية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام، بطوائفها ومذاهبها المتعددة.

وفي إحدى مداخلاتي في جلسات العمل أشرت إلى أن ما هو جدير بالتأمل والنظر، ليس تلك الكلمات والأحاديث التي تطرح وتقال في الجلسات فحسب، وإنما في المعايشة اليومية بكل لحظاتها وتفاصيلها، في داخل الجلسات وخارجها، وما قبل هذه الجلسات وما بعدها، والممتدة من أول الصباح إلى ما بعد فترة المساء.

هذه المعايشة وما فيها من تعارف وتساؤل وتذاكر وتفاكر، وتبادل للسلام والتحية، والتعبير عن المشاعر الوجدانية، تستحق التأمل والنظر، لأن فيها يتجلى روح الحوار ونبضات الحوار، وهي التي تبقى في الذاكرة عادة، بينما الكلمات والأوراق يمكن أن تمحى وتنسى ويتغافل عنها.

وما أوصلني إلى هذه الملاحظة التي لقت استحسان الحاضرين على ما يبدو، هو أنني حين شاركت في هذا المؤتمر قصدت بشكل أساسي معايشة التجربة والتأمل فيها من داخلها، وفي تفاصيلها وجزئياتها، ومن خلال أحاديث الحاضرين وسلوكياتهم، وأفكارهم ومشاعرهم، وكيف

ينظرون إلى هذه القضية، وما هي طبيعة وجهات نظرهم نحوها.

وبالتأكيد هي تجربة بديعة وخلاقة، يشعر فيها الإنسان بعلاقته بالعالم، وتواصله مع المجتمع الإنساني المتعدد الأديان والمذاهب، فكل من تلتقيه في هذا المؤتمر تراه يتحدث عن تجربة دينية مختلفة، ويجري الحديث معه بطريقة مختلفة، تخرج بالإنسان عن رتابة الأحاديث المتداولة والمألوفة في الحياة العامة، أو تلك التي تجري بين أصحاب الدين الواحد، أو المذهب الواحد.

ـ 2 ـ
البحث عن الهوية المشتركة

كان في انطباعي أن تجربة حوار الأديان على أهميتها وقيمتها الأخلاقية والإنسانية، أنها ما زالت تفتقد هوية واضحة ومتماسكة، تعرف بوضوح عن ماهية هذه التجربة، بحيث يعرف الجميع على وجه الدقة ماذا يريد الجميع من هذا الحوار، وإمكانية تحقيق ذلك، أو إمكانية التقدم بخطوات بعيدة في هذا السبيل، لا أن تكون مجرد حوارات يفهمها كل طرف بطريقة مختلفة ومغايرة عن الطرف الآخر.

وهي الهوية التي ينبغي أن يشترك الجميع في بلورتها وصياغتها، وبناء لبناتها، وتقعيد أسسها ومرتكزاتها، لكي تكون هوية الجميع من أجل الجميع، ولبناء مستقبل الجميع. الهوية التي يمكن أن يتحدث عنها المسلم والمسيحي واليهودي بدرجة متقاربة من الوضوح، وحينما يتحدث عنها كل طرف يشعر الجميع أنه يتحدث عنهم، ويعبر عن مشاعرهم ومواقفهم الداخلية والخارجية، وبدون مشاركة الجميع المسلم والمسيحي واليهودي لن تتبلور مثل هذه الهوية، وتكون موضع رضا وتوافق هذه الأطراف.

والحاجة إلى بناء مثل هذه الهوية ووضوحها، لأجل أن نحرز تقدمًا حقيقيًا من خلال الحوار، ويكون الحوار

فاعلًا وبناء، لا أن يصبح الحوار مجرد عنوان يفتقد قوة المعنى والمضمون، وحتى لا يتحرك بطريقة دائرية، النقطة التي يبدأ منها هي النقطة التي ينتهي إليها، ويظل يتحرك دائمًا بهذه الوتيرة الجامدة والساكنة، التي ليست لها نتيجة في النهاية إلا شعور الجميع بالإحباط والفشل وعدم الرضا.

كما أن ثمة حاجة إلى بناء مثل هذه الهوية ووضوحها، لكون تجربة الحوار تجمع أكبر الديانات في العالم، وبالتالي فهي تجربة تتجاوز نطاق الدين الواحد، وتصل إلى ديانات ضاربة بعمق في التاريخ، ومتصلة بثقافات وحضارات، ظهرت بينها نزاعات وخلافات نقلها لنا التاريخ في أزمنته القديمة، وهي الديانات التي تمثل اليوم أكبر ثقل بشري ممتد بين مجتمعات وقارات العالم، إلى جانب أن هذه الديانات تحتوي في داخلها على تعدديات مذهبية تعبر عن وجهات نظر متنوعة ومتباينة.

ولكن من جهة أخرى، فإن هذه الديانات الثلاث ترجع إلى أصل واحد، وتدين بإله واحد مهما اختلفت الصورة أو التصور حسب عبارة المستشرق الألماني المعاصر هربرت بوسيه في كتابه الصادر حديثًا بعنوان (علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية)، والذي يعد في نظر البعض واحدًا من الكتب الهامة التي حددت علاقة الديانات التوحيدية بعضها ببعض، وبالذات علاقة الإسلام بالديانتين السابقتين عليه وهما اليهودية والمسيحية، وهذه القضية هي قضية الكتاب المحورية.

ومن هنا ندرك ما يمكن أن يعتري هذه القضية من

صعوبة، وما يعتريها أيضًا من سهولة. مع ذلك فإن بناء مثل هذه الهوية لن يكون ممكنًا ومتاحًا إلا من خلال هذه الحوارات وبقائها وديمومتها، فهي التي سوف تساهم في اكتشاف هذه الهوية، وبلورتها والتعرف إليها، ولن يكون ممكنًا بدونها.

وإذا كنا اليوم نشهد موجة جديدة من هذه الحوارات، فإن هذا يعني أن إمكانية بناء مثل هذه الهوية المشتركة اليوم، هي أفضل من أي وقت مضى، وهذا ما ينبغي الالتفات إليه، والعمل من أجله.

- 3 -
ضرورة تعميق المعرفة

في مؤتمر الدوحة السادس لحوار الأديان حاولت أن أفهم كيف يدير أتباع الديانات الإبراهيمية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلامية الحوار فيما بينهم؟ وكيف يقدم كل طرف نفسه وديانته إلى الطرف الآخر؟ وكيف يتحدث كل طرف عن الطرف الآخر؟ وما مدى المعرفة وسعة المعرفة التي يحملها كل طرف عن الآخر؟.

وقد وجدت أن تجربة الحوار بين الأديان ما زالت في أطوارها الأولى، الأطوار التي ترتد بنا إلى البحث عن أبجديات الحوار، أو ما قبل أبجديات الحوار أيضًا.

وشاهدي على ذلك يتجلى في أمرين هما من الأمور الأولية، ومتصلان بطبيعة تكوين المعرفة بالديانة المسيحية بوجه خاص، وهذان الأمران هما:

الأمر الأول: ويتصل بعدم الالتفات إلى التباين في أصل تسمية هذه الديانات، فالمسلمون يطلقون على هذه الديانات تسمية الديانات السماوية، وهي التسمية التي تتواتر في أحاديثهم وكتاباتهم وحواراتهم، ويعنون بهذه التسمية أن هذه الديانات هي رسالات سماوية أنزلها الله سبحانه إلى

البشر، وأوحى بها إلى أنبياء، ونقلوها إلى الناس، وعرفت بالكتب السماوية وهي التوراة والإنجيل والقرآن الكريم.

في حين أن المسيحيين لا يقولون بهذه التسمية، ولا يقرون بها، ويرون أنها تسمية خاصة بالمسلمين، وتعبر عن رؤيتهم ووجهة نظرهم لهذه الرسالات. وكنت قد سمعت من قبل هذه الملاحظة من الباحث التونسي الدكتور علي بن مبارك، وتأكدت عندي لاحقًا خلال مشاركتي في مؤتمر الدوحة.

والتسمية التي يقول بها المسيحيون ويفضلون إطلاقها على هذه الديانات، هي تسمية الديانات التوحيدية، وأشار إلى هذه الملاحظة في مؤتمر الدوحة رجل الدين المسيحي الدكتور خالد عكاشة عضو لجنة حوار الأديان في الفاتيكان، وجاءت هذه الملاحظة في معرض نقده لتسمية الديانات السماوية.

وهاتان التسميتان من وجهة النظر الإسلامية هما تسميتان صحيحتان، فالديانات السماوية تسمية تشير إلى أن هذه الديانات منزلة من الله تعالى، والديانات التوحيدية تسمية تشير إلى أن هذه الديانات في أصلها وأصالتها تؤمن بعقيدة الإله الواحد.

الأمر الثاني: ويتصل بإطلاق تسمية النصارى على المسيحيين، وهي التسمية المألوفة والمتداولة عند المسلمين وفي الأدبيات الإسلامية، وأتذكر بهذه المناسبة أنني دفعت في وقت سابق دراسة إلى إحدى المجلات بقصد نشرها

على صورة كتيب ملحق بالمجلة، فقام من راجع هذه الدراسة بتبديل جميع كلمات المسيحية والمسيحيين إلى النصارى والنصرانية.

لكنني وجدت أن المسيحيين لا يفضلون إطلاق تسمية النصارى عليهم فحسب، وإنما يخطئون هذه التسمية أيضًا، ولا يقبلونها.

وهذا ما سمعته من الدكتور خالد عكاشة في جلسة حوار معه، حيث أوضح أن النصارى يمثلون فئة قديمة من المسيحيين، ونهجهم الديني ليس قويمًا حسب قوله.

وبالتالي فإن المسيحيين يميزون أنفسهم عن النصارى، وليس صوابًا في نظرهم وصفهم بهذه التسمية.

ويكشف هذان الأمران عن أن مستوى المعرفة بين قطاع كبير من أتباع الديانات مازال ضئيلًا ومحدودًا، في حين أن هذا المجال تحديدًا، وأعني به حوار الأديان هو بحاجة إلى أعلى مستويات المعرفة، وبهذه المعرفة يمكن أن نتقدمَ خطوات بعيدة في هذا الشأن، ولن نتقدم بدونها على الإطلاق.

ـ 4 ـ
تطورات ومبادرات

لقد جرت تطورات مهمة في مجال حوار الأديان، ولعله لأول مرة يظهر هذا المستوى من الاهتمام المتصاعد والمتزامن بهذه القضية، والعابر بين المجتمعات والثقافات، وكأن العالم يشهد صحوة ويقظة في هذا الشأن، الأمر الذي يلفت النظر إلى هذه القضية، التي يمكن أن تعد من ملامح القرن الجديد وسماته.

ومنذ بداية الألفية الثالثة والنشاطات والمبادرات تتواصل وتتصاعد في مجال حوار الأديان، وفي هذا النطاق جاء الإعلان عن مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان سنة 2003م، الذي ينظم مؤتمرات دولية متتابعة سنويًا، بدأت بحوارات بين أتباع الديانتين الإسلامية والمسيحية، وتوسعت في المؤتمر الثالث لتشمل أتباع الديانة اليهودية.

ويتصل بهذا الشأن ما أقدم عليه بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر بإعادة السلطة والاعتبار من جديد إلى الإدارة التي تتولى الإشراف على الحوار مع الإسلام في الفاتيكان، حيث أعلن أن المجلس البابوي للحوار بين الأديان أصبح مجددًا يمثل إدارة مستقلة، وذلك بعد أن خفض البابا درجة المجلس في مارس 2006م، بوضعه

تحت رئاسة مشتركة مع وزارة الثقافة في الفاتيكان، وإعفاء رئيسه كبير الأساقفة البريطاني مايكل فيتز جيرالد من الخدمة.

وهي الخطوة التي انتقدها في وقتها رجال يشاركون في حوارات الأديان من الكاثوليك والمسلمين، واعتبرها الكثيرون أنها كانت تبعث بإشارة سلبية إلى العالم الإسلامي، وفسرها آخرون بأنها تأتي في سياق عناية البابا بتركيز نشاط الحوار بين الأديان على العلاقات مع الكنائس المسيحية الأخرى.

وكان من نتائج هذه الخطوة في نظر بعض المراقبين، تلك المحاضرة التي ألقاها البابا في جامعة ريجنسبرج بألمانيا في سبتمبر 2006م، والتي أثارت احتجاجات غاضبة من المسلمين في مختلف أرجاء العالم، حيث أنها كشفت أن الفاتيكان لم يعد لديه خبراء عالميون في الشؤون الإسلامية يسدون النصح إلى البابا.

ولهذا فقد رحب العديد من المسلمين والمسيحيين بإعادة الدور والاعتبار لإدارة الحوار بين الأديان من جديد في الفاتيكان.

وفي هذا النطاق أيضًا، جاء تأسيس منتدى الديانات الإبراهيمية في مدينة زيورخ السويسرية في يوليو 2007م، الذي يسعى كما يقول ستيفان شرينر رئيس المنتدى، لأن يمثل جسرًا للحوار والتفاهم بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، وداعيًا إلى ضرورة أن نهزم حسب قوله دعاة الحروب والصراع بين الحضارات.

وتناغمًا مع هذا المنحى، وفي خطوة لافتة أعلن رئيس الوزراء البريطاني السابق توني بلير في أبريل 2008م، تأسيس مؤسسة دينية تعنى بمعالجة الفقر، ومواجهة الصراعات، وحوار الأديان عبر العالم، معتبرًا أن الإيمان الديني سيكون بالأهمية نفسها في القرن الحادي والعشرين، التي كانت عليه الأيديولوجيا السياسية في القرن العشرين، ومؤكدًا أن الإيمان يمكن أن يكون قوة متحضرة لتفاهم الشعوب التي تنتمي إلى ديانات وثقافات مختلفة، ليفهم الجميع بعضهم بعضًا، ويعيشوا في سلام واحترام متبادلين.

وفي يوليو 2008م أعلنت في بيروت وثيقة (الاحترام المتبادل بين أهل الأديان) أعدها الفريق العربي للحوار الإسلامي ـ المسيحي الذي تأسس في مايو 1995م، وتقر هذه الوثيقة ضوابط الاعتراف بالاختلافات الدينية، وأنه لا يجوز الإساءة إلى أحد بسبب دينه، أو ممارسة أي نوع من التمييز ضد متدين يحرمه حقه في المساواة الكاملة.

وفي هذا النطاق كذلك، جاء انعقاد المؤتمر العالمي للحوار في مدريد سنة 2008م، الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي، برعاية من الملك عبد الله بن عبد العزيز، وملك أسبانيا خوان كارلوس، الذي كان يهدف إلى دعم وترسيخ نهج الحوار والتعارف والتعايش بين الديانات والثقافات والحضارات.

هذه بعض التطورات والمبادرات التي تكشف عن ازدياد الاهتمام العالمي بقضية حوار الأديان.

ـ 5 ـ
حضور الدين في العالم المعاصر

إن النشاط المتصاعد الذي نلاحظه اليوم في مجال حوار الأديان، خصوصًا بعد دخول الألفية الثالثة، والعابر بين المجتمعات والثقافات، والممتد بين مختلف الديانات الرئيسية في العالم، التوحيدية وغير التوحيدية، هذا النشاط بهذه الوتيرة المتصاعدة كشف عن حقيقة هامة جدًا، تمثلت في الحضور الذي بات يسجله الدين في العالم المعاصر، وحيوية هذا الحضور وديناميته، وتأثيراته الواسعة في المجتمعات الراهنة.

ولا شك أن هناك من سوف يندهش حين ملاحظة هذه المسألة وتجلياتها، التي جاءت بخلاف توقعات وحسابات هؤلاء، وكأن الحتميات والقوانين في نظرهم انقلبت على نفسها، وغيرت مساراتها واتجاهاتها بطريقة ارتدت بها إلى الوراء، وذلك بعد أن وجدوا أن هذا الحضور للدين وديناميته، يأتي في عصر يدخل فيه العالم مرحلة ما بعد الحداثة، وأعلى مستويات الحداثة، ويشهد موجة من العولمة لم تحدث بهذه الصورة من قبل في التاريخ الإنساني، وفي ظل تطورات مذهلة في شبكات الإعلام وتكنولوجيا الاتصال التي جعلت الناس في كل

مكان ينظرون إلى العالم، وكأنه على صورة قرية كونية تتصاغر بمرور الوقت.

وكانت الدهشة أكبر عند هؤلاء، حين وجدوا أن الدين أخذ يستعيد ديناميته حتى في مجتمعات الحداثة وما بعد الحداثة نفسها، وهم الذين بنوا توقعاتهم وتنبؤاتهم، وتوارثوها منذ عصر التنوير في أوروبا القرن الثامن عشر، بوضع خاتمة للدين، وتقليص مكانته، وحتى الحلم بنهايته في أوروبا، ومن ثم في العالم.

وقد استند الموقف عند هؤلاء، تارة إلى خلفية قانون الأحوال الثلاث التي شرحها عالم الاجتماع الفرنسي أوجست كونت، وعرف بها في علم الاجتماع والفلسفة في أوروبا، حين اعتبر أن المجتمع الإنساني سوف يمر بثلاثة عصور متتالية، هي العصر اللاهوتي، والعصر الماورائي، وسوف ينتهي به المطاف إلى العصر الوضعي، حيث يكون العلم والعقل والمنطق جميعًا الأساس في بناء المجتمع، وإدارة الحياة، وفي الحكم على الظواهر والأشياء.

وتارة بخلفية الموقف المتطرف الذي تبناه الفيلسوف الألماني نيتشه، بالدعوة إلى موت الآلهة، وإحلال الإنسان الأعلى مكانها، لكي يتخلص الإنسان والمجتمع في نظره، من كل أشكال العبودية.

وتارة ثالثة، بخلفية الموقف الذي دعا إليه معظم فلاسفة ومفكري عصر الأنوار، بتقديس وتعظيم العقل وإحلاله مكان الدين، ولهذا فإن خطاب الأنوار مثل عصرًا

كان قاسيًا جدًا على الدين في أوروبا، وكاد يطيحه، ويدشن عهد نهايته.

مع كل ذلك، فمنذ عصر الأنوار في القرن الثامن عشر، إلى عصر الحداثة في القرن العشرين، إلى عصر العولمة وما بعد الحداثة في القرن الحادي والعشرين، بعد كل هذه العصور التي أغفلت وتجاهلت وتنكرت للدين، ولم تبد أي حماسة له، وإذا به يسجل حضورًا وديناميةً على مستوى العالم، ويتجلى في إحدى صوره بهذا النشاط والاهتمام المتزايد الذي نراه اليوم في مجال حوار الأديان.

وهذا ما برهن على أن الحداثة ليس باستطاعتها، بل ليس بمقدورها اقتلاع الدين أو محاصرته وعزله عن الحياة والمجتمع، وبالتالي فلن يكون بمقدور العولمة وما بعد الحداثة تحقيق ما عجزت عنه الحداثة، وعصر الأنوار قبلها.

- 6 -
حوار الأديان وحوار الحضارات

هناك فرضية يمكن التسليم بصحتها، وإمكانية البرهنة عليها، وتحصيل القبول بها، وتتحدد هذه الفرضية في أن التقدم الحقيقي في مجال حوار الحضارات، لا يمكن أن يتحقق بدون التقدم في مجال حوار الأديان، وبالتالي لابد من التقدم في حوار الأديان، كشرط حيوي للتقدم في حوار الحضارات والثقافات؟

وتستند هذه الفرضية إلى أساس أن الحضارات وحتى الثقافات، إنما هي ترتكز على خلفيات دينية، تساهم في تشكيل بنيتهما وهويتهما وطبيعتهما، وتظل هذه العلاقة بين الحضارات والثقافات وخلفياتهما الدينية راسخة وثابتة، مع ما يظهر في هذه العلاقة من تفاوت وتباين قوة وضعفًا بين هذه الحضارات والثقافات.

بمعنى أن هذه الخلفيات الدينية، ليست على درجة واحدة في جميع الحضارات، وليست على وتيرة واحدة أيضًا حتى في نطاق الحضارة الواحدة، فهناك حضارات تمثل فيها الخلفيات الدينية مكانة واسعة وكبيرة كالحضارة الإسلامية، وهناك حضارات لا تمثل فيها الخلفيات الدينية إلا مكانة ضيقة ومحدودة كالحضارة الأوروبية المعاصرة.

وما يقرب هذه الفرضية، أن الحضارات التي بقيت في التاريخ، ارتبطت بديانات هي الأخرى بقيت في التاريخ، وعرفت هذه الحضارات بدياناتها، ليس هذا فحسب، وإنما بهذه الديانات تمايزت هذه الحضارات عن غيرها، وانفردت بطقوس وتقاليد شديدة الخصوصية، تتجلى في طريقة إحياء الشعائر والعبادات الدينية، وصولًا إلى تقاليد الزواج، وانتهاء بمراسيم الوفاة.

وفي هذا الشأن يرى صمويل هنتنغتون في كتابه المثير للجدل (صدام الحضارات)، أن من بين أكثر كل المقومات الموضوعية التي تحدد الحضارة أهمية، يأتي عادة الدين، كما اعتبر أن الحضارات الكبرى في التاريخ البشري، كانت قد ارتبطت في تحديدها بالديانات العالمية العظيمة.

ولاحظ هنتنغتون أن من بين الأديان الخمسة العالمية التي حددها عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، أربعة منها مرتبطة بحضارات عظيمة، هي المسيحية والإسلام والهندوسية والكونفوشيوسية، وتوقف هنتنغتون عند البوذية التي أشار إليها فيبر، واعتبر رغم كونها ديانة رئيسية إلا أنها لم تكن أساسًا لحضارة كبرى، والسبب في نظره يرجع إلى انقراضها الفعلي في الهند، وتكيفها واندماجها في الثقافات الموجودة في الصين واليابان.

وقبل هنتنغتون بما يقارب خمسة عقود، كشف الناقد البريطاني المعروف توماس إليوت عن العلاقة الراسخة والوثيقة بين الثقافة والدين في كتابه (ملاحظات نحو تعريف

الثقافة) الصادر سنة 1948م، وحسب نظريته لم تظهر ثقافة ولا نمت إلا بجانب دين، ومن الخطأ في نظره تصور أن الثقافة يمكن حفظها وبسطها وتنميتها بغير دين، وأن رقي الثقافة سبب لتقدم الدين.

لا يراد من هذه الفرضية، خلق تعقيدات إضافية في طريق حوار الحضارات أو حوار الثقافات، وتصعيب هذه القضية بربطها بالدين وحوار الأديان، والقصد من ذلك هو الكشف عن أحد المداخل الحيوية في سبيل إحراز تقدم فاعل وحقيقي في حوار الحضارات والثقافات، وليس مجرد شكليات لا تقدم ولا تؤخر.

من هنا كان من الضروري الالتفات إلى هذه الفرضية، وتكوين المعرفة بها، وتأكيد العناية والاهتمام بقضية حوار الأديان.

الفصل السادس

التجربة الماليزية.. انطباعات وتأملات

- 1 -
انطباع عام

كنت قد سمعت كثيرًا عن ماليزيا، عن طبيعتها ونهضتها ومجتمعها، وسمع كثيرون غيري كذلك، وبقيت متشوقًا إلى زيارتها، وانتظرت مثل هذه الفرصة بشوق متراكم، إلى أن وصلتني دعوة كريمة من الصديق الدكتور قطب مصطفى سانو، للمشاركة في مؤتمر عالمي يبحث عن وضع المرأة المسلمة في المجتمعات المعاصرة، وترقبت موعد هذا المؤتمر باهتمام، وانتظرت اللحظة التي تطأ فيها قدماي تلك الأرض، للتعرف إلى آسيا الحقيقية كما تعرف ماليزيا نفسها بثقة إلى العالم، والاطلاع على نهضة وتقدم هذا البلد المسلم الذي طالما سمعنا وكتبنا عن تجربته، وكتب غيرنا كذلك، رغبة وشوقًا إلى بلد مسلم يعيش تجربة التقدم، في وقت تشتعل في العالم الإسلامي الحروب والنزاعات والصراعات، وتنتقل الحرائق من بلد إلى آخر.

وتتكشف ملامح النهضة والتطور في هذا البلد، منذ اللحظة الأولى من الوصول إلى المطار، حيث يأخذك قطار فوق الأرض عابرًا بك من صالة الوصول الجميلة والهادئة، إلى صالة ختم الجوازات وتسلم الأمتعة، قاطعًا مسافة غير

قصيرة، ولأول مرة أصادف قطارًا ينقل المسافرين من مكان إلى مكان آخر داخل محيط المطار.

ولأنني كنت بصدد استجماع واستحضار انطباعاتي عن هذا البلد، فأولى هذه الانطباعات بدأت عندي ونحن نقطع المسافة من المطار إلى مقر السكن في المدينة، وتذكرت حينها الانطباع الذي كان عندي من قبل، حين وصلت إلى ولاية فرجينيا الأمريكية سنة2000م، ونقلت هذا الانطباع إلى آخرين في وقته، بتشبيه هذه الولاية وكأنها خططت وسط بستان كبير، والتجوال بالسيارة في هذه الولاية كأنه تجوال في وسط بستان حيث المساحات الخضراء الواسعة والمنبسطة في كل الجهات، إلى جانب الأشجار العالية والكثيرة التي تظهر الولاية بمظهر البستان الجميل والبديع. لكن الذي اختلف في الانطباع هنا أن فرجينيا إذا كانت ولاية خططت في وسط بستان، فإن ماليزيا دولة خططت في وسط غابة وليس مجرد بستان، لكنها غابة جميلة ومنظمة.

وما رسخ مثل هذا الانطباع، المسافة الطويلة نسبيًا التي يقطعها المسافر من المطار إلى وسط المدينة العاصمة كوالالمبور، التي تصل إلى ساعة من الوقت تقريبًا، مع قيادة هادئة تعكس طبع الهدوء المتجلي بوضوح كبير في شخصية الإنسان الماليزي، مع ما تتصف به الشوارع الخارجية من مساحة عريضة تتسع لأكثر من أربع سيارات، وفي طول هذه المسافة لا يكاد المشهد يتغير، ولا يمل في الوقت نفسه، حيث الأشجار العالية والغابات الكثيفة

والمرتفعات الجبلية الخضراء، وحتى مع الاقتراب من المدينة والدخول إليها والوصول إلى وسطها، يبقى الشعور يصاحب الإنسان في أنه وسط غابة كبيرة.

وحين رجعت إلى الموسوعة العربية العالمية، لمعرفة ما كتب عن ماليزيا وجدت ما يؤكد هذا الانطباع، ويضيف إليه، في إشارات مهمة، حيث ترجع نشأة هذه الغابات إلى مئة وثلاثين مليون سنة، وتعد من أغنى وأقدم الغابات في العالم، وفيها من أكثر الأنظمة البيئية تعقيدًا وتنويعًا في العالم كذلك، وتحوي على أكثر من ستة آلاف نوع من الأشجار، وأكثر من تسعة آلاف نوع من النباتات الأخرى، هذا عن الغابات المدارية المطيرة، أما الغابات الاستوائية المطيرة فتحتوي على ثمانية آلاف نوع من النباتات المزهرة، ومئتي نوع من الثدييات، ويعد بعض هذه الأنواع نوعًا فريدًا ونادرًا، وهي تنتج أكثر الأزهار المعروفة على مستوى العالم.

ومثل هذه الأشجار والأزهار بأصنافها الكثيرة موجودة في أنحاء كثيرة داخل المدينة، في الطرق والشوارع والساحات وفي واجهة الفنادق والمؤسسات والمنازل، ومرتبة بشكل أنيق كما لو أنها مصممة داخل منزل، أو في محل خاص بتصميم الزهور، الأمر الذي يضيف جمالًا على جمال المدينة.

وما يؤكد أهمية وقيمة مثل هذا الانطباع كوننا ننتمي إلى بيئة تمثل الصحراء فيها المساحة الكبيرة من الأرض،

على نحو يجعل المسافر من مدينة إلى أخرى يفقد متعة النظر وهو يقطع المسافات الطويلة، وكأنه يعبر الصحراء عبر طرق معرضة للرياح المحملة بالرمال والأتربة، فكم هو الفرق نفسيًا وذهنيًا حين تتخيل السير في وسط غابة، أو السير في وسط صحراء!

ـ 2 ـ
صورتان مختلفتان

حينما وصلت إلى ماليزيا وجدت أن هذا البلد بما فيه من نهضة وتقدم يمثل مكسبًا حضاريًا مهمًا للعالم الإسلامي، ومن حظ العالم الإسلامي أن تكون ماليزيا جزءًا من محيطه وكيانه وجغرافيته الإسلامية، ومن حق المسلمين أن يفخروا بهذا البلد الذي وصل إلى ما وصل إليه ويعتزوا به. وهو البلد الذي ظل متمسكًا بصلته وروابطه مع المحيط الإسلامي بدون نكوص أو ارتداد، بل بقي ساعيًا وحريصًا على نهضة ووحدة الأمة الإسلامية التي يجد فيها مجده ومستقبله.

ويكفي دلالة على ذلك الخطوة التي أقدمت عليها الجامعة الإسلامية العالمية هناك، بتأسيس المعهد العالمي لوحدة الأمة الإسلامية سنة 2001م، بموافقة وتأييد رئيس الحكومة الماليزية آنذاك الدكتور مهاتير محمد، وهو المعهد الأكاديمي الرابع في إطار الجامعة، ويطمح هذا المعهد كما جاء في الدليل التعريفي له، أن يصبح مركزًا فكريًا عالميًا محترمًا يتبنى جميع البرامج والأنشطة الفكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية الهادفة إلى تعميق فكرة وحدة الأمة الإسلامية وتضامن شعوبها.

فما أنجزته ماليزيا من نهضة وتقدم لم يدفعها نحو الابتعاد عن المحيط الإسلامي، أو يمتص منها مثل هذا الشعور بالانتماء والارتباط بهذا المحيط، بقدر ما قربها إلى هذا المحيط، وعزز عندها الشعور بالحاجة إلى هذا الانتماء والارتباط بالمحيط الإسلامي.

ومع أن ماليزيا هي جزء أصيل وقديم من العالم الإسلامي، إلا أنها تختلف عنه، ولا تكاد تتشابه معه، ومنشأ هذه المفارقة ناتج من النهضة التي شهدتها ماليزيا، وجعلت منها بلدًا مختلفًا ومتميزًا عن دول كثيرة في العالم الإسلامي. فالصورة اللامعة التي تقدمها ماليزيا عن نفسها تختلف كليًا عن الصورة التي يقدمها العالم الإسلامي عن نفسه، فبين صورة النهضة في ماليزيا، يظهر العالم الإسلامي بمظهر المحيط الذي تطحنه النزاعات والصراعات والحروب، وتنبعث فيه الأفكار والأيديولوجيات التي ترتد به إلى الوراء، وتسحبه إلى الخلف إلى ما قبل المدنية والحضارة، وتغلق عليه منافذ المستقبل، وتدفعه نحو التأكل الداخلي.

لهذا فإن الصورة التي يقدمها العالم الإسلامي عن نفسه اليوم، هي صورة مخيفة لنا وللعالم على السواء، فقد تحول محور طنجة ـ جاكرتا الذي دعا إليه المفكر الجزائري مالك بن نبي في خمسينات القرن الماضي، من محور يتطلع إلى نهضة وتقدم العالم الإسلامي، إلى محور نزاعات وصراعات، وانفجارات متنقلة تبعث على الخوف والرعب في نفوس الناس، ولم تسلم منها مناسبات الفرح

والابتهاج كاحتفالات الناس بالزواج، ولا مناسبات الحزن والعزاء.

ومن المؤسف حقًا أن يظهر العالم الإسلامي وكأنه عالم يحترق وتشتعل فيه النيران، وترتفع فيه أعمدة الدخان، وتغطيه سحابة سوداء، في عصر يشهد العالم أعظم ثورات التقدم بشكل لم يحصل في تاريخه القديم والحديث، وتتنافس فيه الأمم وتتسابق نحو المزيد من التقدم والصعود في مختلف ميادين ومجالات العلم والحياة، وفي عصر لا يتوقف الحديث عما يسمى بثورة المعلومات وانفجار المعرفة، وهي الثورات التي جعلت كل شيء يتغير ويتجدد في هذا العالم، الذي أصبح يمر بمرحلة مفارقة في تاريخه، بحيث بات يتفوق فيها على جميع المراحل التي مرت عليه من قبل.

وأما نحن في العالم الإسلامي، فإننا نظهر إلى العالم وكأننا ننتمي إلى العصور الوسطى، أو أننا نعيش خارج الزمن، وعلى هامش التاريخ، وبعيدًا عن إيقاع العصر، حتى أن الأمم الأخرى باتت تجد عزاءها فينا، وهذا ما حاول أن يسلي به بول كيندي شعوب أمريكا اللاتينية التي توقع لها في كتابه: (الاستعداد للقرن الحادي والعشرين)، أن تصبح هامشية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، مع إمكانية حدوث انهيار اقتصادي واجتماعي واسع فيها، تنشأ عنه تحديات مروعة حسب وصفه، وإذا كان هذا الرأي يخيب في نظر بول كيندي أمل القراء في البرازيل وبيرو، إلا أن لهم عزاء في العالم الإسلامي، وبهذه الكلمات

المخيبة للآمال فتح كيندي حديثه عن العالم الإسلامي، الذي يعاني في نظره الضغوطات السكانية، ونقص المصادر والطاقة التعليمية والتكنولوجية، وتفجر الصراعات الإقليمية، وبعيدًا عن الاستعداد للقرن الحادي والعشرين، فإن معظم العالمين العربي والإسلامي يجد صعوبة في تقدير كيندي في التعامل حتى مع القرن التاسع عشر.

لهذا فنحن بحاجة إلى ماليزيا بحثًا عن بقعة الضوء، وبصيص الأمل، ولاستعادة الثقة، في إمكانية نهضة العالم الإسلامي وتقدمه.

ـ 3 ـ
روح الشرق

السؤال الذي حملته معي إلى ماليزيا هو: من الذي صنع نهضة ماليزيا وتقدمها؟ هل هم الصينيون الوافدون على ماليزيا؟ أم المالاويون المسلمون السكان الأصليون لماليزيا؟

وقد تعمدت أن أفتح النقاش حول هذا السؤال، في معظم اللقاءات والحوارات التي جمعتني مع باحثين وأكاديميين ماليزيين وعرب أساتذة في الجامعة الإسلامية العالمية هناك.

والكلام الذي كنت أسمعه قبل وصولي إلى ماليزيا من بعض الأصدقاء العرب الذين أقاموا فترة من الزمن هناك، أن الصينيين هم الذين نهضوا بماليزيا، ولم يكن هذا الرأي في وقته مقنعًا بالنسبة إلي، ولا يمثل جوابًا شافيًا عن السؤال السالف الذكر.

وأكثر ما يصطدم بهذا الرأي ويبعث على الشك فيه، ما كان يتحدث به وبفخر واعتزاز الدكتور مهاتير محمد رئيس الوزراء السابق في خطابات وأحاديث وحوارات جمع قسم منها في كتاب صدر باللغة العربية عام 2002م عنوانه:

(الإسلام والأمة الإسلامية... خطب وكلمات مختارة)، حيث كان يؤكد على ربط نهضة وتقدم ماليزيا بروح وجوهر الإسلام، وبالتالي بدور المسلمين هناك في هذه النهضة، وحسب قوله: (نحن في ماليزيا نرى أنفسنا مثل أسلافنا المسلمين في العصر الذهبي لأننا نلتزم رؤية ومدخلًا أصيلًا ينسجم مع روح وجوهر الإسلام، وكان لا بد لنا أن نبدأ أولًا بتحقيق النمو، وفيما قمنا بتطبيق مختلف الحزم المعيارية اللازمة لحفز نمو الناتج المحلي الإجمالي، اتخذنا المعالجات التي تكفل المساواة، الأمر الذي لم يحظ باستحسان في الغرب الذي يؤمن بأن البقاء والثراء هما فقط للأقوياء على حساب الفقراء).

ومع وصولي إلى ماليزيا كان لابد من البحث عن الجواب داخل البلد وبطريقة حسية وإجرائية، ومعظم الإجابات التي سمعتها من ماليزيين وغير ماليزيين تكاد تتفق وتتشابه فيما بينها، وإطارها العام أن الصينيين ما كان بإمكانهم المشاركة في نهضة ماليزيا، من دون وجود قيادة سياسية تلعب دور الدافع والمحرك لعجلة التقدم، وتتبنى سياسات واستراتيجيات تشجع وتحفز على النهضة والتقدم، وهذا ما قام به الملاويون المسلمون، ويستبطن هذا الرأي إقرارًا واعترافًا بدور الصينيين الأساسي والحيوي في نهضة ماليزيا.

وأما الرأي الذي تكون عندي فهو لا يخرج عن إطار الطرح المذكور، وإنما يتوافق ويتناغم معه، لكنه أكثر تنظيمًا وتوازنًا منه على ما يبدو، ويتحدد هذا الرأي في أن

الصينيين لعبوا دورًا أساسيًا في النهضة الاقتصادية لماليزيا، في حين كان للملاويين الدور الأساسي في النهضة السياسية، وما كان بالإمكان حدوث نهضة اقتصادية ابتداء بدون نهضة سياسية، ومن جهة أخرى أن النهضة الاقتصادية لاحقًا دعمت ورسخت النهضة السياسية.

وما يؤكد هذا الزعم ويعطيه قدرًا من المعقولية، هو أن الصينيين هم الذين تسلموا إدارة الاقتصاد من البريطانيين بعد استقلال ماليزيا سنة 1957م، في حين تسلم المالاويون إدارة السلطة السياسية، وتسلم الهنود الفلاحة والزراعة، وهذا ما يفسر تحكم الصينيين اليوم في اقتصاد ماليزيا.

هذا ما سمعته ووجدته في الإجابة عن سؤال من الذي صنع نهضة ماليزيا؟ وما ينقص هذه الإجابة، ويجعلها أقل جزمًا واكتمالًا، هو غياب وجهة النظر الصينية في هذا الشأن التي لم أستطع الوصول إليها، والتي بدونها لا تكتمل الرؤية وتتماسك.

وأما السؤال الذي لم أسمعه من أحد، ولعله كان غائبًا عن النقاشات التي جرت وتجري حول نهضة ماليزيا، هو: هل كان بإمكان المالاويين المسلمين أن ينهضوا ببلدهم من دون وجود الصينيين معهم؟ وهل كان بإمكان أن تصل ماليزيا إلى ما وصلت إليه من دون الصينيين؟ أعتقد أن هذا سؤال جوهري وحيوي جدًا في البحث عن نهضة ماليزيا وتقدمها.

وبصورة عامة يمكن القول إن ماليزيا استلهمت روح

الشرق في نهضتها، فالصينيون الماليزيون كأنهم نقلوا روح الصين إلى ماليزيا، والهنود الماليزيون كأنهم نقلوا روح الهند إلى ماليزيا، وكما هو معروف أن الصينيين والهنود إلى جانب اليابانيين هم الذين يمثلون روح النهضة في الشرق.

ولو كانت ماليزيا في الشرق الأوسط لما نهضت ووصلت إلى ما وصلت إليه، لأن روح الشرق، وأقصد به روح الصين واليابان والهند وصلت إلى ماليزيا بحكم الجغرافيا، ولم تصل إلى الشرق الأوسط والعالم العربي، وهو المجال الذي تطحنه النزاعات والصراعات السياسية والأيديولوجية.

- 4 -
تعايش الثقافات

تقدم ماليزيا نموذجًا فعليًا وليس ممكنًا فحسب، لتعايش المجموعات البشرية التي تنتمي إلى ديانات وثقافات وقوميات متعددة ومتنوعة، ويتصف هذا النموذج داخل المجتمع الماليزي بالفاعلية والحيوية، بمعنى أنه نموذج متحرك وليس ساكنًا، وبالتالي فهو معرض دائمًا للتغير والتقلب والاحتكاك، بالشكل الذي يجعله في دائرة التجريب والاختبار، لمعرفة مدى ثباته وتماسكه، وهو ما تبين فعليًا، وكشف عنه الواقع على الأرض.

وهذا النموذج التعددي هو من أكثر ما يقدم ماليزيا إلى العالم ناظرًا ومنظورًا إليها، فهي من جهة تقدم نفسها إلى العالم بهذا النموذج المتفوق، وينظر إليها العالم بإعجاب على أساس هذا النموذج من جهة أخرى، وما ضاعف من قيمة هذا النموذج وجعله لافتًا لأنظار العالم، كون ماليزيا دولة إسلامية تفتخر بإسلاميتها ولا تتنكر لها.

ومن هذه الجهة، تبرهن ماليزيا على إمكانية تقبل وتسامح وتعايش المجتمع المسلم مع المجموعات البشرية الأخرى غير الإسلامية، وبدون تهميش أو تمييز أو اضطهاد، وإنما على أساس المساواة والشراكة والاندماج.

وحين يريد الدكتور مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا السابق، أن يلفت النظر إلى هذا الأمر مميزًا ماليزيا به عن غيرها، يقول (هناك مجتمعات عديدة تنظر إلى التعددية الدينية على أنها نقمة وليست نعمة، لأنها كثيرًا ما تجلب العنف والصراعات المسلحة، لكنها في ماليزيا تشكل عنصرًا هامًا لجمع وتقريب المواطنين من مختلف الديانات بعضهم إلى بعض، مما يساهم في تعزيز الوحدة الوطنية).

ويربط الدكتور مهاتير بين الإسلام والوحدة الوطنية في ماليزيا، في إشارة مهمة بقوله (إن ما حققته ماليزيا من وحدة وطنية ما هو إلا ثمرة لممارسة الشعائر الدينية وخصوصًا تلك المرتبطة بالإسلام في وضح النهار وبعيدًا عن العزلة).

وهنا تكمن في نظر الدكتور مهاتير ضرورة فهم الدين الرسمي للدولة، فإذا كان الإسلام الذي هو الدين الرسمي لماليزيا بدا غامضًا حسب قوله، وتتم ممارسة شعائره في الخفاء، فإن ذلك يشكل سببًا كافيًا للاعتقاد بأن السلطات الرسمية سوف تسعى لفرضه على أتباع الديانات الأخرى، وستضع العقبات أمام ممارسة العقائد الأخرى، ولرفع هذا الوهم اقتضت الضرورة في رأي الدكتور مهاتير أن يمارس المسلمون في ماليزيا شعائر دينهم أمام الناس، وفي وضح النهار من دون تخف أو عزلة.

وقد ساهم الموقع الجغرافي لماليزيا في تكوين المجتمع الماليزي بهذه الطبيعة المتعددة ثقافيًا ودينيًا

وقوميًا، وحسب الموسوعة العربية العالمية فإن الموقع الجغرافي لماليزيا يعد من أكثر العوامل أهمية في تاريخها، حيث تنتشر شبه جزيرة ماليزيا فوق المحيط الهندي جنوبي بحر الصين، وكانت قديمًا نقطة التقاء للتجار الهنود والصينيين الذين اعتمدوا على الرياح الموسمية في رحلاتهم التجارية، وجذبت مراكز ماليزيا الغنية المغامرين والتجار من بلاد عديدة، وامتزجت فيها الشعوب والحضارات، فأثر الهنود في الفن والثقافة الماليزية، وأدخل العرب الإسلام إلى المنطقة وغدا الدين الرسمي لها، وقدم الهولنديون والألمان الأفكار والأساليب الاقتصادية، ومهد البريطانيون دعائم التطور السياسي.

من هنا فإن تعايش الثقافات والديانات في ماليزيا هو من أكثر ما يدحض مقولة صدام الحضارات عند هنتنغتون، ويبعث على الشك فيها، هذا بالنظر إلى هذه المقولة بوصفها مقولة تفسيرية ناظرة إلى الواقع الخارجي بما هو عليه بدون التدخل فيه أيديولوجيًا، وأما عند النظر إلى هذه المقولة بوصفها مقولة تحريضية فإن النموذج الماليزي هو من أكثر ما يريد هنتنغتون أن يحذر منه الغرب، لأنه يقدم صورة ممكنة لتحالف الإسلام مع القوى الصاعدة في آسيا وعلى مستوى العالم، وتحديدًا مع الصين والهند، لكن الصحيح أن ماليزيا هي نموذج لتعايش الثقافات وليس صدامها.

ـ 5 ـ

برنامج الإسلام الحضاري

مع مطلع القرن الحادي والعشرين أعلن في ماليزيا برنامج فريد من نوعه، هو برنامج الإسلام الحضاري، الذي عرف به رئيس الوزراء الماليزي السابق عبد الله أحمد بدوي، وأراد منه أن يكون خطابًا موجهًا إلى الماليزيين مسلمين وغير مسلمين، وخطابًا موجهًا كذلك من ماليزيا إلى العالم الإسلامي وهو يستقبل الألفية الثالثة.

ومنذ إعلان هذا البرنامج والحديث عن الإسلام الحضاري يتسع في ماليزيا ويتنامى ويتراكم، وتتجدد الإشارة إليه في مناسبات عديدة ودينية وغير دينية، ونقطة البدء كانت في صيف عام 2004م، حين دشن السيد عبد الله بدوي كتيبًا حمل عنوان (دليل الإسلام الحضاري)، تم توزيعه مجانًا على شريحة كبيرة من الناس في جميع أنحاء ماليزيا، في خطوة تهدف إلى تعميم هذا المفهوم وتطوير وعي الجمهور به.

وتضمن هذا الدليل شرحًا وتوضيحًا لمفهوم الإسلام الحضاري ومبادئه وخصائصه، كما احتوى على آراء عدد من علماء ومفكري العالم الإسلامي للتأكيد على صلاحيته، ومدى الحاجة إليه، ولترويجه وتقبله بين الناس.

ولارتباط هذا البرنامج برئيس الوزراء عبد الله بدوي فقد ظل يذكر به، ويلفت النظر إليه في مناسبات عديدة كاشفًا عن أبعاده ومقاصده، ومبددًا ما يحيط به من هواجس وغموض. ففي خطاب ألقاه في افتتاح الاجتماع العمومي لحزب الملايو القومي (أمنو) في سبتمبر 2004م، اعتبر السيد بدوي أن برنامج الإسلام الحضاري يهدف إلى تحقيق جملة مبادئ تشمل: تقوية الصلة بالله، وإرادة حكيمة تشرف على موارد البلاد، وشعب مستقل يتمتع بالحرية، والتمكين لقيام مجتمع المعرفة، وتحقيق تنمية اقتصادية متوازنة وشاملة، وتحسين مستوى المعيشة، كما يشمل البرنامج في نظره: حماية حقوق الأقليات والمرأة، وتحقيق مزاوجة ثقافية وأخلاقية ناجحة، ووضع ضمانات لحماية البيئة، وتكوين خطوط دفاع قوية عن البلاد.

وفي فبراير 2005م، وبمناسبة العام الهجري الجديد صرح بدوي لوكالة الأنباء الوطنية الماليزية ـ برناما ـ مطمئنًا الشعب الماليزي المتعدد الأعراق والديانات، أن برنامج الإسلام الحضاري الذي يطرحه لا يتناقض مع تعدد الأعراق والديانات في ماليزيا، وهو يستهدف قيادة ماليزيا والماليزيين جميعًا إلى التقدم، وأنه ينظر إلى الإسلام الحضاري بوصفه برنامجًا، وليس تيارًا جديدًا، أو دينًا جديدًا، أو أيديولوجيا جديدة، وإنما هو نهج جديد لقيادة المسلمين نحو التقدم والازدهار، ولا يقتصر هذا البرنامج على تحسين نظرة العالم إلى الإسلام، بل يهدف إلى تحقيق التفوق والمجد والتميز.

وعندما سئل عم إذا كان هذا البرنامج يمثل تهديدًا لحقوق أية جماعة عرقية أو دينية في ماليزيا، أجاب بدوي بالنفي، وتمم كلامه قائلًا: لقد تحدثت إلى جماعات غير مسلمة، وأوضحت لكل منها على حدة المبادئ التي نتحدث عنها، وسألتهم إن كانت هذه المبادئ تتعارض مع عقيدتهم سواء أكانت هذه المبادئ هي الهندوسية أم البوذية أم غيرها، وأوضحت لأصحاب كل عقيدة هذه المبادئ، وأن أيًا منها لا يتعارض مع عقيدتهم.

وفي وقت لاحق، وتواصلًا مع هذا المنحى أعلن السيد بدوي أن بلاده ستطلق قريبًا أول قناة فضائية إسلامية لتوعية الماليزيين والشعوب الإسلامية بمشروع الإسلام الحضاري، وأوضح أن هذه القناة ستكون باللغة العربية، وتسمى (الفلاح)، معتبرًا أن الإسلام الحضاري يدفع الأمة نحو الإصلاح الحقيقي.

وجاء إعلان هذه القناة خلال افتتاح فعاليات الملتقى الدولي الثالث لخريجي الأزهر المنعقد في العاصمة الماليزية كوالالمبور منتصف فبراير الماضي 2008م.

وفي هذا الملتقى قدم الدكتور عبد الشكور حاج حسين مدير جامعة العلوم الإسلامية الماليزية، ورئيس المجلس الوطني للإفتاء الماليزي ورقة بحثية عنوانها (معالم منهج الإسلام الحضاري.. ماليزيا نموذجًا)، شرح فيها مشروع الإسلام الحضاري الذي تتبناه ماليزيا كبرنامج عمل من أجل إيجاد حياة راشدة وصبغها بصبغة الإسلام في

مجتمع متعدد الأعراق والثقافات، ويمثل هذا المشروع في نظر الدكتور عبد الشكور برنامجًا شاملًا لتجديد الإسلام في ماليزيا.

وقد ورد في البيان الختامي لهذا الملتقى، أن أهم ما ينبغي العناية به هو الفهم الحضاري للإسلام، وذلك لأن الإسلام دين الحضارة والتطور، مما يحتم على الأمة الإسلامية العمل الجدي على بلورة منهج للتفكير يمثل موضوع الحضارة فيه الغاية المستهدفة، وتكون نهضة المسلمين لحمته وسداه.

لقد وجدت أن هذه الرؤية الإسلامية الحضارية الواعدة والمتوثبة، القادمة من ماليزيا ينبغي الانفتاح عليها، والإصغاء إليها، والتواصل معها، فالماليزيون هم أحق من غيرهم في الحديث عن المشروع الحضاري الإسلامي، بعد التقدم والتطور العلمي والصناعي الذي تحقق في وطنهم ومجتمعهم، وما هذه الرؤية إلا استلهام من ذلك التقدم والتطور الذي أنجزوه، ومازالوا يواصلون إنجازه، ولولا هذا التقدم والتطور ما كانت عندهم هذه الثقة الواثقة بالحديث عن مشروع بمستوى المشروع الحضاري الإسلامي لأنفسهم ولغيرهم.

وهذا المشروع بالنسبة إلى الماليزيين ليس مجرد مشروع مستنبط من نظريات مجردة، أو من تأملات مثالية، وإنما هو مشروع له أساس في واقعهم ومتحرك على الأرض، وبالتالي فهو واضح عندهم في ملامحه وأبعاده ومكوناته أكثر من غيرهم.

والفرق بيننا وبينهم من هذه الجهة، أننا في المجال العربي كنا وما زلنا نتجادل ونتساجل حول مفهوم المشروع الحضاري الإسلامي وهويته وماهيته ولم نبرح النطاق النظري، وحتى في هذا النطاق النظري لا نرى أنفسنا نتقدم معرفيًا بخطوات كبيرة، وهناك قدر واضح من الغموض والإبهام نتبادله فيما بيننا حين نتحدث عن هذا الموضوع.

ومازلنا نختلف حول ما نعنيه وما نقصده من المشروع الحضاري الإسلامي، والسبب في ذلك يرجع بصورة أساسية إلى أننا نفتقد التقدم والتطور اللذين حققهما الماليزيون على الأرض بأنفسهم وإرادتهم، لأن الواقع الموضوعي يفرض مرئياته ومنظوراته بحسب وضعياته، ففي وضعيات التقدم والتطور تكون له مرئيات ومنظورات معينة تتسم بالثقة والإرادة، وفي وضعيات التراجع والجمود تختل هذه المرئيات والمنظورات وتتسم في العادة بالإحباط والسلبية.

وأما المفارقة الخطيرة في هذا الشأن، ففي الوقت الذي يتحدث الماليزيون عن المشروع الحضاري الإسلامي ويضعون لهم برنامجًا في هذا السبيل، تنبعث في العالم العربي بقوة شديدة نزعات التعصب والتشدد والتطرف، وتأتي هذه المفارقة لكي تضع مصير العالم العربي ومستقبله أمام خيارين، خيار التقدم والتطور وخيار التراجع والجمود.

ومن هنا تكمن أهمية الرؤية القادمة لنا من ماليزيا، فهي الرؤية التي تجعل الأمل مباحًا لنا!

ـ 6 ـ
تساؤلات حول فكرة الإسلام الحضاري

واجه برنامج الإسلام الحضاري في ماليزيا، تساؤلات من قبيل ألا يعني الحديث عن الإسلام الحضاري وكأننا أمام إسلامات متعددة وليس إسلامًا واحدًا؟ وألا يوحي هذا الوصف بأن هناك إسلامًا متخلفًا يقابل الإسلام الحضاري؟

وأمام هذا التساؤل المزدوج وجدت فرصة لإلقاء المزيد من الأضواء على فكرة الإسلام الحضاري، وفي هذا النطاق يمكن الإشارة إلى الملاحظات التالية:

أولاً: إن اختيار الماليزيين لبرنامج الإسلام الحضاري جاء في سياق تمسكهم بالإسلام، وتظاهرهم بالاعتزاز والافتخار به بعد التقدم والتطور اللذين أنجزوهما وحققوهما على الأرض، ولكي يبرهنوا من جهة على أن هذا التقدم والتطور لم يتما بعيدًا عن الإسلام، أو خارجًا عنه، أو بدون الاستلهام والاستنارة منه.

ومن جهة أخرى ليبرهنوا على أن التقدم والتطور اللذين تحققا عندهم، لم يقوداهم إلى التخلي عن الإسلام أو الابتعاد عنه، ولا حتى تقليص العلاقة به، وتخفيفها

وعدم التظاهر والجهر بها، خوفًا وحذرًا من تفسيرات وتأويلات قد تؤلب عليهم دولًا أو جهات إعلامية أو اقتصادية أو سياسية نافذة ومؤثرة دوليًا، تشوّه من صورتهم، أو تجلب عليهم ضغوطات، أو تضع في طريقهم عراقيل هم في غنى عنها.

فالماليزيون برهنوا على إمكانية أن يتمسك المجتمع بالهوية الإسلامية ويحقق تقدمًا في هذا العصر.

وبمعنى آخر إن الماليزيين برهنوا على إمكانية الهوية الإسلامية في أن تقود مجتمعًا نحو التقدم في هذا العصر، الذي يطبع الغرب صورته عليه، وفي ظل العولمة التي تحاول أن تجعل من الغرب قطبًا ومركزًا للعالم، وتخلق تماهيًا بين العالم والغرب.

وكم كنا بحاجة إلى هذا المثال الماليزي الذي تقترن فيه الهوية الإسلامية بالتقدم، خصوصًا في هذا العصر، ومن بعد انفصال تركيا عن المحيط الإسلامي بعد تلاشي الخلافة العثمانية، على خلفية الفصل والقطيعة بين الهوية الإسلامية والتقدم.

ثانيًا: إن برنامج الإسلام والحضاري يراد منه الكشف والتعبير عن الملامح والأبعاد الحضارية في الإسلام قيمًا وثقافة وتراثًا، واستظهارها لبعث إرادة التقدم ودينامية التطور في المجتمع الماليزي ليواصل نهضته وتقدمه ويحافظ عليهما.

وهذا بدوره يكشف عن حقيقة هامة هي أن الأمة كلما تقدمت وخطت خطوات نحو التقدم اقتربت من

المعاني والأبعاد الحضارية في الإسلام، وأدركت الحاجة إلى هذه المعاني والأبعاد، وكلما تراجعت وخطت خطوات نحو التراجع ابتعدت عن هذه المعاني والأبعاد الحضارية، وكانت أقرب إلى ما يناقضها ويعارضها من معانٍ وأبعاد.

ولعل هذا ما يفسر عناية الماليزيين بالإسلام الحضاري، فهم أقرب إليه نتيجة ما تحقق عندهم من تقدم وتطور.

ثالثًا: يبدو أن الماليزيين تقصدوا إطلاق وصف الإسلام الحضاري مراعاة لمجتمعهم المتعدد الأعراق والديانات والثقافات، وأرادوا من هذا البرنامج التأكيد على أن الإسلام يحترم الآخر ويتعايش معه، ويحفظ كرامته، ويضمن حقوقه.

كما أرادوا من هذا البرنامج تبليغ رسالة تسامح واطمئنان إلى شركائهم في الوطن من أصحاب الديانات والثقافات الأخرى، وهم شركاء أيضًا في نهضة وطنهم وتقدمه، فتقدم ماليزيا هو تقدم لكل الماليزيين مسلمين وغير مسلمين.

وبالتالي فإن هذه التسمية وغيرها من تسميات أخرى، لا يراد منها على الإطلاق تقسيم الإسلام الواحد إلى إسلامات متعددة، كما لا يراد منها كذلك الإيحاء بإعطاء الإسلام توصيفات أخرى، وإنما هي عبارة عن بناء مفاهيم الغرض منها صناعة رؤية تارة، وتارة أخرى لتفسير وتحليل ظواهر وقضايا اجتماعية وسياسية وحضارية.

الفصل السابع

الغرب وصدام الحضارات

- 1 -
برنارد لويس وصدام الحضارات

في ديسمبر 2003م، عقد في العاصمة المغربية الرباط ندوة دولية حول (حوار الثقافات هل هو ممكن؟)، نظمتها وزارة الثقافة المغربية في إطار نشاطاتها بمناسبة اختيار الرباط عاصمة للثقافة العربية. وكان اللافت في هذه الندوة، حضور برنارد لويس المستشرق والمؤرخ المعروف، وأستاذ تاريخ الشرق الأدنى بجامعة برنستون الأمريكية، التي انتقل إليها منذ الستينيات، وهو الذي انقطع عن زيارة العالم العربي منذ عقود من الزمن، مع أنه مسكون بهاجس هذه المنطقة وتاريخها ومآلاتها الراهنة، وتصوراته وتحليلاته واستشرافاته في هذا الشأن تلقى إصغاء واهتمامًا في مؤسسات الإدراة الأمريكية.

وقد تحدث برنارد لويس في محور الأديان بين الماضي والحاضر، وتحدد موضوعه عن اللقاء بين الإسلام والعالم المسيحي، وكان حديثه مثيرًا للدهشة والجدل، حيث كرر فيه التصورات والمقولات الاستشراقية والتاريخية التي ظل يخاطب بها الأوساط الأكاديمية والعقل الغربي بصورة عامة، لكنه هذه المرة يتحدث بها في بلد عربي، ويستفز بها مشاعر الحاضرين.

فقد ميز لويس بين الدين والحضارة في حديثه عن التقابل التاريخي بين المسيحية والإسلام، ورأى أن التطور الإيجابي الملحوظ الذي ظهر في القرنين الأخيرين إنما يتصل حسب رأيه بجانب الحضارة، حيث أصبح بالإمكان الحديث عن حضارات بصيغة الجمع، فيما لم تعترف أية حضارة في السابق، بوجود تجربة أخرى غير تجربتها، جديرة بإطلاق وصف الحضارة عليها.

هذا عن التطور الإيجابي، أما عن التطور السلبي فهو يتصل بجانب الدين، وقدم في هذا المجال تحليلًا متحيزًا وتوظيفيًا، حيث اعتبر أن الأديان متعددة الآلهة اتسمت بقدر من التسامح يفوق تسامح الأديان التوحيدية. ويقسم الديانات التوحيدية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام إلى قسمين، وذلك بالنظر إلى طبيعتها الدينية والميتافيزيقية.

الأول: الاتجاه الذي يرى بأن كل إنسان بوسعه أن يحصل على الخلاص داخل دينه الخاص به، والجنة ستكون من نصيب الصالحين في كل الأديان، وهذا هو الاتجاه السائد في اليهودية.

الثاني: الاتجاه الذي يتسم برؤية انتصارية، حيث يعتبر أن أتباع دين واحد فقط هم الذين سيحصلون في نهاية المطاف على الخلاص، وهذا هو الاتجاه السائد في المسيحية والإسلام.

وما يخلص إليه لويس من هذه الفكرة، هو أن أصحاب الرؤية النسبية كما يصفهم ويقصد بهم اليهود،

وحدهم هم القادرون على التحاور مع الآخرين، بينما يعجز أصحاب النزعات المطلقة على التحاور.

ويرتب لويس على هذه النتيجة أن الذهنية الدينية للحضارات هي سبب النزاعات والتصادمات بين هذه الحضارات، وجذور هذه الظاهرة يرجعها لويس إلى الفكرة الإقصائية، التي يرى من خلالها كل طرف أنه الموعود بالخلاص، وأن الطرف الآخر محكوم عليه بالضرورة بالخلود في جهنم.

وهذه الفكرة كانت موجودة عند المسيحيين والمسلمين، لكن المسيحية كما يضيف لويس استطاعت أن تتخلص من ذلك النظام الفكري، فيما لا يزال الإسلام متمسكًا به.

من هنا يقترب لويس إلى فكرة طالما بشر بها، وهي أن التطور الذي جرى في المسيحية والجمود الذي ما زال في الإسلام، هما جوهر النزاع بين الحضارتين في العالم الحديث. وما قاد المسيحية إلى هذا التطور أنها توصلت إلى ضرورة فصل الحضارة عن الدين، بعد أن كانت تجعل من الدين إطارًا حاكمًا على الثقافة الشاملة خلال العصور الوسطى.

وهذا الفصل لم يتحقق في عالم الإسلام، ودليله على ذلك أن في الإسلام بالإمكان الحديث عن علوم إسلامية ورياضيات إسلامية، بينما لا يمكن الحديث عن علوم مسيحية ورياضيات مسيحية.

وهنا يصل لويس إلى الحصيلة النهائية من كلمته، وهي أن الحضارة الإسلامية وحدها هي العاجزة عن التحاور والتعايش في عالم اليوم. وبالتالي هي المسؤولة عما يمكن أن يحدث من صدام بين الحضارات. لقد حاول لويس أن يبرئ المسيحية والحضارة الغربية، ويتهم الإسلام والحضارة الإسلامية، وما إن انتهى من كلمته المرتجلة حتى ترك القاعة قبل انتهاء الجلسة، وغادر المؤتمر دون الاستماع إلى وجهة نظر مغايرة.

وهذا الخطاب الذي تحدث به لويس، هو الخطاب الذي ظل يشتغل عليه منذ زمن طويل، وليست له نتيجة إلا تكريس الصدام بين الحضارات!

ـ 2 ـ
منطق إسرائيلي في الصدام بين الحضارات

في التاسع من يناير 2004م، نشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية حوارًا مطولًا ومثيرًا للجدل، مع المؤرخ والأكاديمي اليساري بني موريس أستاذ التاريخ بجامعة بن غوريون، وأحد أبرز المؤسسين لتيار ما عرف بالمؤرخين الجدد، أو تيار ما بعد الصهيونية، وأعادت نشره كاملًا ومترجمًا إلى العربية صحيفة السفير اللبنانية في الثاني عشر من الشهر نفسه.

وقد كشف هذا الحوار، بدون مواربة، عن النزعة التحريضية الشديدة التي يفكر بها بعض الأكاديميين الإسرائيليين، لدفع العالم نحو الصدام بين الحضارات، وبالذات بين العالمين والحضارتين الإسلامية والغربية. فموريس يعتقد أن ما يحدث في العالم هو صدام بين الحضارات، ويشبه الغرب اليوم بالأمبراطورية الرومانية في القرنين الرابع والسادس، وأنه أي الغرب معرض لهجوم البرابرة، ومن الجائز حسب قوله أن هؤلاء البرابرة سيدمرونه من الداخل، كما دمر البرابرة في السابق

أمبراطورية روما من الداخل. والعرب والمسلمون اليوم حسب تصوره يمثلون البرابرة الجدد، أو برابرة العصر الحديث، الذين يهددون حضارة روما هذا العصر.

لذلك فهو يعتقد أن الحرب بين الحضارات هي السمة الأساسية للقرن الحادي والعشرين، وأن الرئيس الأمريكي الأسبق بوش، يخطئ كما يقول عندما يتنكر لحقيقة وجود هذه الحرب، والحديث لا يدور فقط عن بن لادن، إنه صراع ضد عالم كامل ذي قيم مختلفة. ويعتبر إسرائيل معنية بهذا الصراع، وهي في صف جبهة الغرب، بالضبط مثلما كان الصليبيون، وأنهم أي الإسرائيليون الامتداد الأوروبي المعرض للضرب في هذا المكان.

هذا المنطق ليس جديدًا على الإسرائيليين، وليس مستغربًا منهم على الإطلاق، لكن الجديد فيه، أنه لم يصدر عن شخص ينتمي إلى طبقة السياسيين، أو رجال الدين المتطرفين، الذين ينفعلون بالأحداث السياسية واليومية، وإنما صدر عن شخصية أكاديمية يفترض تقيدها بأعراف وتقاليد أكاديمية، والالتزام بأخلاقيات العلم الصارمة، وليس بهذه الطريقة المرسلة بإطلاق الكلام.

كما أن النظر إلى التاريخ بهذه الكيفية، وتوظيفه في إذكاء الصراعات والنزاعات بين الأمم والحضارات يمثل كارثة. وحتى هنتنغتون الذي تنسب إليه مقولة صدام الحضارات، لم يتحدث عن هذه المقولة ويشرحها بالكيفية التي تحدث عنها موريس، حيث يغلب عليها طابع الانفعال

والتحريض، واللغة السياسية المحكومة بذهنية المواجهة والصدام. مع ذلك فهي لا تتعارض أو تتباين مع مقولة ومفاهيم هنتنغتون في صدام الحضارات، بقدر ما هي تتمة لها، ومتناغمة معها، وتطبيق لها، ولكن على الطريقة الإسرائيلية.

لقد حاول موريس ربط الصراع العربي ـ الإسرائيلي بمقولة صدام الحضارات، لكي يرفع من وتيرة هذا الصراع، ويعطيه بعدًا عالميًا وعمقًا تاريخيًا، ويربطه أيضًا بمستقبل الغرب والحضارة الغربية. وأن إسرائيل حسب هذه القراءة تمثل طرفًا أساسيًا في هذا الصدام بين الحضارات، فهي الطرف المتقدم والجبهة الأمامية، ولها موقع القلب في هذا الصدام.

ولا شك أن إسرائيل هي أسعد حظًا بهذا الصدام بين الحضارات، ويحاول الإسرائيليون جعل هذا الطرح يتحدد وينحصر في نطاق العالمين الإسلامي والغربي، دون الالتفات إلى الحضارات الأخرى السبع أو الثمان التي أشار إليها هنتنغتون، الذي يشترك معهم في التركيز على عالم الإسلام، ضمن دائرة صدام الحضارات مع الغرب، ولكن ينفرد عنهم بإضافة الاهتمام إلى الصين القوة العالمية الصاعدة من خارج مدنية الغرب وحداثته، والمغايرة لأيديولوجيته الفكرية والفلسفية، ولنظامه القيمي والأخلاقي.

فالإسرائيليون ومنهم موريس والتيار الفكري الذي يمثله، وجدوا ضالتهم في مقولة صدام الحضارات، لكي

يشتغلوا على تكريس الفروقات والخصومات بين عالم الإسلام وعالم الغرب، ويقطعوا الطريق على أية محاولة تساهم في تطوير مستويات العلاقة، والتفاهم بين هذين العالمين.

- 3 -
صدام الحضارات
وفكرة اضمحلال الغرب

النقد الواسع والمستمر الذي تعرضت له وما زالت مقولة صدام الحضارات من المجتمعات والثقافات المتعددة والمختلفة، التي كانت محقة فيما أظهرته من حذر وشك وقلق تجاه تلك المقولة. هذا النقد على قيمته وأهميته كان ناظرًا بصورة أساسية إلى رؤية الغرب إلى العالم، وإلى الثقافات والحضارات الأخرى غير الأوروبية، وكيف أن هذه الرؤية محكومة بذهنية الصدام والانقسام، وكأنها تريد عودة العالم إلى مرحلة الحرب الباردة، وترفع من وتيرة الانقسامات والتوترات الظاهرة والكامنة بين الدول والحضارات.

وهذا المنظور من طبيعته أن يبعث على الخوف والقلق، وهو ما يفسر كثافة التراكم النقدي المتصاعد تجاه مقولة صدام الحضارات، لكن هناك بعدًا آخر لتلك المقولة لم يتركز عليه الاهتمام، وهو شديد الأهمية ووثيق الصلة بمكونات هذه المقولة السجالية.

وهذا البعد كان حاضرًا ومتجليًا بصورة واضحة

ولافتة في كتاب (صدام الحضارات)، وتحدث عنه هنتنغتون بعناية واهتمام، ويتعلق هذا البعد بفكرة اضمحلال الغرب مقارنة بصعود وتقدم بعض الحضارات الأخرى، وبالذات الآسيوية منها.

وقد أكد هنتنغتون على أن هذه الفكرة ليست مجرد فكرة افتراضية، أو ليس لها أساس حقيقي، بل هي فكرة جادة. ومع أن النقاش حول هذه الفكرة لم ينقطع أو يتوقف في أوروبا والغرب عمومًا منذ بداية القرن العشرين وحتى مع ولوج القرن الواحد والعشرين، أي منذ صدور الجزء الأول من كتاب شبنجلر (انهيار الغرب) عام 1918م، إلى كتاب الباحث الأمريكي آرثر هيرمان (فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي) الصادر عام1997م.

وما يلفت النظر هذه المرة أن مستوى النقاش يعد مختلفًا عن صورته السابقة، وهذا ما حاول أن يؤكده هنتنغتون نفسه، وكتابه (صدام الحضارات) يمثل انخراطًا في هذا النقاش، وتأكيدًا لجديته، وتحريكًا لموضوعه.

والنقاش الذي أثاره هنتنغتون حول فكرة اضمحلال الغرب تحدد في اتجاهين أساسيين:

الاتجاه الأول: يدور حول سؤال محوري في الدراسات الغربية ويرتبط بمجال التاريخ المقارن للحضارات، وهو هل الغرب محكوم بحتمية قوانين الحضارات في تقدمها وتراجعها، وفي صعودها وانهيارها؟ أم أن الغرب مستثنى من هذه القوانين، لخصوصيات معينة ينفرد بها عن بقية الحضارات الأخرى؟

ولكن هل خصوصيات الغرب كما يتساءل هنتنغتون تعني أن تطوره وديناميكيته كحضارة مختلفان عن الأنماط التي برزت في كل الحضارات الأخرى؟ وهل الحضارات الغربية كيانات جديدة ليس لها مثيل، ومختلفة عن الحضارات التي وجدت؟.

وحين يحاول هنتنغتون أن يعيد صياغة هذا السؤال، ليحدد بدقة أكبر ما يريد الحديث عنه، يقول: (ولكن لتجاوز دروس تاريخ الحضارات، هناك أشياء ممكنة، ولكن ليس هناك أشياء حتمية، حضارات تستطيع تشكيل وتجديد نفسها، والقضية الأساسية للحضارة الغربية، وبصرف النظر عن التحديات الخارجية، فهل هي قادرة على إيقاف عملية الانهيار الداخلي، وهل يستطيع الغرب تجديد وتدعيم نفسه داخليًا، وليس ببساطة مفاقمة نهايته؟ أو يخضع لحضارات أخرى أكثر ديناميكية اقتصاديًا وسكانيا؟)

الاتجاه الثاني: لا ينفي هنتنغتون فكرة اضمحلال الغرب، ولا يشكك فيها، بقدر ما يحاول تثبيتها والوثوق بها. وما يضيفه في هذا المجال، هو تحديد خصائص معينة لهذا الاضمحلال، وهذه الخصائص حسب رأيه تتحد في ثلاث نقاط:

أولاً: أن اضمحلال الغرب عملية بطيئة، لأن نهوض القوة الغربية كما يقول استغرق أربعمائة سنة، وعملية التراجع ربما تستغرق المدة نفسها. وهذا الاضمحلال ما يزال في بداية مظاهره البطيئة، ولكن عند نقطة ما يمكن أن تزداد بسرعة مذهلة.

ثانيًا: إن هذا الاضمحلال لا يتبع خطًا مستقيمًا، فهو غير منتظم بدرجة عالية، مع انقطاعات وتراجعات، والمجتمعات الديموقراطية المفتوحة للغرب لديها مقدرة عظيمة على إعادة التجديد.

ثالثًا: إن قوة دولة أو قوة مجموعة هي مقدرة بقياس الموارد التي لديها في مواجهة دول أو جماعات أخرى تحاول التأثير فيها. وحصة الغرب في معظم وليس في كل موارد القوة الهامة وصلت إلى ذروتها في القرن العشرين، ثم بدأت بالهبوط قياسًا بتلك التي لدى الحضارات الأخرى.

وعلى وجه العموم، وهذا ما ينتهي إليه هنتنغتون، فإن الغرب سيبقى الحضارة الأكثر قوة، محتفظًا بحالة جيدة وهو يدخل العقود المبكرة من القرن الواحد والعشرين.

وقيمة هذا الطرح هو أنه يأتي من الغربيين أنفسهم، وهم الأقدر على إدراك وفهم وتحليل أزمة حضارتهم، وتصوراتهم في هذا الشأن من الصعب التشكيك فيها، أو عدم الاكتراث لها.

وجوهر ما يريد أن يقوله هنتنغتون من حديثه عن فكرة اضمحلال الغرب، ثلاثة أمور هي:

1 ـ إن اضمحلال الغرب يقصد به بصورة أساسية أوروبا، دون أن يضم إليه الولايات المتحدة الأمريكية، ولهذا هناك بعض الأمريكيين الذين يدعون إلى الانفصال عن أوروبا لأنها تضمحل، والارتباط بالقوة الصاعدة

في آسيا، ويعارض هنتنغتون هذا الاتجاه، ويدعو إلى ربط مصير الولايات المتحدة بأوروبا، وأن لا تتخلى أمريكا عن غربيتها ومحيطها الغربي.

2 ـ أمام الغرب إمكانية مواجهة فكرة الاضمحلال، والاستجابة لهذا التحدي، وإيقاف عملية الانهيار الداخلي، وذلك عبر ما يسميه هنتنغتون بتجديد الغرب لنفسه.

3 ـ ربط فكرة صدام الحضارات بفكرة اضمحلال الغرب وتقدم الحضارات الأخرى، وكأن هنتنغتون، من خلال هذا الربط بين فكرة اضمحلال الغرب وتقدم الحضارات الأخرى، يدعو الغرب لأن يقاوم صعود الحضارات الأخرى وتقدمها، وهذا هو وجه الخطورة في نظرية صدام الحضارات.

ـ 4 ـ
حرب الأفكار

حرب الأفكار مقولة أمريكية جديدة، جاءت في سياق مواجهة الإرهاب، وذلك بعد أن أدرك الأمريكيون ضرورة تجديد النظر في سياساتهم لمواجهة الإرهاب، وبعد أن ظهرت لديهم بعض الشكوك في إمكانية الفوز السريع والحاسم في هذه المعركة.

وقد ارتبطت هذه المقولة بثلاثة اتجاهات، تعددت فيما بينها منظورات الرؤية، وطرائق الفهم والتحليل، ومحددات الأفق والمكان والزمان، وهي:

الاتجاه الأول: عبر عنه وزير الدفاع الأمريكي الأسبق دونالد رامسفيلد، حينما دعا في أكتوبر 2003م إلى تشكيل وكالة جديدة، تساعد على مواجهة ما أسماه حرب الأفكار الخاصة بالإرهاب الدولي. وذلك في سياق حاجة الإدراة الأمريكية ووزارة الدفاع إلى إعادة تنظيم التعامل بشكل أكثر فاعلية مع تهديدات القرن الواحد والعشرين.

واعتبر رامسفيلد أن من أجل الفوز بالحرب ضد الإرهاب، علينا حسب قوله أن ننتصر في حرب الأفكار، ويقصد بهذه الحرب معركة الفكر مع أولئك الذين تجندهم الشبكات الإرهابية في أنحاء العالم كافة.

ويعلل ذلك بأن في مقابل كل إرهابي يعتقله التحالف حسب قوله أو يقتله أو يردعه أو يثنيه، هناك آخرون يتدربون. لذلك لا بد من خوض حرب الأفكار لمنع الجيل الجديد من الإرهابيين من تنظيم صفوفه، بدون أن يعترف بأن الحرب ضد الإرهاب ستكون طويلة وصعبة وخطرة.

وهناك من فسر هذا الموقف، بأن رامسفيلد بات راغبًا في أن يبدو أكثر اعتدالًا، خصوصًا مع ما قيل عن تسريب مذكرة داخلية تساءل فيها رامسفلد نفسه عن (هل نحن سائرون إلى النصر أو الهزيمة في حرب الإرهاب؟)، ولعله كان مقتنعًا بإعطاء دور أكبر لوزارة الخارجية في مكافحة الإرهاب.

الاتجاه الثاني: عبر عنه الكاتب الأمريكي توماس فريدمان، الذي نشر مجموعة مقالات حاول فيها شرح وتحليل مفهوم أو مقولة حرب الأفكار. وكأنه يريد أن يقوم بدور تحديد وضبط مكونات هذا المفهوم، وطبيعة المجال الذي يتصل ويتحدد به.

والتصور العام الذي ينطلق منه فريدمان، سمعه كما يقول ذات يوم من المحلل المتمرس في قضايا الشرق الأوسط عبد الله شليفر، الذي يرى أن الحرب العالمية الثانية كانت حرب النازيين، الذين استخدموا ماكنة ألمانيا لفرض هيمنة العنصر الكامل، الجنس الآري. والحرب الباردة كانت حرب الماركسيين، الذين استخدموا ماكنة الاتحاد السوفياتي لفرض هيمنة الطبقة العاملة. وكان

الحادي عشر من سبتمبر حرب الأصوليين، الذين استخدموا التفجيرات الانتحارية لفرض هيمنة الدين الكامل، الإسلام السياسي.

وبهذا التصور حاول فريدمان أن يحدد المجال الجديد لحرب الأفكار، ويبعث على الثقة والأمل بالفوز في هذه المعركة، التي مرت بثلاثة أطوار تاريخية، الطور الأول الذي انتصر فيه الغرب على النازيين في النصف الأول من القرن العشرين. والطور الثاني الذي انتصر فيه الغرب أيضًا على الشيوعيين في النصف الثاني من القرن العشرين. وبقيت أمام الغرب معركة الطور الثالث، وهي مع الأصوليين، وقد بدأت مع بداية القرن الواحد والعشرين.

ولعل ما يريد قوله فريدمان من هذا الكلام، أن الغرب الذي انتصر على النازيين في زمن سابق، وعلى الشيوعيين في زمن آخر، باستطاعته أن ينتصر على الأصوليين في معركته الراهنة.

وأما عن طبيعة المهمة في حرب الأفكار، فيرى فريدمان أنها بصورة أساسية ينبغي أن تكون داخل المجتمعات الإسلامية نفسها، وبإشراك المعتدلين في هذه المعركة، فهو يعتقد أن الأكثر أهمية، هو إيجاد سبل لجعل المجتمعات التي يأتي منها هؤلاء الأصوليون هي التي تردعهم أولًا، فهذه المجتمعات هي الوحيدة التي تعرف أناسها، وهي الوحيدة أيضًا حسب تقديره القادرة على كبح متطرفيها.

ولأن هؤلاء كما يضيف فريدمان ليسوا دولة خاضعة للردع التقليدي أو القواعد الدولية، وليسوا أفرادًا يردعهم الخوف من الموت، وليس بوسع الغرب تغيير المجتمعات والثقافات الأخرى بنفسه. ولكن الغرب أيضًا لا يمكن أن يقف مكتوف الأيدي، دون أن يفعل شيئًا في وجه هذا التهديد المتصاعد.

وهنا يصل فريدمان إلى طبيعة المهمة التي يراها في حرب الأفكار، وهي المشاركة مع قوى الاعتدال في هذه المجتمعات العربية والإسلامية، بمساعدتها على خوض حرب الأفكار، وهذا يتطلب تعزيز المعتدلين في العالم العربي، ويدعو الغرب لتبني أساليب وتكتيكات تساهم في تعزيز مكانة ونشاط هؤلاء المعتدلين.

وبعد مجموعة مقالات أخرى كتبها فريدمان حول مفهم حرب الأفكار، التي يتحدد من خلالها كما يقول الانتصار أو الهزيمة في الحرب ضد الإرهاب، اكتشف أن الأفكار لا تنتشر وحدها وإنما ضمن سياق معين. فالسياق السيئ يخلق مناخًا خصبًا حسب قوله لانتشار الأفكار السيئة والعنف، وهذا بدوره نابع مما يسود تلك المجتمعات من مشاعر بالإذلال والغضب.

والنتيجة التي يتوصل إليها فريدمان باقتناع كبير، هي أنه من المستحيل الحديث عن تحقيق النصر في حرب الأفكار في العالم العربي المسلم، دون التحدث عن الشيء الأكثر أولوية كما يصفه، الذي يمنح الناس الكرامة

والأمل، وهذا الشيء حسب تقديره هو العمل. ويستشهد ببعض الأرقام والحقائق التي يرى أن من يطلع عليها يمضي في البكاء، ومن هذه الأرقام أن من بين 90 مليون شاب عربي تراوح أعمارهم ما بين 15. 24 سنة، هناك 14 مليونًا منهم بدون عمل، إلى غير ذلك من أرقام مفزعة.

وبناء على ذلك، يحاول فريدمان أن يطور من رؤيته حول مشاركة القوى المعتدلة في حرب الأفكار، ويرى أن هذه القوى يمكنها أن تبرز للسطح، من بين الطبقة المتوسطة المتنامية داخل المجتمعات العربية والإسلامية، مع الإحساس بمشاعر الكرامة والأمل.

ويختتم كلامه بالقول إن الشباب الذين ينمون في سياق فرص اقتصادية حقيقية، وفي ظل سيادة القانون، وحق التكلم والكتابة في أي شيء يرغبون فيه، لن يكونوا بالتأكيد راغبين في تدمير العالم، وإنما سوف يريدون أن يكونوا جزءًا منه.

الاتجاه الثالث: عبر عنه الكتاب المشترك الصادر في نيويورك عام 2003م، وعنوانه (النضال هو من أجل الديموقراطية.. كيف نربح حرب الأفكار في أمريكا والعالم؟)، لمجموعة من الباحثين، وبإشراف الكاتب الأمريكي جورج باكير.

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الانتصار في حرب الأفكار يبدأ من أمريكا نفسها، ويمتد على مستوى العالم برمته. يبدأ من أمريكا بإصلاح حضارتها وديمقراطيتها أولًا، وبالنضال من أجل الديموقراطية في العالم ثانيًا.

وفي هذا الشأن يقول جورج باكير إن ضربة الحادي عشر من سبتمبر كشفت عن نواقص الإدارة الأمريكية، بل الحضارة الأمريكية، فالديموقراطية الأمريكية مريضة وبحاجة إلى علاج، وهناك أزمة ثقة بين الشعب الأمريكي وحكومته. ويوجه نقده إلى المجتمع الأمريكي ويعتبره من أكثر المجتمعات قسوة ولا مساواة في العالم، فتوزيع الثروة فيه غير عادل على الإطلاق، وتوجد فيه طبقة فقيرة جدًا بل معدمة، وهذا لا يليق ببلد غني جدًا كالولايات المتحدة الأمريكية.

وبالتالي حسب كلام باكير فإن النظام الليبرالي الأمريكي بحاجة إلى علاج، والحضارة الأمريكية ليست منزهة من العيوب، على عكس ما يزعم أنصارها المتشدقون بالقيم الديموقراطية والاقتصاد الحر، وغير ذلك من الشعارات.

هذه الاتجاهات الثلاثة، عكست طبيعة النزعات التي شكلت منطلقات الاهتمام بمقولة حرب الأفكار، وهي النزعات التي حددت اتجاهات الفهم والنظر إلى هذه المقولة.

فرامسفيلد ينطلق من نزعة كيف تواجه الولايات المتحدة الأمريكية بكفاءة عالية تهديدات القرن الواحد والعشرين، ولأنه مسكون بهاجس الأمن والدفاع والتفوق العسكري لأمريكا في العالم، فهو لا يستطيع أن ينظر إلى هذا المفهوم إلا من زاوية أمنية وعسكرية. ومن هذه الزاوية أيضًا تتحدد عنده صورة المجال لحرب الأفكار.

أما فريدمان فهو ينطلق من نزعة أن أساس المشكلة هي داخل المجتمعات العربية والإسلامية، والعلاج بشكل أساسي يأتي من داخل هذه المجتمعات نفسها. لذلك يدعو الغرب إلى مساعدة هذه المجتمعات على التخلص من أفكار التطرف والعنف والإرهاب بدعم قوى الاعتدال فيها.

في حين ينطلق جورج باكير من نزعة أن الاعتلال موجود داخل أمريكا نفسها، وعليها إصلاح نفسها قبل إصلاح العالم.

وأما معركتنا نحن في حرب الأفكار، فهي في المرتبة الأولى مع التخلف الذي أورثنا كل هذا الجهل والفقر والجمود والتحجر.

ـ 5 ـ
الطاقة النووية وحرب الحضارات

عندما حاول الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي، الدفاع عن الاتفاق الذي وقعه مع الحكومة الليبية في مجال التعاون النووي في شهر يوليو 2007م، قال بعد إبرام الاتفاق وقبل إنهاء زيارته لليبيا، إن الطاقة النووية هي طاقة المستقبل، وإذا لم نعط البلدان الواقعة جنوبي البحر المتوسط هذه الطاقة فكيف سيطورون أنفسهم، وإذا لم يتطوروا فكيف سنكافح الإرهاب والتعصب، وحذر في سياق كلامه أمام الصحفيين، من اندلاع حرب بين الحضارات في حال منع هذه التكنولوجيا النووية السلمية عن البلدان العربية.

وبهذا يكون ساركوزي قد صرح بالكلام، الذي لعله كان يصعب على الآخرين النطق والمجاهرة به، أو الكلام الذي لا يراد الكشف عنه والتطرق إليه، في ربط قضية الطاقة النووية بحرب الحضارات.

وهذا على ما يبدو أول ربط بينهما يتحدث به رئيس دولة أوروبية، كاشفًا عن الجانب الخفي لهذه القضية والخطير في الوقت نفسه، وواضعًا قضية الطاقة النووية في

غير السياق الذي توضع فيه عادة، وهو سياق حرب الحضارات، لكنه سياق ليس مستبعدًا، ولم يأت مفتعلًا، أو بقصد التهويل، وقد يكون من أصوب السياقات عند الأوروبيين.

ولا شك أن ساركوزي كان متنبهًا حين صرح بهذا الكلام، ولم يكن مضطرًا إليه، أو مجبرًا عليه، كما أنه لم يأت مجرد كلام عابر ومتسرع، ومن وحي اللحظة، بقدر ما كان كلامًا معبرًا عن موقف فكري وسياسي مفكر فيه مسبقًا، وليس بالضرورة بين الفرنسيين فحسب، وإنما بين الأوروبيين والأمريكيين كذلك، الذين يشتركون أو يقتربون عادة في الموقف تجاه موضوع في مستوى حساسية الطاقة النووية، وبالتالي فإن ما تحدث به ساركوزي هو من نوع الكلام المدرك والمفكر فيه عند الأوروبيين والأمريكيين.

وهذا الكلام على حساسيته وخطورته يظهر أنه لم يلفت الانتباه كثيرًا، أو لم يلتفت إليه بصورة كبيرة، ومر من دون التوقف عنده، في حين أن كلامًا بخطورة الربط بين الطاقة النووية وحرب الحضارات، ما كان ينبغي أن يفوت أو يهمل ويمر مرورًا سهلًا وعابرًا، لأن هذا الكلام قد يكون أكثر كلام بإمكانه أن يفسر موقف الغرب تجاه العالم العربي والإسلامي في موضوع الطاقة النووية.

ومرة أخرى، يتأكد ويتجدد حضور فكرة الحضارة في مجال العلاقات الدولية، وفي نطاق العلاقات بين الغرب والعالم العربي والإسلامي بشكل خاص، وهذا الحضور هذه المرة ليس غامضًا أو مبهمًا، أو بعيدًا عن التفطن

والإدراك، وذلك لكون الطاقة النووية وهي من أكثر أنواع الطاقة فاعلية، تعبر اليوم عن أعلى درجات العلم، وتكشف عن طبيعة مستويات التقدم العلمي، وبوصفها طاقة المستقبل حسب ساركوزي نفسه، وبدونها لا تلحق الأمم والمجتمعات بركب التقدم والمدنية، وبالتالي فهي الطاقة التي ستكون مصدر النزاع في الساحة الدولية.

وهي الطاقة التي بقي العالم العربي متأخرًا عنها، إعدادًا وتحضيرًا، إنتاجًا وتحصيلًا، وبالشكل الذي جعله يتخلف عن ركب الأمم والمجتمعات المتقدمة والمتمدنة، وفي رفع مستوى طاقة العمل والإنتاج، وسد النقص في الحاجات الأساسية المتعلقة بقطاعات الكهرباء والمياه والزراعة والصناعة وغيرها، والمؤثرة في تحسين نوعية الحياة للإنسان في هذه المجتمعات.

وهذا ما أخذ يلتفت إليه العالم العربي أخيرًا، ومتأخرًا، حيث سمعنا عن محاولات لعدد من الدول العربية في تحصيل هذه الطاقة، والاستفادة منها في تأمين وتحسين ورفع مستوى احتياجاتها من الكهرباء وغيرها، ولا شك أن هذه خطوة مهمة ولا بد من المثابرة والاجتهاد في السعي إليها، لكن الأهم فيها أنها تفتح على العالم العربي صحوة علمية تشعره بالحاجة إلى التقدم العلمي، الذي بدونه تتعطل الاستفادة من طاقة المستقبل كسبًا وتحصيلًا، كما تشعره أيضًا وهذا هو الأهم بضرورة القيام بأهم مراجعة تاريخية في مجال التعليم تكون شاملة لكل مكونات المسألة التعليمية وأبعادها.

فهل ستكون حرب الحضارات عقبة أمام تقدم العالم العربي في مجال الطاقة النووية، لكنها بالتأكيد لن تكون عقبة لو تقدم العالم العربي في مجال العلم والمعرفة!

ـ 6 ـ
صدام الحضارات
من الدول إلى المجتمعات

افتتح المفكر الفرنسي غاي سورمان مقالته (ماهية الغرب) المنشورة سنة 2008م، بالإشارة إلى مفهوم صدام الحضارات، الذي لابد أن يكون كل إنسان في أي مكان قد سمع به حسب قول سورمان، وبات هذا المفهوم الذي ابتدعه هنتنغتون عالميًا، مشبهًا له بالمفهوم الذي ابتدعه الاقتصادي الفرنسي ألفريد سوفاي في خمسينات القرن العشرين ولاقى نجاحًا مماثلًا، وهو مفهوم العالم الثالث.

ويعتقد سورمان أن من بين الأسباب التي تيسر لمثل هذه العبارات، اكتساب القبول على نطاق واسع بين الناس، أنها تفتقر إلى تعريف واضح.

ولا ينفي سورمان الصدام بين الحضارات، أو شجبه والاعتراض عليه، لكنه يختلف مع هنتنغتون في تحديد صورة هذا الصدام ومجاله، والمفترض عنده في تعبير صدام الحضارات أن المقصود به في الأساس الغرب في مواجهة بقية العالم، بينما هو يرى أن تعبير الغرب يتسم بالغموض، لكونه يشتمل على مجال واسع من المناطق دون وصف

للخصائص التي توحد هذه المناطق، وبالتالي فإن المجتمعات اليوم في نظره باتت منقسمة بين متغربين وغير متغربين، وهذا في تقديره هو محل الصدام الحقيقي ومجاله بين الحضارات.

وبتحديد أكثر يرى سورمان أن هذا النمط من الصدام داخل الحضارات، إنما يتحدد حول معنى الحداثة، الذي يمثل في نظره أهمية أعظم من صدام الحضارات عند هنتنغتون المزعوم بين الكيانات الجغرافية.

ويستند سورمان في هذه الرؤية لصدام الحضارات، إلى خلفية أن التاريخ الإنساني لم يشهد حتى الآن أي شكل من أشكال الحداثة غير الغربية، والحديث عن القيم الآسيوية الذي بدأ أولًا في سنغافورة، ما هو إلا حديث سياسي ليس أكثر!

ولا شك في حساسية وخطورة هذا الرأي الذي أفصح عنه سورمان، وبناء عليه فإن صدام الحضارات لابد أن يتجلى في جميع المجتمعات الإنسانية على اختلاف وتنوع، دياناتها وثقافاتها، لغاتها وقومياتها، أماكنها وجغرافياتها، مادام هذا الصدام يستند إلى خلفية تقسيم الناس إلى متغربين وغير متغربين.

وقد أخذ هذا الصدام يمتد في نظر سورمان، إلى داخل المجتمعات الغربية نفسها، التي انتقل إليها الجدل الدائر حول المعنى الأساسي للحداثة، المتصل بأزمة الهوية، وذلك عن طريق مجموعات ضخمة ممن يعيشون

في الغرب، من الأصوليين الغربيين وغير الغربيين، الذين يكافحون حسب قول سورمان، عملية التغريب المتواصلة باسم التقاليد، وكثيرون منهم يودون لو تمكنوا من إيقاف المحرك الذي يدفع هذه العملية، من خلال التنكر في هيئات متنوعة مثل حماية البيئة أو الهوية.

ويختم سورمان مقالته بالقول إن المجتمع الغربي الذي لا تستطيع فيه أن تبدأ يومك بالسؤال عما هو جديد، لا يجوز أن نعتبره في نظره غربيًا بعد الآن.

وعند النظر في هاتين الرؤيتين لمفهوم صدام الحضارات، يمكن تحديد طبيعة المفارقة بينهما، في أن هنتنغتون نظر إلى الغرب من خلال مفهوم الدولة، وبوصفه يتمثل في دول لها حدودها ونطاقها السياسي والجغرافي. في حين أن سورمان نظر إلى الغرب من خلال مفهوم الثقافة، وبوصفه يتمثل في أسلوب فكري ليس له حدود ونطاق سياسي وجغرافي.

وعلى هذا الأساس، فإن صدام الحضارات حسب رؤية هنتنغتون يتحدد في نطاق الدول وبين الكيانات السياسية، وحسب رؤية سورمان فإنه يتحدد في نطاق المجتمعات وبين المنظومات الثقافية.

وفي الوقت الذي حاول العالم التشكيك في مقولة صدام الحضارات ونفيها ورفضها، وتوجيه النقد القاسي إلى هنتنغتون، يأتي سورمان وكأنه يشرع من جديد، وبتبسيط شديد لهذه المقولة التي أصابت العالم بالفزع والهلع،

وأخطر ما فيها حين يبشر بها داخل كل المجتمعات، ولا شك أن هذا منزلق خطير وقع فيه سورمان وهو يبحث عن ماهية الغرب، ولابد من تخطئته في هذا الموقف الداعي إلى الصدام.

الفصل الثامن

الغرب والآخرون

- 1 -

الغرب والآخرون..
معادلة ملتبسة لم تتغير

هناك نسق من الدراسات الفكرية والسياسية والأنثروبولوجية الغربية، التي حاولت أن تظهر الطبيعة الحضارية المختلفة للغرب والمدنية الغربية عن بقية المجتمعات والحضارات الأخرى. وهي الدراسات التي ساهمت في تشكيل أنماط رؤية الغرب إلى العالم، وكانت بمثابة التصورات المنظمة التي هندست الأنظمة السلوكية للغرب في علاقاته وتعاملاته مع الآخرين من خارج ثقافته وحضارته.

وظلت هذه الدراسات تبرر له كل نزعاته على اختلاف صورها وأنماطها، وعلى مدى تاريخ طويل منذ بداية العصر الحديث لأوروبا واكتشافها الجديد للعالم وحتى اليوم، من تجارة العبيد والحملات الاستعمارية في عصر ما بعد القرون الوسطى، إلى زمن العولمة وصدام الحضارات في عصر ما بعد سقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفياتي والمنظومة الشرقية.

وقد ظل الغرب يحتمي بهذه التصورات لكي يتخلص

من مواجهة الضمير، ومن أي نقد أخلاقي يمكن أن يتعرض له، لأنه يصطدم بنظام مصالحه، وطموحاته إلى التوسع والهيمنة والاستحواذ على ثروات الأمم والحضارات.

وهذا النسق من الدراسات ليس جديدًا، ولقدمه أصبح يصنف في حقل الدراسات التقليدية والكلاسيكية، لكن اللافت فيه هو بقاؤه وديمومته، والعودة إليه مرة أخرى، وكأن الحاجة إليه مازالت ملحة، مع ما تعرض له من نقد عنيف من داخل الغرب نفسه.

والفلسفة العامة المكوّنة لهذا النسق من الدراسات عبر عنها بوضوح الأنثربولوجي إريك وولف في كتابه الذي يحمل عنوانًا نقديًا لافتًا، ومصورًا لحقيقة تلك الفلسفة، وهو كتاب (أوروبا وشعوب ليس لها تاريخ) الصادر سنة 1982م، يقول وولف في هذا الكتاب: (لقد تعلمنا داخل قاعة الدرس وخارجها أن ثمة كيانًا اسمه الغرب، وأن للمرء أن يرى هذا الغرب في صورة مجتمع وحضارة مستقلين ومعارضين لمجتمعات وحضارات أخرى.. أنجبت اليونان القديمة روما، وأنجبت روما أوروبا المسيحية، وأنجبت أوروبا المسيحية النهضة، وأفضت النهضة إلى التنوير، وتولدت من التنوير الديموقراطية، لتثمر بدورها الولايات المتحدة.. وإذا كان التاريخ هو صياغة هدف في إطار الزمان، إذن فإن هؤلاء الذين يطالبون بهذا الهدف لأنفسهم، هم بناء على هذه الحقيقة، القوة القادرة على التنبؤ بالتاريخ).

هذا هو درس التاريخ الذي يعلم في الغرب، وأن الحضارة بدأت من هناك، وظلت وبقيت هناك. وأن العالم في رؤيتهم هو أوروبا، وشعوب ليس لها تاريخ، وهذه الشعوب يجب عليها أن تتعلم الحضارة من الغرب ليكون لها تاريخ.

ويمكن تصنيف مقولة صدام الحضارات على هذا النسق من الدراسات، وأنها تجديد لها، وتصعيد خطير لوتيرتها، فقد ظل هنتنغتون يؤكد باستمرار في كتابه (صدام الحضارات) على فرادة الغرب وتميزه، وأنه ينفرد بخصائص لا تتوافر في غيره. ويدعو الغرب لأن يحافظ على هذه الفرادة والتميز، لكي يضمن تقدمه وتفوقه على بقية العالم، وحسب قوله (الغرب بكل وضوح يختلف عن الحضارات الأخرى التي وجدت.. كل الحضارات تدخل في عمليات مشابهة من الانبثاق والانهيار، والغرب يختلف عن الحضارات الأخرى، ليس بالطريقة التي تطور من خلالها، ولكن بالخصوصية المميزة بقيمه ومؤسساته، هذا يتضمن بكل وضوح مسيحيته، فرديته، وحكم القانون، الذي جعل للغرب إمكانية اختراع الحداثة، والتوسع في العالم، وأصبح محسودًا من المجتمعات الأخرى).

وفي هذا النطاق ولكن في سياق آخر، جاء كتاب (العولمة الثقافية.. الحضارات البشرية على محك التجربة) للفرنسي جيرار لوكلير، أستاذ علم الاجتماع بجامعة السوربون، حيث تساءل باهتمام: هل يوجد فرق جوهري بين الحضارة الغربية وبقية الحضارات الأخرى التي ظهرت

في العالم؟ وأين يكمن هذا الفرق الذي سلم به وكيف يتحدد ويتمثل؟

وقد بذل المؤلف جهدًا كبيرًا لكي يبرهن على وجود هذا الفرق، واعتبر أن أوروبا هي أصل الحداثة ونشأتها، وهي التي عرفت العالم بهذه الحداثة وحولتها إلى ظاهرة كونية، وبهذه الحداثة أصبحت أوروبا الحضارة المتفوقة على بقية الحضارات الأخرى.

والذي لم يكن يلتفت في السابق إلى هذه النزعة، أخذ يلتفت إليها بتوجس واهتمام بعد صدمة الحادي عشر من سبتمبر، التي دفعت الغرب لأن يتقمص معادلة «نحن والآخرون». المعادلة التي عبر عنها البريطاني روجر سكروتون في كتابه (الغرب والآخرون.. العولمة والتهديد الإرهابي)، وقد كشفت هذه المعادلة الملتبسة أن الغرب بحاجة لأن يعيد النظر في رؤيته إلى العالم.

ـ 2 ـ
الغرب وفكرة الحروب الصليبية

الخلاف والنزاع اللذان تفجرا في مارس 2003م، بين شيخ الأزهر السابق الدكتور محمد سيد طنطاوي ومجمع البحوث الإسلامية أعلى هيئات الأزهر من جهة، وبين جبهة علماء الأزهر التي تضم عددًا من علماء وأساتذة الأزهر الحاليين والسابقين من جهة أخرى، على خلفية تراجع مجمع البحوث الإسلامية عن وصف الحرب الأمريكية على العراق بأنها غزوة صليبية جديدة ضد الإسلام.

وهي العبارة التي وردت في بيانه الأول، واعترضت عليها جهات قبطية مصرية، وجهات مسيحية غربية، اعتقدت أن ترويج مثل هذه العبارات يثير النزعات الطائفية بين المسلمين والمسيحيين. وطلبت هذه الجهات التخلي عن إطلاق مثل هذه العبارات، ودعت الجهة التي أصدرت البيان إلى التراجع عن تلك العبارة.

وهو ما استجاب له الشيخ سيد طنطاوي، بعد تدخل شخصيات رسمية مصرية نصحت شيخ الأزهر بهذه الخطوة، تفاديًا لتفاعل احتجاجات لا ضرورة لها. فطلب

الشيخ طنطاوي من أعضاء المجمع إصدار بيان توضيحي تحذف منه تلك العبارة، ويرفع التباسات سوء الفهم، ويمتص تلك الاحتجاجات.

وقد أكد البيان الجديد للمجمع على أن الإسلام لن يكون أبدًا في حرب مع المسيحيين، لأن الشرائع السماوية كلها تدعو إلى نشر السلام والأمن بين أبناء الإنسانية جميعًا. وأوضح البيان أن عبارة غزوة صليبية جديدة التي وردت في بيانه السابق، لا تعني إطلاقًا حربًا جديدة بين الإسلام والمسيحية، وقد فهم البعض هذه العبارة فهمًا خاطئًا وعلى نحو غير سليم. فالحروب الصليبية كما يضيف البيان مرت عليها مئات السنين، وكل عاقل يعلم أنها لم تكن حربًا دينية، وإنما كانت لأسباب سياسية أخرى.

هذا البيان التوضيحي جاء لكي يمتص احتجاج فئة من الخارج الإسلامي، لكنه فجر احتجاجًا مع فئة أخرى من الداخل الإسلامي، حيث أصدرت جبهة علماء الأزهر بيانًا اعتراضيًا أكدت فيه تمسكها بالبيان السابق، ورفضها التراجع أو التخلي عن وصف الحرب الأمريكية بأنها غزوة صليبية جديدة. وقد كشف هذا الخلاف كيف أن تاريخ الحروب الصليبية ما زال حاضرًا في نظم الخطاب عند بعض الفئات الإسلامية.

وفي وقت سابق تراجع الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الابن عن وصف الحرب التي شنها على أفغانستان بأنها حرب صليبية. وقد اعتبرت مجلة دير شبيغل

الألمانية بأن الحرب التي قادها الرئيس الأمريكي ضد العراق هي في رؤيته حرب صليبية، وذلك في مقال نشرته عنوانه (في مهمة إلهية.. حرب جورج بوش الصليبية) في عددها الصادر في 17 فبراير 2003م.

هذه مجرد إشارات سريعة ومحدودة، لكن الذي يعرفه الدارسون والباحثون في حقول التاريخ والسياسة والعلاقات الدولية، وفي علم الأديان والفكر الديني، هو أن الحروب الصليبية كفكرة وقضية وتاريخ ظلت حاضرة في الفكر الغربي بصورة واسعة ومكثفة، حيث يرجع إليها باستمرار، ويعاد التذكير بها دائمًا، ولا يتوقف الاستشهاد بها، والإشارة إليها، بطريقة تلفت الانتباه، وتستدعي المساءلة، وكأن هناك ما يلح على الفكر الغربي ويحرضه دائمًا على مثل هذا الاستحضار، والاقتراب من تلك الفكرة أو القضية، وبهذه الكثافة والاتساع، وبالشكل الذي يفهم منه كما لو أن هناك غايات ليس بالضرورة أن تعلن، أو يصرح بها.

ولا ريب في أن هذه الغايات تتصل بدرجة أساسية بطبيعة النظرة المتشكّلة عند الأوروبيين إلى العالم الإسلامي، فهذه النظرة ظلت مسكونة بهواجس تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي.

فعندما احتلت القوات البريطانية مدينة القدس سنة 1917م بقيادة اللواء اللنبي، وكان أول أوروبي يدخل القدس منذ تحريرها في زمن الحروب الصليبية، صرح اللنبي قائلًا: (الآن انتهت الحروب الصليبية).

وعندما دخلت القوات الفرنسية مدينة دمشق بعد معركة ميسلون سنة1921م، توجه اللواء الفرنسي غورو قائد الحملة الفرنسية إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، وخاطبه بقوله: (أنظر يا صلاح الدين ها قد عدنا).

ويذكر الدكتور حازم الببلاوي أن رسالة للدكتوراه نوقشت في جامعة السوربون الفرنسية منذ ما يزيد على أربعين عامًا، كشفت كيف أن هاجس الحروب الصليبية ظل ماثلًا في أذهان الأوروبيين لقرون لاحقة، بحيث كان كل ملك أو بابا جديد للكنيسة يؤكد شرعيته بإعلان الدعوة للإعداد والاستعداد لحرب صليبية جديدة تحرر الأماكن المقدسة، وهو إعلان للنيات بدرجة أساسية.

وينقل الدكتور جورج جبور أن في جنوب فرنسا، وفي المكان الذي انطلقت منه الحملة الصليبية الأولى، هناك جمعية تعقد اجتماعًا سنويًا، ويتم في هذا الاجتماع السنوي إلقاء الخطب المحاكية لخطبة البابا أوربان الثاني، ويجري إعادة تمثيل انطلاقة الحملة الصليبية الأولى.

وسبق للدكتور جبور أن خاطب زعامة الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان، وبمناسبة الذكرى التسعمائة لإعلان الحروب الصليبية التي صادفت سنة 1995م، بتوجيه خطاب تضمن شرحًا اعتذاريًا للعالم الإسلامي عن تلك الحروب. وكان الدكتور جبور يأمل أن يؤدي مثل هذا الشرح الاعتذاري من الفاتيكان، إلى إعطاء دفعة هائلة للحوار المجدي حسب رأيه بين الديانتين العالميتين

التوحيديتين، ومناسبة للنقاش الجاد والمسؤول لكل من يأمل بناء عالم متسامح، يسوده سلم قائم على اقتناعات الناس، ومتجذر في عقولهم.

وعندما ناقش الكاتب البريطاني بيتر مانسفيلد مخاوف الغرب من الإسلام، وجد أن ذكريات تلك الحروب انغرست بعمق في اللاوعي، وقد أصبحنا نرى الآن كما يقول أن تعليم تاريخ الصليبيين يتم بصورة أفضل في مدارسنا عما كانت عليه الحال من قبل.

ويعلق مانسفيلد على ذلك بقوله: ولكن المرء لا يملك إلا أن يتساءل كم عدد أطفال المدارس الذين يعرفون أنه حين استولى الصليبيون على مدينة القدس عام 1099م، أحرقوا جميع اليهود حتى الموت، ولكن حين حرر المسلمون المدينة بعد تسعين سنة صفحوا عن الجميع وتسامحوا مع الديانات الأخرى.

وحينما اشتدّت الحملات الإعلامية الغربية المعادية للإسلام والعالم الإسلامي، مع بداية التسعينيات من القرن الماضي، والتي كانت تبحث عن عدو جديد بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وتصدع الماركسية، وصف مراد هوفمان تلك الأجواء في كتابه (الإسلام كبديل) الصادر سنة 1993م، قائلًا وكأننا نقف وجهًا لوجه مع بداية حقبة جديدة من الحروب الصليبية.

والسؤال المحير هو: لماذا لا يريد الغرب أن يمحو هذه الذاكرة، ويقطع هذا الإرث التاريخي الذي يرتد به إلى

الماضي؟ ولماذا لا يزال الغرب مسكونًا بتلك المواجهات والحروب؟ التي يصفها الباحث الفرنسي ديبرون بالأسطورة، في كتابه الصادر سنة 1998م في أربعة أجزاء بعنوان (أسطورة الصليبية).

والغرب الذي يفهم الحداثة على قاعدة القطيعة المعرفية مع الماضي، واعتبار الماضي لا يمثل مرجعية ونظامًا للتفكير، يجد من الصعوبة بمكان التخلص من تلك الذاكرة، وهذا ما يفسر التاريخ المستمر للتوترات القائمة في العلاقات بين عالم الإسلام وعالم الغرب.

- 3 -
الفكر الغربي واختراع مقولة البربرية

اللافت في الخطاب الغربي المعاصر ذي المنزع الفكري والسياسي أنه أخذ يستعيد الحديث بصورة فيها قدر من التواتر، عن بعض المقولات الموغلة في القدم، التي لها طبيعة استفزازية ومضادة للنزعة الإنسانية والتعاليم الأخلاقية. وكان من المفترض طمس واضمحلال هذه المقولات التي أصبحت من مقولات الماضي القديم، التي تجاوزها الفكر الإنساني وتخلص منها بعد الثورات الفكرية والعلمية والمنهجية التي مرت عليه في القرون الأخيرة، وشملت ميادين الفلسفة وعلم النفس على الصعيد الفكري، وميادين البيولوجيا والأنثربولوجيا على الصعيد العلمي، بالإضافة إلى ثورة المنهجيات في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

وهي الثورات التي نقلت الفكر الإنساني إلى درجة عالية من الوثوقية بأن البشرية لها طبيعة مشتركة وجوهر ثابت، مهما تنوعت وتعددت أعراقها وسلالاتها، لغاتها وألسنتها، دياناتها ومذاهبها، تاريخها وجغرافياتها. وقد ترسخت هذه الوثوقية في الفكر الإنساني بشكل لا يؤثر فيها وجود بعض الأفكار والتصورات الشاذة وغير المقنعة.

لذلك فإن ظهور بعض المقولات التي ترتد بالفكر الإنساني إلى الوراء، أمر يبعث على الحيرة والتساؤل، ومن هذه المقولات، التي نقصدها بالتحديد مقولة البربرية والبرابرة أو البربرية الجديدة كما يصفها الدكتور عزيز العظمة.

ومن الواضح أن هذه المقولة لها طبيعة شديدة الحساسية، ولا تطلق إلا لأغراض توظيفية تأتي في سياق الإعلاء من شأن الذات وتنزيهها، وتحقير الآخر بأشد الأوصاف قدحًا وهجومًا. ومعظم استخداماتها كانت في حالات النزاع والصدام والحروب، وهي الوصف الذي يحط من قدر العقل وتسلب منه مزاياه. فالبربرية هي سلوك ذهني واجتماعي يفتقر إلى الرشد والتماسك العقلي، ويتصف بالفوضى والعصبية والهمجية والتوحش.

في حين أن العقل من سماته النظام الذي يقابل الفوضى، والحلم الذي يقابل العصبية، والعلم الذي يقابل الهمجية، والتمدن الذي يقابل التوحش. لهذا فإن الحضارة اليونانية القديمة التي عرفت بحضارة المنطق، هي التي اخترعت مقولة البربرية باعتبارها المقولة التي تمثل نقيض المنطق.

وعن علاقة هذه المقولة بالصراعات، يقول توماس باترسون أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة تيمبل الأمريكية، إن الإغريق ابتدعوا فكرة البرابرة خلال النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد ضد خطر الدول الفارسية، بعد

أن وصل تهديدها إلى المجتمعات المتحدثة بالإغريقية المطلة على آسيا الوسطى وبحر إيجة، وكانت فكرتهم عن البرابرة بأنهم نقيض الإغريق.

ومنذ اختراع مقولة البربرية واستعمالاتها تتعدد وتختلف بحسب طبيعة الظروف ومقتضيات توظيفاتها، وهذا يعني أن هناك مقتضيات جديدة استدعت استحضار هذه المقولة في الخطاب الفكري والسياسي الغربي الراهن.

فقد تحدث عنها فرنسيس فوكوياما في كتابه المثير للجدل (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) الصادر سنة 1993م، لكي يطمئن الغرب بأن (ليس البرابرة على أبوابنا)، وهي العبارة التي استخدمها في الكتاب وأفرد لها فصلًا خاصًا للحديث عنها، واعتبر أن احتمال التدمير الكارثي لحضارة الغرب التقنية الحديثة، وعودة هذه الحضارة إلى البربرية، إنما هو من محض التخيلات العلمية. وحسب قوله نحن لسنا مهددين من قبل برابرة حقيقيين يجهلون قدرة علم الفيزياء الحديثة.

وما تفاءل به فوكوياما هو ما حذر منه صمويل هنتنغتون في كتابه الأشد إثارة للجدل (صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي) الصادر سنة 1996م، فقد ختم كتابه في الأسطر الأخيرة منه، بتحذير الغرب بأن الصدام الأوسع أو الصدام الحقيقي العالمي سيكون بين الحضارة والبربرية، وبخلاف فوكوياما فإن هنتنغتون يضع إمكانية أن تخلي الحضارة في جوانب متعددة مكانها إلى البربرية.

وفي سياق دفاعه عن منجزات أوروبا خلال القرن العشرين، نشر بيتر والدرون مقالة سنة 2000م، كان عنوانها (لم يأت البرابرة)، لكي يواجه الآراء التي صورت القرن العشرين بأنه أسوأ القرون في التاريخ الأوروبي، وأشد القرون عنفًا في تاريخ البشرية.

كما تتبع مارك سولتر في كتابه (البرابرة والحضارة في العلاقات الدولية) الصادر سنة 2002م، نشأة هذه الازدواجية أو الثنائية المتناقضة بين الحضارة والبربرية في الفكر الغربي والتاريخ الغربي، وتوظيفاتها الفكرية والسياسية في مجال العلاقات الدولية، وعبر مراحل تاريخية طويلة وقديمة. وحينما يصل إلى مرحلتنا المعاصرة، يرى أن هذه الازدواجية عادت إلى الظهور في نظريات العلاقات الدولية مع مرحلة ما بعد الحرب الباردة، وحسب تفسير سولتر فإن ظهور هذه الازدواجية جاء لكي يصور أن الغرب بات يمثل واحة الأمن والسلام، وأن الباقين المفتقرين إلى الحضارة ميالون إلى العنف والفوضى.

وفي اتجاه آخر مناقض تأتي محاولة توماس باترسون في كتابه (الحضارة الغربية الفكرة والتاريخ) الصادر سنة 1997م، حيث حاول أن يقدم تفسيرًا نقديًا لجذور وخلفيات اختراع مقولة البرابرة في الفكر الغربي، ويرى أن النقاد الاجتماعيين المحدثين، يحاولون من خلال اختراع هذه المقولة، إضفاء مشروعية على مظاهر عدم المساواة في مجال الطبقات والجنوسة والقهر الطبقي، إذ يزعمون أن الفروق الناشئة اجتماعيًا، إنما هي في الحقيقة ضاربة

بجذورها في الطبيعة عمومًا، أو في الطبيعة البشرية، ويؤكدون أن الاختلاف وضع طبيعي، ومن ثم لا داعي لمحاولة علاج المظالم والتفاوتات في المجتمع. ويلجأ نقاد كثيرون كما يضيف باترسون إلى هذه المزاعم، بغية دعم وتأييد السياسات والممارسات التي تزيد وتفاقم عمليًا مظاهر عدم المساواة الاجتماعية.

أما عزيز العظمة وهو يتحدث عن الحضارة والثقافة والبربرية الجديدة، فإنه يرى أن هناك في الفكر الغربي حركة إحياء للأفكار الرومانتيكية حول المجتمع والتاريخ، وهي أفكار كانت قبل الحرب العالمية الثانية، تنتسب إلى الأيديولوجيات والحركات السياسية اليمينية والمحافظة. ذلك أن التركيز حسب رأيه على الفكرة غير المدققة حول الثقافة، أو على النزعة النسبية لما بعد الحداثة، وعلى سيناريوهات الحرب مابين الحضارات، وادعاءات الأصوليين امتلاك الحقيقة، واحتفاء نزعات التعددية الثقافية بالاختلاف، كل ذلك إنما يشكل إحياء لنظريات اجتماعية لا عقلانية، حيث تحل الثقافة محل العرق، بوصفها المبدأ الناظم لنظرية تدور حول امتلاك الجماعات القومية والدينية والاثنية سمات نظرية متأصلة فيهم.

ولقد كشفت هذه الظاهرة عن أزمة بنيوية عميقة في رؤية الفكر الغربي إلى العالم، وعدم قدرته أو رغبته في تجديد هذه الرؤية، والتخلي عن حالة التعالي والكبرياء والفوقية، وتجاوز تلك الذهنية التي تغذي خيالاته وذاكرته بالعظمة والتفوق والشعور بالقوة، والقطيعة عن تلك

النظريات والأفكار التي تقسم الناس إلى طبقات وأجناس وأعراق متفاضلة ومتفاوتة أو متصادمة، وإعادة النظر في تاريخ وأنماط علاقاته بالعالم والشعوب والحضارات غير الأوروبية.

وإذا كان بالإمكان اعتبار هذه المحاولة باتت صعبة أو مستحيلة بعد أحداث أيلول ـ سبتمبر، لكن يمكن من وجه آخر اعتبارها تأكيدًا لضرورة مثل هذه المحاولة، لكي لا يصل الغرب إلى صدام مع بقية العالم.

ـ 4 ـ
اللاسامية الجديدة والتحول من المسيحية إلى الإسلام

في سنة 1997م نشر الكاتب الأمريكي دانيال بايبس المعروف بنزعته المتشددة، وهو من الوجوه اليهودية المؤثرة في الحياة السياسية الأمريكية، مقالًا عنوانه (اللاسامية الجديدة)، اعتبر فيه أن ظاهرة اللاسامية وهي تاريخيًا ظاهرة مسيحية، أضحت اليوم ظاهرة إسلامية أساسًا، ليس في الشرق الأوسط فحسب، بل حتى في الولايات المتحدة.

والمسلمون اليوم حسب رأيه هم اللاساميون الأكثر نشاطا وتعبيرًا، وهم أكثر من يساهم في كراهية اليهود هنا. ويتحدث المسلمون كما يضيف لغة لاسامية علنية ليس لها مثيل في أي مكان آخر في الغرب، وشاهده على ذلك ما رصده في تقرير (معاداة السامية في العالم)، وهو عبارة عن مسح سنوي تنشره رابطة مناهضة تشويه السمعة. حيث رصد في هذا التقرير كما يقول عنصرين صاعقين، ولكن غير معترف بهما. الأول يظهر أن المقر الأساسي للأقوال والأفعال المعادية لليهود انتقل من الدول المسيحية إلى العالم الإسلامي.

والعنصر الثاني وهو ربما ينذر بسوء أكبر بحسب وصفه، يتلخص في أن المسلمين الموجودين في الدول ذات الغالبية المسيحية في كل من أوروبا وأمريكا، هم الذين يحملون بصورة متنامية شعار اللاسامية، ويشكلون خطرًا ملموسًا على اليهود. وهذا لا يعني والكلام لبايبس أن اللاسامية بين المسيحيين قد تبخرت، ولكنها أصبحت بوضوح أقل تأثيرًا من ممارسات المسلمين.

وفي مارس 2003م نشر معهد الكونغرس اليهودي العالمي ـ وهو اتحاد لمجموعات ومنظمات يهودية تمثل 80 دولة في قارات العالم الست ـ تقريرًا سياسيًا عن اللاسامية الجديدة، جاء في مقدمته: شهدت السنتان الماضيتان تفشي معاداة السامية في أوروبا الغربية بشكل لم نشهده منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث أحرقت معابد ومدارس ومبان يهودية أخرى، وتعرض اليهود لعنف جسدي ولفظي. وفي حين كان المسلمون مرتكبي غالبية تلك الأفعال، إلا أن المسؤولية تقع على النخب الأوروبية لكونها أوجدت مناخًا لم تعد معاداة السامية تعتبر فيه غير مقبولة.

وفي أواخر ديسمبر 2003م، وزع كراس له طابع توجيهي وتحذيري، على مائتين من الحاخامات وزعماء الجاليات اليهودية في العالم، بمؤتمر لليهود الأرثوذكس عقد في القدس، ويحذر الكراس اليهود من التعامل مع المسلمين، ويهدف حسب قول رئيس مركز الخدمات الروحية في الشتات الحاخام يحيئيل فيسرمان إلى إثارة الوعي حول موضوعي اللاسامية والإرهاب، كما يحذر

الكراس وفق ما أوردته صحيفتا هآرتس ومعاريف الإسرائيليتان من تحول أوروبا إلى قارة إسلامية، وازدياد النفوذ الإسلامي حتى في الولايات المتحدة الأمريكية، ومحاولة المسلمين المتطرفين الاستيطان في بلاد الغرب المسيحية من أجل تحويلها إلى دول إسلامية.

وما لم يفلح المسلمون في تحقيقه في أسبانيا مطلع القرون الوسطى، وما لم يفلح العثمانيون في تحقيقه مطلع العصر الحديث، ينجح في تحقيقه المهاجرون المسلمون اليوم من دون معركة. وأن ما بدأ قبل أربعين عامًا كهجرة بريئة لعاطلين عن العمل من البلاد الإسلامية، تحول إلى جهد احتلالي من أجل تغيير وجه العالم الغربي والتاريخ.

ويطالب الكراس بعدم إجراء حوارات مع الزعامات الإسلامية في الدول الغربية، لأنه بحسب الإسلام كما يقولون، فإن الله لم يمنح قط أرض إسرائيل لليهود، وأنها لم تخضع لسيطرتهم، وأن الهيكل لم يكن قط في الحرم القدسي، وأن حائط المبكى ليس من بقاياه.

واعتبر الكراس أن التحاور على أساس ديني سيزيد الاغتراب والكراهية، وسينزلق فورًا إلى النزاع السياسي على أرض إسرائيل، ويدعو إلى توعية اليهود بضرورة الامتناع عن إقامة أي صلات مع شبان مسلمين من ذوي التعليم الغربي الذين يعيشون في أوروبا، لأن الكثيرين منهم ولدوا من جديد كمسلمين متطرفين.

هذه الحقائق في غاية الحساسية، وتكشف عن نزعة

تصادمية، وأن الوجود الإسلامي في أوروبا بات في دائرة الاستهداف والتآمر اليهودي. وبدأت الجماعات اليهودية تربط مستقبلها في أوروبا بحركة الوجود الإسلامي هناك، الأمر الذي يهدد مستقبل هذا الوجود.

ـ 5 ـ
نزعة الإمبراطورية.. أمريكا وبقية العالم

اللافت في الكتابات السياسية الغربية المعاصرة، والأمريكية منها بالذات، أنها أخذت تستعيد الحديث عن مفهوم الإمبراطورية، بصورة متزايدة، وبتحليلات تستدعي التوقف أمام هذا المفهوم، ومحاولة فهمه، وتفسير انبعاثه من جديد، وذلك بعد أن كان من المفاهيم التي كادت تتلاشى وتضمحل مع نهاية عصر الاستعمار، وعصر التوسع في العالم بوسائل القوة، وبعد انبثاق القانون الدولي، الذي كان يفترض أن ينظم العلاقات بين الدول على أساس مفهوم السيادة الكاملة، واحترام الشخصية القانونية لكل دولة معترف بها دوليًا.

وآخر من وصف بهذا المفهوم، الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر الميلادي، وأصبح فيما بعد ينتمي إلى الفكر السياسي القديم، وظلت استعمالاته القليلة غالبًا ما تتحدد في الدلالات والأوصاف الشنيعة والممقوتة، كالوصف الذي أطلقه الأمريكيون على السوفيات بأنهم يمثلون إمبراطورية الشر.

هذا المفهوم الذي كان مرفوضًا في السابق، وكاد يتلاشى، ينبعث مرة أخرى، ويتجدد الحديث عنه، وكأن العالم يدخل عصر إمبراطورية جديدة تختلف في أنماطها السلوكية، واتجاهاتها الفكرية، عن تلك الإمبراطوريات القديمة التي تلاشت واضمحلت، وكان الاعتقاد أنها أصبحت في ذاكرة الماضي، وانتهت إلى غير عودة.

ولذلك فإن عودة هذا المفهوم إلى مجال التداول الفكري والسياسي، يكشف عن ملامح جديدة في الرؤية إلى العالم، ناظرًا ومنظورًا إليه. فهناك من بات ينظر إلى العالم من خلال هذا المفهوم، وهناك من ينتقد التعامل بهذا المفهوم في النظر إلى العالم.

والكتابات التي تحدثت عن هذا المفهوم عبرت عن صور مختلفة من الفهم، واتجاهات متعددة في النظر إليه، بين من يشجع عليه، وبين من يحذر منه، وبين من يتخوف من عاقبته.

ومحور هذه الكتابات هو الولايات المتحدة الأمريكية، التي أخذ يتعاظم دورها ونفوذها وتمددها في العالم، مستفيدة من اختلال توازنات القوى العالمية، فأوروبا مشغولة بنفسها وباتحادها، وروسيا تحولت إلى دولة منهكة ينخرها الفساد، والصين قوة صاعدة لكنها ما زالت خارج الدول الأكثر تقدمًا، واليابان منذ أن تخلت عن نزعتها الإمبراطورية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية تخلت عن أي دور عالمي.

في ظل هذه الاختلالات ظهر اتجاه أمريكي ينظر إلى دور عالمي جديد للولايات المتحدة الأمريكية، وتغير الحديث عن هذا الدور بانفعال شديد بعد صدمة أحداث 11 سبتمبر، حيث ظهرت دعوات صريحة لضبط العالم، وإحكام السيطرة عليه، من أجل الحفاظ على أمن الولايات المتحدة الأمريكية القومي، وهذا يتطلب حسب رأي البعض أن تتحول أمريكا إلى قوة إمبراطورية.

وفي هذا النطاق، فإن ريتشارد هاس عضو سابق في المجلس القومي الأمريكي، ومدير التخطيط السياسي بوزارة الخارجية الأمريكية، كتب دراسة في نوفمبر 2001م عنوانها (أمريكا الإمبراطورية)، أشار فيها إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية لكي تنجح في هدفها بتحقيق السيطرة العالمية، سيكون من الواجب على الأمريكيين إعادة التفكير في دورهم ليس في إطار الدولة ـ الأمة، بل في سياق قوة إمبراطورية.. وأن تحبيذ سياسة خارجية إمبراطورية، يعني الدعوة إلى سياسة خارجية تحاول تنظيم العالم وفق مبادئ معينة تؤثر في العلاقات بين الدول وداخل هذه الدول، واعتبار دور الولايات المتحدة شبيهًا بدور بريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر.

ويتناغم مع هذا الطرح ما كتبه مدير مركز الأبحاث في كلية كندي للشؤون السياسية بجامعة هارفارد، مايكل أغناتيف، في مقالة عنوانها (الإمبراطورية الأمريكية)، نشرتها مجلة نيويورك تايمز مجازين في يناير 2003م، حيث دافع عن نزعة الإمبراطورية في السياسة الأمريكية، واعتبر

أن هذه الإمبراطورية لا تشبه الإمبراطوريات الأخرى السابقة التي قامت على المستعمرات والغزو وعبء الرجل الأبيض. فإمبراطورية القرن الواحد والعشرين كما يضيف أغناتيف هي اختراع جديد في علم السياسة، إنها هيمنة عالمية تستند إلى الأسواق الحرة وحقوق الإنسان والديموقراطية، بحراسة قوة عسكرية مرعبة لم يعرف العالم مثيلًا لها.

وتطويرًا لهذه الفكرة وتأكيدًا لها، أصدر مايكل أغناتيف في وقت لاحق كتابًا ذا عنوان لافت هو (الإمبراطورية المخففة) صدر سنة 2003م، دعا فيه إلى ممارسة ما وصفه بالإمبريالية الموقتة أو المخففة، وأن هذا النوع من الإمبريالية حسب رأيه أصبح ضروريًا لإقامة وتحقيق الديموقراطية في الدول التي يشكل عدم استقرارها خطرًا على مصالح الغرب.

وفي سياق آخر وتأكيدًا لانبعاث مفهوم الإمبراطورية، نشر أستاذ المجتمع المدني في جامعة ماريلاند الأمريكية بنجامين باربر كتابًا عنوانه (إمبراطورية الخوف) صدر سنة 2003م، دعا فيه إلى عدم الركون إلى الخوف، والتخلص من الخوف الهائل الذي أحدثته صدمة الحادي عشر من سبتمبر. وحسب رأيه إذا لم نستطع نحن الأمريكيين الخروج من حلقة الخوف، نكون فشلنا لأنفسنا ولبقية العالم، لأن الخوف خيالي وليس حقيقيًا، وهجوم سبتمبر كان قاسيًا علينا، لكن يجب أن نعتبره كما يقول لسعة نحلة لدب عملاق، يصرخ ثم يسرع ويحرك أنيابه وأظفاره.

أما الكتاب الذي أثار جدلًا أكثر من غيره، فهو كتاب (ما بعد الإمبراطورية) للمؤرخ والأنثربولوجي الأمريكي إيمانويل تود، الذي عرف بكتابه (السقوط النهائي) الصادر سنة 1976م، حيث تنبأ فيه بانهيار الشيوعية في الاتحاد السوفياتي.

وفي هذا الكتاب الجديد (ما بعد الإمبراطورية)، يرى تود أن العالم يسير في اتجاه معاكس للاتجاه الذي تسير فيه الولايات المتحدة الأمريكية، وأنها حسب رأيه ستكون هي الخاسرة بسبب حلمها المفرط في إقامة إمبراطوريتها العظمى بعيدًا عن التناغم مع العالم.

- 6 -

تغيير العقول.. أمريكا والعالم العربي

كان لافتًا التقرير الذي أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية مع بداية شهر أكتوبر 2003م، بعنوان (تغيير العقول وربح السلام.. توجه استراتيجي جديد للدبلوماسية العامة للولايات المتحدة في العالمين العربي والإسلامي)، وهو من إعداد هيئة استشارية دعا إلى تشكيلها الكونغرس الأمريكي في صيف 2003م، وأعلن نشاطها في شهر يونيو من العام نفسه، برعاية وتمويل من وزارة الخارجية الأمريكية، وبرئاسة وإشراف السياسي والدبلوماسي المتقاعد إدوارد دجيرجيان، الذي خدم سفيرًا في سوريا وإسرائيل، وفي منصب مساعد لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط، وناطقًا باسم البيت الأبيض، وكان معروفًا بانفتاحه على العالم العربي، وهو الذي اختار أعضاء هذه الهيئة التي ضمت 13 شخصًا أمريكيًا ينتمون إلى عرقيات وديانات وتخصصات متعددة، من بينهم أمريكيون مسلمون أو من أصل عربي.

ومن هؤلاء الأكاديمي شبلي تلحمي، والمحامي جورج سالم، والباحث مأمون فندي، والخبير في شؤون استطلاعات الرأي جون زغبي. وقد قامت هذه الهيئة

بزيارات إلى بعض الدول العربية والإسلامية، واجتمعت بالعديد من الأمريكيين سياسيين ودبلوماسيين وأكاديميين وإعلاميين في داخل أمريكا وخارجها، بالإضافة إلى عرب ومسلمين يصنفون في مجالات مختلفة.

وهذه الهيئة ما هي إلا واحدة من هيئات عديدة شكلت في إثر صدمة الحادي عشر من سبتمبر، التي مثلت أعظم صدمة تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية في تاريخها الحديث، فالخطر الذي ظن الأمريكيون أنه يمكن أن يأتيهم من الخارج جاءهم من الداخل. والخطر الذي توقعوه أو كان في دائرة توقعاتهم خلال فترة الحرب الباردة، وقع في فترة ما بعد الحرب الباردة. والخطر الذي كان يمكن أن يأتي حسب تقديراتهم من جماعات تنتمي إلى الشيوعية بحكم عدائها الأيديولوجي العنيف مع الرأسمالية والغرب الرأسمالي، جاءهم من جماعات تشترك معهم في عداء الشيوعية. والخطر الذي توقعوه أن يأتي من دول جاءهم من جماعات.

كما اكتشف الأمريكيون أن المحيط الأطلسي العظيم لم يعد يحميهم كما ظنوا، ولم تعد القوة النووية وأسلحة الدمار الشامل هي الرادع الوحيد الذي يوفر الأمن والشعور بالأمان. ولم يعد الخوف يأتي من الدول وما تملك من مصادر القوة، فقد أصبح الخوف يأتيهم من جماعات يمكن أن يكون لها من القدرة ما يعادل قدرة الدولة، أو يفوقها في بعض الحالات على غرار ما جرى في كارثة سبتمبر.

لذلك فقد دخلت أمريكا بعد هذه الصدمة بكل نخبها ومؤسساتها وجامعاتها ومعاهدها في أكبر مراجعة نقدية واستشرافية حول ذاتها وكيانها ووجودها، وحول علاقاتها ومركزها ومستقبلها في العالم.

ومن التساؤلات التي طرحت في غمرة هذه المراجعات والمناقشات المكثفة والواسعة، التساؤل الذي أصبح معروفًا ومتداولًا في داخل أمريكا وفي خارجها، وهو لماذا يكرهوننا؟

والدافع إلى طرح هذا السؤال، أن تلك الكارثة كشفت عن مستوى العداء الذي وصل إليه البعض، بحيث يحرضهم على القيام بعمل يكون بحجم ودمار كارثة سبتمبر.

وهذا السؤال هو الذي تخصصت للإجابة عنه تلك الهيئة الاستشارية، ومثل لها محور عملها ونشاطها. والنصف الآخر من السؤال هو كيف تحسن الولايات المتحدة من صورتها في العالمين العربي والإسلامي؟ خصوصًا وأن النتيجة التي وصل إليها التقرير كانت محبطة جدًا، فالعداء لأمريكا وصل إلى مستويات مذهلة، والمطلوب حسب رأي التقرير هو بذل جهود جذرية وجديدة.. وليس فقط تأقلمًا تكتيكيًا، بل الحاجة إلى تحولات استراتيجية وجذرية لمعالجة العداء لأمريكا. على أن يقود الرئيس الأمريكي نفسه هذا التوجه الاستراتيجي بمساعدة من الكونغرس.

وقد اعتبر دجيرجيان في المؤتمر الصحفي الذي عقده

بوزارة الخارجية لإعلان هذا التقرير، أن أمريكا غير حاضرة في معظم الأحيان لشرح قيمها ومصالحها، وتوفير السياق المناسب لفهم مضمون هذه السياسات، وأوضح أن أمريكا تكاد تكون غائبة عن النقاشات الفكرية والسياسية التي تعنيها في العالم العربي.

لهذا يوصي التقرير بتعيين مستشار خاص للرئيس، بمنصب وزير للشؤون الدبلوماسية العامة، يرأس جهازًا صغيرًا لهذا الشأن، تكون وظيفته التنسيق بين الرئيس ومختلف الأجهزة الحكومية المعنية بهذا المجال، وصياغة الأهداف الاستراتيجية، والرسائل الأمريكية للعالمين العربي والإسلامي.

كما دعا التقرير إلى تعليم 300 مسؤول ودبلوماسي أمريكي اللغة العربية مع حلول عام 2008م، وذلك بعد أن لاحظ التقرير أن هناك 54 مسؤولًا أمريكيًا ملمون بالعربية إلى حد ما.

ودعا التقرير أيضًا، إلى إنشاء مؤسسة ثابتة لدراسة المجتمعات العربية والإسلامية، وعلاقاتها مع الولايات المتحدة، من أجل تعزيز الحوار بين الأديان والعلاقات الثقافية. وأوصى كذلك بزيادة المنح الدراسية للطلاب العرب والمسلمين في أمريكا، وزيادة برامج التبادل الثقافي والإعلامي.

وتبقى الحقيقة الثابتة في هذا التقرير، أن الولايات المتحدة الأمريكية بحاجة لأن تعيد النظر في سياساتها

واستراتيجياتها وأنماط تفكيرها في العالم العربي والإسلامي، وأن تتعامل بطريقة تكسب ثقة هذه المجتمعات، ولكن هل لديها هذا الاستعداد، لأن ما نراه على الأرض هو خلاف ذلك.

- 7 -
حين يكون الشرق ساحرًا

في أواخر يناير 2003م، توفيت عميدة الاستشراق الألماني آن ماري شيمل، بعد تاريخ حافل وطويل من العطاء العلمي والنشاط البحثي الدؤوب في الكتابة والترجمة والتدريس، يتجاوز نصف قرن من الاهتمام بحقل الإسلاميات، وفي مجالات متعددة ومختلفة تشمل الفلسفة والدين والتاريخ والأدب والشعر إلى الفن والعمارة والخط، وباللغات الألمانية والإنجليزية والتركية والفارسية والعربية، وأنجزت ما يقارب المئة كتاب بين تأليف وإعداد وترجمة، إلى جانب مئات الدراسات والمحاضرات.

لذلك فهي تعتبر من أهم الباحثات المتميزات اللائي ينتمين إلى الاستشراق في مرحلة القرن العشرين. فهي من جهة تنتمي إلى الاستشراق الألماني الذي عرف بالتجرد والموضوعية بدرجة كبيرة، وذلك لعدم ارتباطه بسياسات توسعية ونزعات تبشيرية. كما عرف بشدة الصرامة والدقة في البحث.

ففي تصديره لكتاب (العربية) للمستشرق الألماني يوهان فوك، يقول أحمد أمين (قد عرف الألمان بدقة

البحث والصبر عليه، والاستطاعة العجيبة في أن يؤلفوا بين أجزائه المتنافرة، وأن يصلوا منه إلى أدق النتائج وأعمقها).

ومن جهة أخرى، تنتمي شيمل إلى ذلك النمط من الاستشراق الذي عشق الشرق وتعلق بعلومه وآدابه وفنونه وروحانيته. فكان الشرق في نظر هؤلاء معرفة وليس سياسة، وعلومًا وليس تبشيرًا، ثراء أدبيًا وليس ثروة مادية، فالخطر كما تقول شيمل يتعاظم عندما نجد المستشرق يمارس أبحاثه العلمية بلا حب حقيقي لمادة تخصصه، لأن الحب وحده هو الذي يمكننا من تعميق نظرتنا وفهمنا للأمور.

ومنذ أن تعرفت شيمل إلى الشرق الإسلامي لم تنقطع عن الاتصال به، والارتباط الروحي والأدبي بتراثه وحضارته وتاريخه. وهذا الاهتمام كما تقول يعود إلى طفولتها المبكرة حيث قرأت الكثير من الكتب عن الشرق الإسلامي. وكانت محظوظة حسب قولها لأنها وجدت معلمًا للغة العربية وهي في سن الخامسة عشرة، وهو الدكتور إلينبرغ المحاضر في جامعة ينا jena، ولم تتعلم منه النحو العربي فحسب، وإنما قرأت عنده الكثير من الكتب عن التاريخ والأدب الإسلامي.

وهذه كانت خلفيتها الأولى عن الثقافة الإسلامية التي تصفها بأنها خلفيات محترمة. وبعد مرحلة الثانوية كان النظام التعليمي الألماني يفرض على الطالبات اللواتي يردن مواصلة التعليم الجامعي، أن تقضي كل طالبة ستة أشهر في الخدمة العامة، تؤدي فيها بعض الأعمال المنزلية والزراعية في إحدى القرى الألمانية.

وهذا الأمر كما تصفه شيمل كان قاسيًا جدًا عليها، ولكن الأصعب منه حسب قولها هو مصادرة المسؤولين الألمان كتابها الخاص في النحو العربي، بحجة أن هذا الشيء لا يليق بفتاة ألمانية أن تشغل نفسها به، ولكن أسرتها بعثت إليها بنسخة أخرى.

ومنذ تلك المعرفة وذلك التعلق بسحر الشرق، لم تنقطع أو تتوقف شيمل عن عطائها واهتمامها الفكري والأدبي واللغوي، حتى عدت واحدة من أبرز علماء اللغة والتاريخ في جيلها، ومن المتخصصين القليلين بشعر جلال الدين الرومي.

وقد عرفت في ألمانيا وفي الغرب عمومًا بدفاعها عن الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية، ومواقفها في هذا الشأن تتصف بالجرأة والفهم والوضوح، وبالحجة والبيان.

ففي بداية التسعينيات من القرن الماضي، ومع تزايد الاقتران في وسائل الإعلام الغربية بين الإسلام والأصولية والإرهاب، وفي مواجهة هذه الحالة اعتبرت شيمل أن من أكبر المصائب كما تقول ميلنا الدائم إلى أن نساوي الإسلام اليوم بما يسمى بالأصولية والإرهاب، وهذا يعود حسب رأيها إلى فهمنا الخاطىء للدين، إلى جانب أن جهلنا بالإسلام يجعلنا نحكم على المظاهر التي تقدمها لنا وسائل الإعلام بشكل صور دامية تسلب منا كل قدرة على الموضوعية. ولكن في المقابل عندما نسمع عن أعمال العنف في البلاد الأوروبية هل نقول هذه هي المسيحية!

وأنه لا يجوز حسب رأيها أن نفهم حضارة بمستوى الحضارة الإسلامية من خلال بعض تقارير الصحفيين الذين لا يعرفون العربية، ولم يتعمقوا في الإسلام، أو من خلال بعض الكتابات السياسية الضيقة التي لا تتناول إلا جانبًا مبتورًا من موضوع شامل.

وكانت أول من انتقد سلمان رشدي، مؤلف كتاب (آيات شيطانية)، وطالبت الغربيين أن يعترفوا على الأقل بأن سلمان رشدي أهان المشاعر الدينية لملايين من المسلمين. ولا شك أن هذا الموقف يعتبر جريئًا في مقاييس الثقافة الأوروبية، وفي حسابات السياسة الأوروبية.

وبدوره انتقدها سلمان رشدي، واعترض على منحها جائزة السلام لجمعية الناشرين الألمان سنة 1995م، وترشيحها لنيل جائزة نوبل من قبل اتحاد الكتاب الألمان.

ومنحها جائزة السلام جاء تقديرًا لمساهماتها الكبيرة والعميقة في إثراء المعرفة بالإسلام، وتصحيح صورته في عقول الغربيين، وفي بناء جسور التواصل بين العالمين الإسلامي والغربي، وتطوير الحوار والتعارف بين الثقافة الإسلامية والثقافة الأوروبية.

وكانت لها وجهات نظر شديدة الأهمية في بعض القضايا الحساسة والملتبسة في الثقافة الأوروبية وأذهان الغربيين عمومًا، ومن هذه القضايا رؤيتها أن الحروب التي وقعت في التاريخ الإسلامي لم تكن حروبًا دينية مثل الحروب الصليبية، بل كانت حروبًا سياسية في المقام

الأول، لهذا فإن الإسلام حسب رأيها لم ينتشر بقوة السيف كما تصور ذلك الكثير من الكتابات الغربية.

وعن نظرتها إلى المرأة، فهي لا تنفي اضطهاد المرأة في الشرق الإسلامي، ولكنها لا تنسب هذا الاضطهاد إلى الإسلام، وإنما إلى العادات والتقاليد البالية والمتخلفة. وترى أيضًا أن لا علاقة للإسلام بتخلف المسلمين، بل إن الإسلام في نظرها هو سبب تقدم المسلمين، لأنه يحث على طلب العلم وإعمال الفكر، إلى غير ذلك من قضايا وظواهر ومسائل إشكالية وجدلية في الثقافة الأوروبية.

لذلك فإننا نتحسس غيابها بإدراك عميق في هذا الوقت أكثر من أي وقت مضى، خصوصًا بعد النكسات الخطيرة التي جرت في العلاقات بين الإسلام والغرب، وما وصلت إليه من انحدار شديد الحساسية بعد أحداث أيلول/ سبتمبر، وما رافقها من تداعيات وتغيرات وتقلبات حادة ومتأزمة.

لقد مثلت شيمل أحد أهم جسور التفاهم والتواصل والترابط بين الثقافتين الإسلامية والأوروبية، وبين العالمين الإسلامي والأوروبي، وهي الجسور التي باتت تتعرض إلى تحديات حرجة جدًا.

كما إنها مثلت صورة لامعة للاستشراق الغربي بصورة عامة، والاستشراق الألماني بصورة خاصة، وهي الصورة التي طالما تعرضت للشكوك والاتهام في عقول المسلمين، لهذا فقد انتقدت شيمل كتاب (الاستشراق) لإدوارد سعيد،

لأنه ساهم إلى حد كبير كما تقول في تصويرنا نحن المستشرقين كمخلوقات خطيرة تقوم بتلطيخ صورة الإسلام عمدًا. لقد استخدم إدوارد سعيد في نظرها مادة علمية وفيرة تخص التاريخ الاستعماري حتى يدعم نظريته، وأنا أتفق معه في نقاط كثيرة، بيد أنه تجاهل الاستشراق الألماني برمته.

ـ 8 ـ

خطاب فرنسي.. مغامرة اللقاء بين الشرق والغرب

الخطاب الذي ألقاه وزير الخارجية الفرنسي الأسبق دومينيك دوفيلبان، في ندوة المجلس المصري للشؤون الخارجية، يوم السبت 12 أبريل 2003م، هذا الخطاب لفت إليه باهتمام أنظار المثقفين والنخب في العالم العربي، كما لفت من قبل خطابه الذي ألقاه في مجلس الأمن، عشية اندلاع الحرب الأمريكية على العراق، أنظار العديد من المثقفين في العالم.

فالخطاب الذي ألقاه في القاهرة كان على درجة عالية من البلاغة والبيان، فقد كتب بلغة راقية وشفافة كشف عن ثقافة عالية، ومعرفة واسعة، وأدمج فيه بين الأدب والتاريخ والفكر والسياسة بطريقة متناسقة ولامعة. وطفحت منه نزعة إنسانية خلاقة مفعمة بالأمل والإحساس بالمسؤولية والشراكة، وعدم الاستسلام للخوف أو الركون إلى العزلة. طاف فيه حول الماضي مذكرًا بلقاء الشرق والغرب تجاورًا وتوارثًا وتصادمًا، عابرًا منه إلى الحاضر، واصلًا فيه إلى استشراف مستقبل جديد.

وقد عكس الوزير الفرنسي في هذا الخطاب موهبته، كشاعر وكاتب يدرك جيدًا عظمة الكلمة وسحر البيان، فهو صاحب أكثر من ديوان في الشعر، وله مقالات حول الشعر والأدب والسياسة، وترجمت بعض قصائده إلى العربية، وصدرت سنة 2003م في كتاب عنوانه (قصائد مختارة) بالفرنسية والعربية، أعدها وترجمها الشاعر المغربي محمد بنيس، صدرت عن بيت الشعر في المغرب.

والفاحص لهذا الخطاب الذي ألقاه دوفيلبان في القاهرة، يكتشف بسهولة أنه ليس خطابًا عاديًا على الإطلاق، ونادرًا ما يصدر عن شخصيات سياسية لا تلتفت في العادة وباهتمام نحو الأبعاد الثقافية والأدبية والتاريخية، أو لا تتقن هذا المستوى من الطرح، وهذه القدرة على البيان. لذلك يمكن القول بأن هذا الخطاب كان مدروسًا ومنسقًا بدرجة عالية من الإعداد والتحضير، ويراد منه أن يكون مشروع رؤية للعالم العربي في مرحلة ما بعد الحرب على العراق، تدفع بتغيرات جوهرية وإصلاحات أساسية في المنطقة، التي ظلت مستعصية على التغيير، وغير قابلة للتناغم والانسجام مع الحداثة والديموقراطية حسب تصور بعض المفكرين الغربيين.

لهذا فقد حاول الوزير الفرنسي أن يبعث الأمل بالتغيير، ويجعل منه أمرًا ممكنًا، وخيارًا صائبًا، ونابعًا ومتكيفًا ومتوافقًا مع تراث وتقاليد وآداب وثقافة هذه المنطقة، سعيًا وتطلعًا نحو نهضة جديدة ومستقبل جديد.

ولترسيخ الامتناع بهذا النهج، حاول الوزير دوفيلبان

أن يذكر العالم العربي بمجده الحضاري وحكمته في التاريخ، وما تدين به أوروبا من إرث علمي وحضاري لعلماء المسلمين، فلولا ابن رشد كما يقول الوزير هل كنا عرفنا أرسطو؟ ولولا كتاب القانون في الطب لابن سينا، ماذا كنا عرفنا عن جالينوس وأبوقراط؟ وهل كان يمكن للعلوم الاجتماعية أن تستغني عن ابن خلدون؟ وعلم الفلك عن البيروني؟ والرياضيات عن الخوارزمي؟ وهذا الإرث يتخطى إلى حد بعيد العلوم والأفكار.

وعن لقاء الشرق والغرب الذي يصفه دوفيلبان بالمغامرة الكبرى، يقول من حلم الأندلس في ظل خلافة قرطبة إلى أساطير شارلمان، ومن قراءة ألف ليلة وليلة لأوروبا المسحورة في عهدها الكلاسيكي، إلى النظرة النقدية لفارسيي مونتيسكيو الذي ذهب يبحث عن ذاته عبر نظرة الآخر، وبمغامرة الشعر العظيمة وأنشودة الحب من ابن الرومي إلى دانتي أو أراغون.

وبعد أن يتتبع مسارات هذا اللقاء بين الشرق والغرب يصل إلى القول: وفي هذا كله أسباب تدفعنا إلى نصب جسور جديدة، ومضاعفة المعابر بين أوروبا والشرق الأوسط، شرط ألا نستسلم للخوف، ففي عالمنا المتميز بالترابط لا يوجد ملاذ ولا عزلة ممكنة، ومستقبلنا جميعًا مرتبط بقدرتنا على العيش والتطور معًا.

هناك شعوب بأكملها والكلام للوزير دوفيلبان تشعر اليوم بأنها مهملة وخارجة عن خفقان العالم، فلنعد نسج

روابط جديدة مع كل الشعوب والثقافات، أريد أن أقابل التعصب وعدم التفهم بيد ممدودة نحو الذين يثقون بالإنسان. لذا فهو يحذر من الاستسلام لما يصطلح عليه بأيديولوجيا الانحطاط، ويرى أن لا خلاص فيها ولا حافز، كثيرًا ما جربنا نحن الأوروبيين حسب قول دوفيلبان هذه الأيديولوجيا وكنا خاسرين، وبعد كل المحن التي عشناها على أرضنا، بتنا نعرف أن طريق الحنين إلى الماضي والانتقام تنغلق على ذاتها، إن عبارة عصر ذهبي أسطوري تعني رفض المستقبل، وكسر العزلة إنما يعني أن نعطي أنفسنا جميع الفرص لتتحكم في أقدارنا.

ولندخل معًا عصرًا جديدًا من تاريخنا، فحينما تتصادم الهويات وتلتقي يمكن أن تكشف عن وجهها السلبي، الذي يتحدد ضد الآخر، لكنها تصبو أيضًا وفي كل مكان إلى الانفتاح ومعرفة رياح التغيير، والتوسع في أفق الحرية والأمل.

وحين يتحدث عن الديموقراطية يجعل منها أمرًا ممكنًا ومفتوحًا للجميع، وليس شأنًا تعجيزيًا ومفروضًا بطريقة فوقية أو استلابية، أو مسندًا بقوة خارجية. فالديموقراطية كما يراها دوفيلبان مفتوحة للجميع مهما كان مستوى التنمية، وأنها تتخطى العالم الغربي، وكل بلد يتقدم وفق وتيرته في إطار احترام تقاليده واختلافاته. وعلى الديموقراطية أن تعزز احترام التنوع، فهل يمكن إملاء طريق الحرية وفرضه من الخارج؟

يقيننا والكلام للوزير الفرنسي هو العكس، فعلى هذه

الحرية أن تتغذى بثقافة الشعوب وتاريخها وتقاليدها وطموحاتها، وحدها قيم حقوق الإنسان والديموقراطية يمكن أن تجمع مجمل الشعوب، وتخلق الوحدة في وجه قوى الانقسام.

كما تضمن الخطاب رسالة ثقة ورسالة وفاء، ومحتوى رسالة الثقة كان شديد الأهمية من جهة الإقرار به والإعلان عنه. وعن هذه الرسالة يقول دوفيلبان: أود أن أحمل إليكم رسالة ثقة، ثقة فرنسا بحكمة الشعوب العربية والإسلامية، وروح المسؤولية لديها، لا يوجد أي تعارض بين الحداثة والعالم العربي، وبين التقدم والإسلام، وفي الوقت الذي يعيش أكثر من مليار مسلم إيمانهم بصفاء، كيف يمكن التصور أن الإسلام هو بحد ذاته مصدر عدم التسامح؟.

لا شك أن الوزير الفرنسي فكر مليًا قبل أن يقرر هذه النتيجة الصعبة التي طالما تحايل عليها الفكر الغربي ورفض الاعتراف بها. وأما عن رسالة الوفاء فيقول دوفيلبان إن خيار فرنسا هو الوفاء، وفاء إزاء الشعوب التي تربطها بها منذ زمن طويل صداقة متبادلة، الوفاء لذاتها ولروح عصر التنوير وحقوق الإنسان.

وما نفهمه من هذا الخطاب، أن فرنسا أدركت أن هناك مناخًا شديد الاضطراب في العالم العربي، فهناك من جهة هواجس قلقة ناشئة من تداعيات ما بعد الحرب ونهاية نظام صدام حسين في العراق، وهناك من جهة أخرى حالة من الغموض في فهم ما يفكر فيه الزعماء الغربيون تجاه

هذه المنطقة في تلك المرحلة الحرجة والحساسة، إلى جانب حالة التردد في هذه الدول من الإقدام على تبني إصلاحات وتحديد نوعية هذه الإصلاحات وحجمها.

ولعل في إدراك الفرنسيين أيضًا أنهم الأكثر قدرة من بين الحكومات الغربية الأخرى على مخاطبة العالم العربي في ذلك الظرف بالذات، مستفيدين من التعاطف والتقدير الرسمي والشعبي تجاه بعض المواقف الفرنسية.

وجاء هذا الخطاب، لكي يسهم في بلورة مشروع رؤية فرنسية لإصلاح العالم العربي وتحديثه، تجنبه الضغوطات الخارجية التي قد يكون مكرهًا عليها، ويكمل من جهة أخرى انفتاحه على العالم. وكأن فرنسا التي نأت بنفسها عن أن تكون طرفًا مشاركًا في الحرب الأمريكية على العراق، أرادت أن تنهض بدور مختلف في مرحلة ما بعد الحرب، وبالشكل الذي يكسبها الثقة والاحترام، وبطريقة تقدم نفسها على أنها راعية لنهج التنوير والوفاء لعصر التنوير كما قال الوزير الفرنسي، والحقيقة التي ينبغي أن تتأكد في العالم العربي، هي أن الإصلاح هو الخيار الصائب.

- 9 -

العالم بدون الإسلام.. مطالعة وتحليل

نشر جراهام فوللر الباحث والخبير في مؤسسة راند الأمريكية، والأستاذ المساعد في كلية التاريخ بجامعة سايمون فريز في فانكوفر، نشر مقالة من نمط المقالات اللافتة والمثيرة للجدل في مجلة (شؤون خارجية) الأمريكية، عدد يناير - فبراير 2008م، عنوانها (العالم بدون الإسلام).

في هذه المقالة حاول فوللر أن يجيب عن تساؤل له طبيعته الحضارية والتاريخية والثقافية والسياسية، كما له علائقه بكل الثقافات والحضارات والمجتمعات في التاريخ الإنساني القديم والوسيط والحديث، وهذا التساؤل هو (ماذا لو لم يوجد الإسلام قط في العالم؟).

ولم يشرح فوللر فيما إذا كان هو صاحب هذا التساؤل، أم أنه تساؤل مطروح ومتداول بين أوساط معينة أمريكية أو أوروبية، سياسية أم فكرية.

ويبدو أن هذا التساؤل جاء من معمعة النقاشات والسجالات المكثفة والساخنة بين الأوساط الأمريكية المختلفة حول الإسلام وعلاقته بالعالم، ومتأثرًا بأحداث

الحادي عشر من سبتمبر، التي فجرت معها انفعالات غاضبة وغير متوازنة، وحرضت على مواقف لا تتسم بالحكمة والعقلانية تجاه الإسلام.

وأمام هذا التساؤل يرى فوللر بالنسبة إلى البعض أنها فكرة جيدة لو لم يوجد الإسلام في العالم قط؟ لأنه حينئذ في نظر هؤلاء لا صدام حضارات، ولا حروب دينية، ولا إرهابيين.

ويعقب فوللر على هذا الرأي بتساؤلات أخرى تضع سؤاله المركزي في إطار محدد يساعد على تكوين الفهم بطبيعة السياقات والأرضيات المحيطة والمتصلة به، فقد تساءل فوللر لو لم يوجد الإسلام فهل كان يمكن للمسيحية أن تبسط هيمنتها على العالم؟ وهل كان الشرق الأوسط واحة ديمقراطية؟ وهل كان يمكن لاعتداءات الحادي عشر من سبتمبر أن لا تقع؟

من هذه التساؤلات نفهم بعض ملابسات السؤال الذي طرحه فوللر، فالسؤال الأول له طبيعته الدينية ويضع الإسلام في إطار العلاقة مع المسيحية، والسؤال الثاني له طبيعته السياسية، ويضع الإسلام في إطار علاقته بالديمقراطية، والسؤال الثالث له طبيعته الدولية، ويضع الإسلام في إطار علاقته مع الدول الأخرى خارج عالم الإسلام.

وهناك إطار آخر لسؤال فوللر له علاقة بتأثيرات شبكات الإعلام في الجمهور والرأي العام، حيث يظهر في

نظر فوللر من السهولة تقبل أن الإسلام وكأنه يقدم لمسة تحليلية فورية وغير معقدة تتيح للغربيين والأمريكيين الإحساس بعالم اليوم المتشنج، فهو في عناوين الأخبار اليومية يبدو وكأنه يقف وراء مجموعة كبيرة من الاضطرابات العالمية، فهناك الهجمات الانتحارية، السيارات المفخخة، الاحتلالات العسكرية، نضالات المقاومة، حوادث الشغب، الفتاوى، الجهاد، أشرطة الفيديو التهديدية، إلى اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر.

واللافت في هذه المقالة الموقف الذي عبر عنه فوللر حيث ظهر مدافعًا عن موقف الإسلام، وناقدًا لموقف الغرب، وظل يشكك ويحاج وجهات نظر الغربيين في هذا الشأن.

ففي مقدمة المقالة اعتبر فوللر أننا لو أزلنا الإسلام من مسيرة التاريخ فإن العالم سيكون اليوم كما هو عليه الآن في صراعاته ونزاعاته وانقساماته، ويرى أن الصراعات الكبرى على السلطة والأراضي والنفوذ والتجارة بين الأمم والمجتمعات وجدت قبل ظهور الإسلام، أو بعيدة عن عالمه، فالإمبراطورية الفارسية العظمى اندفعت حتى وصلت إلى أبواب أثينا قبل الإسلام، وفي القرن الثالث عشر حاول المغول مهاجمة الحضارات وتدميرها في آسيا الوسطى وكثير من مناطق الشرق الأوسط بعيدًا عن عالم الإسلام.

وعندما تساءل فوللر هل كان الانسجام مع الغرب سيسود لو بقي الشرق الأوسط كله مسيحيًا؟ يجيب فوللر أن

الأمر بعيد المنال، وحسب هذا الفرض فإن الشرق الأوسط بدون الإسلام لكانت تهيمن عليه المسيحية الأرثوذكسية الشرقية، وهي كنيسة كانت تاريخيًا ونفسانيًا متشككة إزاء الغرب، وحتى معادية له.

من هنا يظهر أن جراهم فوللر بنى مقالته (العالم بدون الإسلام)، على مجموعة من التساؤلات المثيرة للجدل، ومن هذه التساؤلات: هل كان يمكن للشرق الأوسط أن يعيش مزيدًا من الديمقراطية بدون الإسلام؟

وهذا ما يشكك فيه فوللر مستندًا إلى تاريخ الديكتاتوريات في أوروبا نفسها، فأسبانيا والبرتغال أنهتا الديكتاتوريات القاسية في أواسط سبعينات القرن العشرين، واليونان خرجت منذ عقود قليلة من هيمنة الديكتاتورية المرتبطة بالكنيسة، وروسيا المسيحية ما زالت حتى اليوم غير قادرة على الخروج من شرنقتها، وإلى وقت قريب نسبيًا فإن أمريكا اللاتينية كانت غارقة في الديكتاتوريات التي غالبًا ما كانت تحكم بدعم ومباركة الولايات المتحدة وبشراكة مع الكنيسة الكاثوليكية، كما أن وضع معظم دول أفريقيا المسيحية لم يكن أفضل بكثير.

وقبل أن يختم فوللر مقالته بقي عليه كما يقول أن يتساءل لو لم يوجد الإسلام هل كان العالم سيكون الأكثر سلامًا؟

وفي المنحى نفسه الذي سلكه يرى فوللر أن عالمًا بدون الإسلام سيبقى يشهد معظم الصراعات الدموية المزمنة

التي تهيمن حروبها وبلواها على المشهد الجيوبوليتيكي اليوم، وحتى لو كان من المؤكد أن التاريخ لم يكن ليتبع المسار نفسه الذي سار فيه حتى الآن، ولكن في الجوهر فإن الصراع بين الشرق والغرب سيظل يدور حول القضايا التاريخية والجيوبوليتيكية الأساسية للتاريخ الإنساني، كالإثنية والقومية والسلطة والطبقية وكراهية الغرباء، إلى جانب الطمع والطموحات وغيرهما.

ويؤكد فوللر أن الكوارث المروعة في القرن العشرين جاءت على الخصوص من قبل أنظمة عرفت أنها علمانية متشددة، كليوبولد الثاني ملك بلجيكا في الكونغو، وهتلر، وموسوليني، ولينين، وستالين، وماو، وبول بوت، يضاف إلى ذلك أن الأوروبيين هم الذين أشعلوا حربين عالميتين على بقية العالم، وليس لهما مثيل في التاريخ الإسلامي.

وما يخلص إليه فوللر في الأسطر الأخيرة من مقالته، أنه يتوق البعض في هذه الأيام إلى رؤية عالم بدون الإسلام، يفترض أن تكون فيه مثل تلك المشكلات غير موجودة، مع ذلك فإن النزاعات والعداوات والأزمات لمثل ذلك العالم لن تكون مختلفة كثيرًا عما نراه ونشاهده في العالم اليوم.

ولا أدري ما هو مدى الجدل والنقاش الذي أثارته أو يمكن أن تثيره هذه المقالة في الأوساط الأوروبية والأمريكية، لكنني أظن أن هذه المقالة لو جاءت بغير المنحى الذي كانت عليه، وانتصرت لموقف الغرب

وشككت في موقف الإسلام، لكانت فرصتها أكبر في التداول والاهتمام، ولتحركت الماكينة الإعلامية الضخمة بأقسامها السمعية والبصرية لمساندتها وترويجها ولفت الانتباه إليها، كما جرى من قبل مع مقالة (نهاية التاريخ) لفوكوياما عام 1989م، ولمقالة (صدام الحضارات) لهنتنغتون عام 1993م.

والموقف الذي ظهر عليه فوللر في هذه المقالة ليس طارئًا أو جديدًا عليه، فقد ذكر في مقالة سابقة له منشورة في كتاب (مستقبل الإسلام السياسي.. وجهات نظر أمريكية) المنشور عام 2001م، أنه يكن احترامًا كبيرًا وتقديرًا عاليًا للثقافة الإسلامية، وأنه مهتم على وجه التحديد بقضية العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي، وسبق له أن نشر كتابًا في هذا الشأن، بالتعاون مع زميله في مؤسسة راند هو إيان ليسر الخبير في السياسة الدولية والمتخصص في شؤون البحر المتوسط، حمل الكتاب عنوان (الشعور بالحصار.. جيوبوليتيكية الإسلام والغرب)، صدر عن مؤسسة راند عام 1994م، وبتكليف منها، وكان ثمرة مشروع استكشافي ضمن برنامج الاستراتيجية والعقيدة الذي أعدته مؤسسة راند التابعة لمركز أرويو.

ويعد هذا الكتاب واحدًا من أهم المؤلفات الغربية المعاصرة التي حاولت استكشاف العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي في أبعادها الأساسية، بصورة معتدلة ومتوازنة، وصدرت له ترجمة عربية في القاهرة عن مركز الأهرام للترجمة والنشر عام 1997م، بعنوان مختلف هو (الإسلام

والغرب بين التعاون والمواجهة). ويذكر أيضًا أن واحدة من بنات فوللر قد اعتنقت الإسلام بدون معارضة منه.

لكن ما لم يشر إليه جراهام فوللر في مقالته هو لو لم يوجد الإسلام فهل وصل التمدن الإنساني برمته إلى ما وصل إليه اليوم، بما في ذلك التمدن الغربي نفسه، ويكفي الإشارة هنا إلى نص مهم جدًا نقله محمد إقبال في كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام)، لأحد المؤرخين الأوروبيين وهو يتحدث عن الزمن الذي ظهر فيه الإسلام على مسرح التاريخ، إذ يقول لقد بدا حينئذ أن الحضارة العظيمة التي استغرق بناؤها أربعة آلاف من السنين كانت مشرفة على الزوال، ومن المرجح أن الجنس البشري كان سيعود إلى حالة الهمجية التي كانت في ظلالها كل قبيلة وكل طائفة عدوًا لجارتها، ولا تعرف نظامًا، ولا تتبنى قانونًا، وكانت العقوبات القبلية القديمة قد فقدت سلطانها فأصبحت أساليب الحكم الإمبراطورية القديمة غير صالحة للتطبيق.

ثم جاءت المسيحية بعقوبات جديدة فعملت على الفرقة والدمار بدلًا من الوحدة والنظام. كان عصرًا مفعمًا بالفجائع، وباتت الحضارة أشبه بدوحة هائلة كانت أوراقها قد ظللت العالم، حملت فروعها ثمارًا ذهبية من الفن والعلم والأدب، وقد أخذت الآن ترنح وتمايل لأن ساقها أصبحت لا تتغذى بالعصارة المتدفقة من الإخلاص والإجلال، بل وصل التعفن إلى لبابها، ومزقت الحروب أوصالها، وأصبح لا يمسكها معًا إلا خيوط من عادات وقوانين قديمة قد تنقطع في أية لحظة.

ويستطرد الكاتب فيقول إن العالم بات مفتقرًا إلى ثقافة جديدة تحل محل ثقافة العرش ونظم الوحدة التي كانت تستند إلى قرابة الدم. ثم يقول: ومما يبعث على الدهشة أن تقوم ثقافة كهذه في جزيرة العرب في الوقت نفسه الذي اشتدت فيه الحاجة إليها.

ويعلق إقبال على هذا الرأي أن هذه الظاهرة ليس فيها ما يثير العجب، فالحياة الدنيا ترى بالفطرة ما تحتاج إليه، وتحدد الوجهة التي تتجه إليها في أوقات أزماتها، وهذا هو ما نسميه في لغة الدين الوحي النبوي، ولهذا كان أمرًا طبيعيًا أن يشرق نور الإسلام بين قوم سذج لا يعرفون شيئًا من ثقافات العالم القديم، وتقع بلادهم في رقعة من الأرض تلتقي فيها قارات ثلاث، وتجد الثقافة الجديدة في مبدأ (التوحيد) أساسًا لوحدة العالم كله.

وما يجب الالتفات إليه أن هذه المواقف والتصورات المادحة والمذكرة بأمجاد الماضي، لا ينبغي أن تبعث فينا السكون، وتسلب منا الحركة، وتولد فينا الخمول، وتمتص منا المثابرة.

وهذا ما تنبه إليه في وقت سابق مالك بن نبي الذي ميز موقفه تجاه كتابات المستشرقين الغربيين المادحة للحضارة الإسلامية، بين ما كان عليه في الخامسة عشرة والعشرين من عمره، وبعد أن تجاوز الستين، حيث أنه أكثر من ذي قبل في تقدير موقفه تجاه تلك الكتابات لا في النطاق الشخصي فحسب، بل في النطاق الشامل للمجتمع

الإسلامي، فرأى أن مساوئ ذلك النمط من الكتابات أكثر من حسناته، من جهة آثاره النفسية، موضحًا ذلك بالمثال التالي أننا عندما نتحدث إلى فقير لا يجد ما يسد به الرمق في يومه، عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده، إنما نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه، بوسيلة مخدر يعزل فكره موقتًا وضميره عن الشعور بها، إننا قطعًا لا نشفيه بهذه الطريقة، وكذلك لا نشفي أمراض مجتمع بذكر أمجاد ماضيه.

ويبقى السؤال مفتوحًا أين هو موقعنا اليوم في العالم؟ وهذا ما ينبغي أن تثيره فينا مقالة فوللر.

- 10 -

أمريكا والعالم بعد سبتمبر.. هل تتغير أمريكا بتأثير من العالم؟

منذ أن قررت الولايات المتحدة الأمريكية الانخراط في العالم، حين شاركت في الحرب العالمية الثانية إلى صف الحلفاء الذين كسبوا الحرب لمصلحتهم، وهي تكابد وتكافح في سبيل ترسيخ وتعزيز مكانتها وتفوقها في العالم، وعلى سائر القوى الأخرى الاقتصادية والسياسية والإيديولوجية. فبعد الحرب العالمية الثانية كانت أمريكا هي القوة الجديدة الصاعدة بنشاط كبير في العالم، حيث ورثت مكانة أوروبا العالمية، وبالذات مكانة بريطانيا التي لعبت في وقتها دور الإمبراطورية العظمى.

ولعل هذا الانخراط ساهم في أن يكون العالم بمثابة اكتشاف لأمريكا، تبدد من خلاله مخاوف عزلة العالم عنها، لكونها تقع جغرافيًا على بعد مسافات طويلة تفصل بينها وبين مراكز العالم الأخرى محيطات شديدة التباعد.

الخوف من هذه العزلة، وهذا البعد الشاسع عن العالم حرض أمريكا على الاندفاع وتوثيق الارتباط والاندماج في العالم، وصلت من خلاله إلى مستوى جعلت

من العالم هو الذي ينجذب إليها، ويتصل بها، ويتفاعل معها بصورة حيوية وواسعة.

وحين اختارت أمريكا أن تكون هيئة الأمم المتحدة على أرضها، فكأنها أرادت أن تأتي بالعالم إليها، ولكي تظهر أمام العالم بأنها أصبحت تمثل مركز العالم، ومكان قيادة العالم، بعد أن كانت تخاف من انفصال العالم عنها، أو انفصالها هي عن العالم.

وبذلك الصعود والنهوض والاندفاع أصبحت أمريكا هي الدولة الأكثر حضورًا وتأثيرًا وفاعلية في العالم، وفي مجرياته السياسية والاقتصادية والإعلامية، والأكثر اهتمامًا بالنظر إلى العالم، وكأنها الدولة المخولة دون غيرها هذا الدور.

وتعزز هذا الشعور عند الأمريكيين بعد أن كسبوا الحرب الباردة، وجعلوا أمم العالم تنظر باندهاش كيف يتفكك الاتحاد السوفياتي الذي كان ينازع الأمريكيين على نظام القطبية في العالم، وكيف تتصدع الإيديولوجيا الشيوعية التي أحدثت أعظم شرخ وانقسام في الثقافة الغربية، وكيف تنهار المنظومة الشرقية التي جعلت من أوروبا منقسمة على نفسها، الانقسام الذي جعل من جدار برلين منطقة تماس تفصل بين معسكرين متنازعين في أوروبا والعالم.

وبعد هذا الذي حدث لم يجد الأمريكيون أفضل وأعظم من مقولة نهاية التاريخ في التعبير عن حقيقة ما تملكهم من شعور نفسي تجاه أنفسهم، وتجاه العالم.

وبعد حرب الخليج الثانية اعتبر الأمريكيون أنهم باتوا يمثلون دولة الإمبراطورية التي لها حق الأمر والنهي في العالم، وفي وضع وصياغة النظام العالمي الجديد.

ومع انبعاث العولمة وجد الأمريكيون أنهم أمام فرصة أمركة العالم، إلى أن جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وكأن لعنات العالم حلت على أمريكا، وأخذ الجميع يترقب ويتساءل كيف سوف تؤثر هذه الأحداث في سلوك أمريكا في العالم، السلوك الذي لم يكن يرضي أحدًا على الإطلاق لا في الغرب ولا في الشرق، وكان الجميع ينتظر أن تراجع أمريكا بنفسها ذلك السلوك، الذي يوصف تارة بالأحادية والانفرادية، وتارة بالتعالي والفوقية، وتارة بتجاوز القانون الدولي، وتارة بالاستفزاز والتدخل في شؤون الآخرين إلى غير ذلك. فأمريكا التي ظلت تغير في العالم، أصبحت اليوم هي التي ينبغي أن تتغير، والجميع ينتظر أن تتغير أمريكا، فهل يغيرها العالم!

- 11 -
خطاب أوباما في القاهرة..

هل تخطت أمريكا صدمة الحادي عشر من سبتمبر!

خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما في جامعة القاهرة مطلع شهر يونيو 2009م، سوف يذكره المؤرخون لاحقًا عند الحديث عن تطور العلاقات بين أمريكا والعالم الإسلامي، وذلك لكونه يمثل حدثًا لافتًا في وقته، وفي أبعاده السياسية والثقافية، ولأنه يعبر عن محطة من محطات تطور هذه العلاقات.

وما هو جدير بالإشارة، أنه لأول مرة في تاريخ العلاقات بين أمريكا والعالم الإسلامي، يأتي رئيس أمريكي إلى بلد عربي بقصد أن يوجه خطابًا إلى العالم الإسلامي برمته، جاعلًا هذا الخطاب محور الزيارة وهويتها وموضوعها، وليس تاليًا أو متفرعًا منها، وكاشفًا فيه عن رغبته في التفاهم والمصالحة مع العالم الإسلامي، ومؤكدًا بدرجة عالية من الوضوح أن أمريكا لم تكن في حرب مع الإسلام، ولن تكون في حرب معه مستقبلًا.

وسيكون هذا الخطاب من الوثائق التي يرجع إليها عند الحديث عن تاريخ تطور العلاقات بين هذين العالمين،

وعن المحطات التي مرت بها سياسيًا وثقافيًا، وذلك لأن أوباما أراد أن يقدم خطابًا ليس عاديًا بكل المقاييس من حيث الشكل والمحتوى، وبشكل يلفت إليه الأنظار في العالم الإسلامي، ويستوقف انتباه النخب الفكرية والدينية والإعلامية والسياسية.

ولتحقيق هذه الغاية خضع هذا الخطاب لحوارات موسعة، واستشارات متعددة، شارك فيها خبراء وباحثون وحتى مستشرقون في أمريكا، وفي العالم الإسلامي أيضًا، ليكون خطابًا متقنًا، ومؤثرًا بطريقة غير عادية، ولكي يحدث دويًا بدرجة عالية، بحيث لا ينتهي عند لحظته.

ولعل أهم ما كشف عنه هذا الخطاب، أن أمريكا قد تخطت صدمة الحادي عشر من سبتمبر، الصدمة التي شعرت بها أمريكا ولأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية بالمس بكرامتها، وانجراح كبريائها، وما يمثل لها برجا مركز التجارة العالمي من رمزية لتفوقها وعنفوانها.

ونتيجة هذا الحدث وضعت أمريكا العالم الإسلامي في قوس الأزمة، وارتفعت وتيرة التوتر بين العالمين إلى أعلى درجاتها، وفي مقابل انهيار البرجين أطاحت أمريكا بلدين أعلنت عليهما الحرب وهما العراق وأفغانستان، وقامت باحتلالهما عسكريًا، الوضع الذي عاد بالذاكرة إلى عصور الاحتلال والاستعمار، ونحن على أعتاب نهاية الألفية الثانية.

وانتعشت في هذه الأجواء مقولة صدام الحضارات

المشؤومة والمستفزة بطبعها، والمذكرة بريح الحرب الباردة، لكنها الريح المتجهة هذه المرة نحو العالم الإسلامي، وحدث ما يشبه الحرب الباردة بين أمريكا والعالم الإسلامي، ومرت العلاقات بفترة من التوتر لم تحدث من قبل بهذه الدرجة الملتهبة.

وما كان بإمكان أمريكا إحداث أي تطور إيجابي في تحسين العلاقات مع العالم الإسلامي، بدون تخطي صدمة الحادي عشر من سبتمبر، التي كان من الصعوبة على الرئيس الأمريكي السابق جورج دبيلو بوش تخطيها، في ظل هيمنة ونفوذ اليمين المسيحي المحافظ على إدارته في البيت الأبيض، ومع تبني سياسة إعلان الحرب على الإرهاب، التي كانت ساحتها تكاد تتحدد في العالم الإسلامي، وهو الوضع الذي تغير مع الرئيس أوباما الذي بات مسكونًا بهواجس أخرى عن هواجس سلفه، وفي مقدمتها تحسين صورة أمريكا في العالم.

ومن جانب آخر، كانت أمريكا بحاجة إلى هذا الخطاب، ومن أوباما بشكل خاص، كما إن العالم الإسلامي هو الآخر كان بحاجة إلى هذا الخطاب، ومن أوباما الذي بإمكان العالم الإسلامي أن يصغي إليه أكثر من غيره.

أمريكا بحاجة إلى هذا الخطاب، لأنها كانت بحاجة إلى مراجعة جادة وعميقة لسياساتها واتجاهاتها السياسية في العالم الإسلامي، وذلك بعد أن تدهورت بشكل خطير صورتها ووصلت إلى الحضيض في هذه المنطقة، وفي

العالم أيضًا، نتيجة السياسات التي اتبعتها إدارة بوش على مدى ثماني سنوات متتالية كانت عجافًا بالنسبة إلى أمريكا، وخلفت معها مشاعر من الكراهية لم تظهر عند المسلمين من قبل بهذه الصورة.

والعالم الإسلامي كان بحاجة إلى هذا الخطاب، لأن من مصلحته تجاوز العلاقات المتوترة والمتشنجة مع العالم الغربي عمومًا، لإطاحة مقولة صدام الحضارات، وإخراجها من ساحة العلاقات الدولية.

- 12 -
مفهوم العالم الإسلامي
في دائرة الشك

أثار خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما في جامعة القاهرة ما قبله، وما بعده، نقاشًا جدليًا بين الأمريكيين حول مفهوم العالم الإسلامي، الذي قصد أوباما مخاطبته، وتوجيه دعوة للتفاهم معه.

ويذكر في هذا الصدد أن صحيفة الوشنطن بوست الأمريكية، نصحت أوباما قبل إلقاء خطاب القاهرة، بالتخلي عن استعمال مصطلح العالم الإسلامي في مخاطبة شعوب منطقة الشرق الأوسط، أو مجموعة الدول العربية والإسلامية، مبررة ذلك أن هذه التسمية تتسم بالشمولية، ولا تعبر عن الواقع الذي هو شديد التباين بين المسلمين حاليًا، ومعللة بما جرى لمصطلح العالم المسيحي الذي كان يستخدم قديمًا أيام الإمبراطورية الرومانية وتلاشى فيما بعد، ولم يعد قائمًا اليوم، كذلك هي حال مصطلح العالم الإسلامي الذي كان مستخدمًا في العصور الوسطى، ولم يعد اليوم يمثل كيانًا قائمًا ومستقلًا.

وما تخلص إليه الصحيفة أن الولايات المتحدة

الأمريكية لا يمكن أن تتبنى سياسة متماسكة في علاقتها بمجموعة الدول العربية والإسلامية بوصفها كتلة واحدة، لأن كل دولة لها حالتها الخاصة، فالحديث مع تركيا والعلاقة معها، يختلفان كليًا عن الحديث مع باكستان والعلاقة معها، وهكذا الحال مع مصر وبقية الدول الأخرى، وبالتالي فإن القضايا والمشكلات يجب أن تتم معالجتها من خلال السياسة الخارجية بين الدول، وليس من خلال الحضارات.

ومن خارج أمريكا، وبخلاف هذا الموقف الذي عبرت عنه الواشنطن بوست، جاء موقف وزير الخارجية الفرنسي الأسبق هوبير فيدرين، الذي علم أن بعض مستشاري أوباما أشار عليه بترك مخاطبة العالم الإسلامي بوصفه كتلة ثقافية واحدة، لكنه لم يأخذ بهذه المشورة، وحسنًا فعل أوباما حسب رأي فيدرين، وذلك في نظر فيدرين أن تحذير صمويل هنتنغتون من صدام الحضارات إذا صدق فمحله الوحيد المحتمل هو بين الغرب والإسلام.

ولهذا استحسن فيدرين موقف أوباما في توجيه خطابه إلى العالم الإسلامي، معتبرًا أن خطاب القاهرة كان على جانب كبير من الأهمية.

هذا الموقف شرحه فيدرين في مقالة نشرتها مجلة لونوفيل أوبسرفاتور الفرنسية، بتاريخ 25 يونيو 2009 م، وكان عنوانها (البحث عن أوباما في الشرق الأوسط).

ومثل هذه الشكوك في مفهوم العالم الإسلامي سبق

أن أثيرت في المجال العربي، كالذي ظهر في ندوة عقدت في القاهرة سنة 1991م، بعنوان (العالم الإسلامي والمستقبل)، حيث أشار الدكتور أحمد شوقي الحفني من مصر، في ورقته إلى أن العالم الإسلامي هو عالم اصطلاحي أكثر منه واقعًا ملموسًا، أو نظامًا إقليميًا فاعلًا ومتفاعلًا يمكن إخضاعه للبحث والدراسة كوحدة إقليمية، أو نظام فرعي في داخل النظام الدولي، ويصعب التعميم على الدول التي تدخل تحت مصطلح العالم الإسلامي.

في حين وجد محمود سويد من لبنان، أن أمام مصطلح العالم الإسلامي تتداعى الكثير من التساؤلات، في مقدمتها ما هي الأسس التي تقوم عليها الرابطة الدينية وما هي حدودها؟ وهل تشكل هذه الرابطة وسيلة للتعامل مع معطيات العصر؟ وهل تشكل مدخلًا ملائمًا لولوج القرن الواحد والعشرين بما هو قرن السوبر علوم؟ وهل هناك ثقافة أو حضارة إسلامية واحدة متصلة ومتواصلة في الماضي والحاضر والمستقبل؟ أم أن هناك حضارة عربية نشأت في بيئة عربية، وعبر عنها الإسلام في حقبة زمنية معينة، ثم تحول كل فريق إسلامي إلى حضارته وثقافته وبيئته ومصالحه؟

ومن جهته اعتبر الدكتور أحمد صدقي الدجاني من فلسطين، أن العالم الإسلامي مصطلح حديث العهد استخدمه الكتاب الغربيون للدلالة على بلاد المسلمين الممتدة من المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي غربًا، إلى إقليم سينكيانج في الصين شرقًا، ومن أواسط آسيا

شمالًا إلى أفريقيا المدارية جنوبًا، وقد شاع استخدامه في الأوساط الإسلامية بعد صدور كتاب (حاضر العالم الإسلامي) في العشرينات، الذي تضمن تعليقات الأمير شكيب أرسلان على ما كتب لوثروب ستودارد الأمريكي في كتابه (عالم الإسلام الجديد).

وما ينتهي إليه الدكتور الدجاني أن العالم الإسلامي هو قطاع عرضي من العالم القديم.

والملاحظ على هذه الشكوك في المجال العربي، أنها جاءت متأثرة بالنزعة القومية، المتمسكة بشدة بمفهوم القومية العربية، والمرتكز بشكل أساسي على رابطة اللغة، والمستبعد لرابطة الدين الذي يرتكز عليه مفهوم العالم الإسلامي.

في حين أن لا تعارض أو تنافر بين رابطة اللغة ورابطة الدين، وتبقى رابطة الدين أشد قوة وعمقًا من رابطة اللغة. كما لا تعارض أو تنافر في الرابطة التي تجمع المجموعة العربية وتتجلى اليوم في مؤسسة جامعة الدول العربية، وبين الرابطة التي تجمع المجموعة الإسلامية وتتجلى اليوم في منظمة المؤتمر الإسلامي.

الفصل التاسع

الغرب وسؤال الهوية

ـ 1 ـ
ما هو الغرب؟

هذا السؤال طرحه الكاتب الفرنسي سيرج لاتوش في كتابه (تغريب العالم) الصادر سنة 1989م، وهو سؤال بسيط في ظاهره، لكنه شديد الحساسية في جوهره. ويأتي في سياق الحديث المتعاظم عن نقد التجربة التاريخية والحضارية للغرب وتقويمها، على الصعيدين الداخلي والخارجي.

كما أن هذا السؤال يأتي أيضًا، في سياق الحديث المتجدد عن هوية الغرب، بعد أن تغيرت صورة العالم من جهة، وبعد أن تمدد الغرب في العالم، وتغربت مساحات كبيرة منه من جهة أخرى. أي بعد أضخم عملية منظمة وشاملة قام بها الغرب لما يسميه لاتوش نفسه بتغريب العالم، فلم يعد الغرب يتحدد مكانيًا وجغرافيًا وهو الذي كان يحاول أن يتملك العالم، ويجعل من نفسه قطبًا تدور حوله حركة العالم بطريقة دائرية، ومركزًا يكون العالم تابعًا له، ومحورًا يظل العالم يرجع إليه، ولا يتوقف عن الارتباط به.

ولم يكن هذا السؤال يمثل هاجسًا في السابق قبل

اكتمال أو قبل وصول تجربة الغرب مع ذاته، ومع العالم إلى درجات متقدمة من الاكتمال. وحسب رأي لاتوش فإن هذا السؤال لم يطرح نفسه عندما انقض الصليبيون والفاتحون الأسبان والمستعمرون على العالم، عندما كانت العقيدة تخرج العالم المسيحي عن طوره، وعندما كان اليقين في الاضطلاع بعبء التنوير يدفع الغزاة الإمبراطوريين إلى رسالتهم الحضارية، ولم يكن لدى الغرب أي نزوع إلى الشك في حقه المطلق وحتى واجبه، فقد كان الغرب موجودًا حقًا في ذاته ولذاته، بوصفه عالمًا مسيحيًا في البداية، ثم بوصفه أوروبا التنوير بعد ذلك.

وعندما يطرح هذا السؤال اليوم، فلأنه قد ولى كما يضيف لاتوش زمن الحقائق اليقينية البسيطة وتسلل الشك، وتزعزع اليقين، وأصبح البحث عن تعريف دقيق للغرب يمثل مهمة يعتبرها لاتوش محفوفة بالأخطار، لكنها مع ذلك تعد ضرورية، وأنه ليس من السهل أن نفهم فهمًا كاملًا لا النوع المميز للغرب ولا اختلافه النوعي.

والتعريف الذي يطرحه لاتوش عن الغرب كما تشكل تاريخيًا، ويناقشه لأن صورته قد تغيرت اليوم، وذلك الغرب كان يمكن النظر إليه ضمن كيان جغرافي هو أوروبا، وضمن ديانة هي المسيحية، وضمن فلسفة هي التنوير، وضمن عرق هو العرق الأبيض، وضمن نظام اقتصادي هو الرأسمالية.

هذا عن الأمس أما عن اليوم، فإن الغرب حسب

رأي لاتوش لم يعد غربًا، والرجل الأبيض لم يعد رجلًا أبيض، ولم يعد الغرب أوروبا لا جغرافيا ولا تاريخيًا، ولم يعد يمثل مجموعة منسجمة من المعتقدات التي تشترك فيها جماعة بشرية تجوب الكرة الأرضية.

وجميع هذه الملامح والمكونات قد تغيرت وانقلبت في نظر لاتوش، فهل يمكن اليوم اختزال الغرب إلى كيان عرقي؟ يجيب لاتوش بأن جدال بأن القرن التاسع عشر آمن بتفوق العرق الأبيض، وسوف تصبح مهمة تمدين العالم عبء الرجل الأبيض، هذا عن الأمس، أما عن اليوم، فالنجاح الأكيد لليابان الذي خلص آسيا من أسطورة الرجل الأبيض، يشكل تحديًا رهيبًا لتفوق العرق الأبيض.

وهل يمكن استيعاب الغرب في كيان ديني؟ يجيب لاتوش: لقد ظل تغريب العالم زمانًا طويلًا، ولم يكف تمامًا عن أن يكون تنصيرًا، غير أن العالم المسيحي كيان غير متجانس، والإلحاد المعاصر، أو على الأقل اللامبالاة الدينية، تمنعنا والكلام إلى لاتوش من أن نرى الغرب عالمًا مسيحيًا.

كما أن اختزال الغرب إلى الأيديولوجيا الخالصة للعالمية الإنسانية خادع جدًا. وعن اختزال الغرب في الرأسمالية يقول لاتوش: يبدو حقًا أن الرأسمالية هي على وجه التحديد مظهر من مظاهر الخصوصية للغرب، وليست طبيعته الجوهرية.

فما هو الغرب إذن؟ يرى لاتوش أن الغرب قد تحول

إلى وحدة تركيبية من تلك التجليات المتباينة، وأصبح كيانًا ثقافيًا وظاهرة حضارية.

وهناك من يرى أن اختيار وصف الغرب جاء بقصد أن لا يكون للدين أي دور مركزي في الحضارة الأوروبية، ويذهب إلى هذا الرأي الأكاديمي جيمس كورت، الذي يرى أن مصطلح الحضارة الغربية لم يظهر إلا في القرن العشرين، وهو مصطلح يتضمن إدراك أن هذه الحضارة على عكس غيرها من الحضارات لا تضع الدين في مكانة مركزية، وأنها الحضارة الوحيدة غير الدينية، وهذا هو الفرق الجذري كما يعتقد كورت بين الغرب وغيره من الحضارات.

وفي وقت سابق، أشار روجيه غارودي المعروف بنزعته النقدية، إلى أنه من الوهم اعتبار الغرب هو بداية مطلقة، وأنه انبجس كنبتة نمتنع عن تعقب جذورها، منعزلة ووحيدة كنوع من معجزة تاريخية، ذلك هو إضفاء قناع على الجوهر.

ويرى غارودي أن ما اصطلح على تسميته بالغرب قد ولد في الهلال الخصيب وفي مصر، أي في آسيا وأفريقيا، إذا نحن امتنعنا عن اعتبار الغرب كيانًا جغرافيًا، ونظرنا إليه كحالة فكرية موجهة إلى السيطرة على الطبيعة والناس.

والحقيقة أن التغير الجذري والجوهري لمفهوم الغرب لن يتحقق إلا حينما يقرر الغرب أن لا يحتكر الحضارة لنفسه!

- 2 -
هل انتهى مفهوم الغرب؟

ظلت أوروبا تطور رؤيتها لذاتها، وذلك منذ أن تعرفت إلى نفسها بعد الحروب الصليبية، ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين. فمن أوروبا المسيحية إلى أوروبا عصر النهضة والتنوير، إلى مفهوم الحضارة الأوروبية، حتى وصلت إلى مفهوم الغرب الذي وحد بين أوروبا العالم القديم وأمريكا العالم الجديد، على أساس الاشتراك في القيم الثقافية والاجتماعية، وفي المصالح السياسية والاستراتيجية، وفي الرؤية إلى العالم بصورة عامة.

الاشتراك في القيم الثقافية والاجتماعية كان يعكس النظرة إلى الذات بشكل أساسي، والاشتراك في المصالح السياسية والاستراتيجية كان يعكس النظرة إلى الآخر بشكل أساسي، والرؤية إلى العالم هي حصيلة الاشتراك في النظرتين إلى الذات والآخر.

وهذا يعني أن مفهوم الغرب يمثل من جهة نظرة إلى الذات، ومن جهة أخرى نظرة إلى الآخر، كما يعبر هذا المفهوم أيضًا عن طبيعة المكونات الثقافية والاجتماعية من

جهة، وطبيعة المكونات السياسية والاقتصادية من جهة أخرى، وهي المكونات التي ساهمت في بلورة وتشكيل مفهوم الغرب، الذي يراد منه التعبير عن العالم المتقدم والمنتمي إلى تيار الحداثة، ومن هذه الجهة ضمت اليابان إلى مفهوم الغرب، لأنها تنتمي إلى العالم المتقدم وإلى تيار الحداثة.

والتطور الجديد أن هذا المفهوم أخذ يتعرض في الغرب لمناقشات ومراجعات تحاول إعادة النظر فيه، والتشكيك في حقيقة وجوده. وفي هذا الشأن ظهرت كتابات تلفت النظر إلى مقولة نهاية مفهوم الغرب، ففي بداية سنة 2004م تحدث الدكتور روبرت يانج أستاذ النظريات الثقافية ودراسات ما بعد الاستعمار بجامعة أكسفورد البريطانية، عن هذه القضية في محاضرة ألقاها في المجلس الأعلى المصري للثقافة بعنوان (إعادة قراءة الغرب)، حيث اعتبر أن الغرب بمعناه الحديث اختراع حديث جدًا، وقد انتهى هذا المفهوم حسب رأيه عندما أطلق جورج بوش إعلانه الشهير كما يصفه بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، إما معنا وإما علينا، فضمير المتكلم يعود إلى الولايات المتحدة.

ومع استبدال التعددية الثقافية بالنظام الواحد، تحول الغرب إلى أمريكا، ومع غزو أفغانستان واحتلال العراق، تم إلغاء السيادة التامة للدول القومية، كما تم إلغاء معاهدة جنيف وبعض اتفاقيات حقوق الإنسان، وبذلك حلت الولايات المتحدة محل الغرب.

وختم يانج محاضرته بقوله: إن مفهوم الغرب بالمعنى الذي كان دارجًا في القرن العشرين قد انتهى، ولم يعد هناك غرب، وإنما هناك استثناء أمريكي.

وفي إثر الجدل الأوروبي والأمريكي حول العراق قبل الحرب وبعدها، تساءل الكاتب الأمريكي توماس فريدمان في مقالة له نشرتها صحيفة الشرق الأوسط بعنوان (نهاية الغرب.. أو بوابة الهوة بين 1989و2001)، تساءل: هل يمثل ما تشهده أوروبا وأمريكا نهاية الغرب؟ ووجد أنه ليس هو الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة، وأشار في هذا الشأن إلى كلام سمعه كما يقول من كارل بيلدت رئيس الوزراء السويدي الأسبق، جاء فيه أن الأمريكيين والأوروبيين كان لهم ولجيل كامل تاريخ واحد هو1945م، وقد نشأ تحالف عبر الأطلسي بعد الحرب العالمية الثانية، على أساس الالتزام المشترك بالحكم الديموقراطي والأسواق الحرة وردع الاتحاد السوفياتي.

هذا التحالف جعل حل جميع المشاكل مسألة ليست ضرورية فحسب، بل ممكنة أيضًا. أما الآن فنحن تحركنا تواريخ مختلفة، فاللحظة الحاسمة في التاريخ بالنسبة إلى أوروبا هي 1989م، وبالنسبة إلى أمريكا هي 2001م.

ويختم فريدمان كلامه بالدعوة إلى قيام تحالف أطلسي جديد، لا يقوم على الحنين إلى عام1945م، وإنما لردم الهوة بين عام 1989م و2001م.

وتتصل بهذا الموضوع معظم المناقشات والكتابات

المتعاظمة والسجالية أحيانًا، التي تناقش تغير العلاقات بين أوروبا وأمريكا، ولعل أكثر كتاب أثار جدلًا وسجالًا حول هذه القضية، هو كتاب السياسي الأمريكي روبرت كاغان، الذي يحمل عنوان (الفردوس والقوة.. أمريكا وأوروبا في النظام الدولي الجديد) الصادر سنة 2003م.

والفكرة الأساسية التي ينطلق منها كاغان، هي الكف عن الاعتقاد أن الأوروبيين والأمريكيين لا يزالون يتبنون الرؤيا ذاتها للعالم، وأنهم لا يزالون يعيشون على الكوكب نفسه، بل إن الخلاف بين الطرفين بات عميقًا، خصوصًا حول مسألة القوة وشرعية استخدامها في العلاقات الدولية.

أما النظرية التي يدور حولها الكتاب، فهي أن وحدة الغرب بين الأوروبيين والأمريكيين باتت تتعرض إلى التهشم والانقسام، ولم يعد الغرب ذلك المفهوم الذي يمثل كينونة مشتركة بين ضفتي الأطلسي، بعد أن تعرض للتصدع. وهذا ما حاول كاغان التحذير منه، ومن استنفاد مفهوم الغرب السياسي لضرورات جوده.

وعلى الضفة الأخرى، اعتبر الكاتب الفرنسي جاك جوليار أن ما يجري من توتر في العلاقات بين أوروبا وأمريكا هو انفصام في الحضارة، وهذا الوصف جاء عنوانًا لكتاب أصدره جوليار في هذا الشأن سنة 2003م، تساءل فيه هل الحضارة الغربية باتت على وشك الانفصام؟.

ويكشف هذا الوصف عن شدة وعمق الشرخ الذي حدث بين ضفتي الأطلسي، ومستوى التباعد بينهما. وكيف

أن هذا الشرخ لم يعد سهلًا أو بسيطًا، ولم يعد ينحصر أو يتحدد في مجرد خلافات سياسية عابرة أو سطحية، وإنما بات ينظر إليه على أنه شرخ معقد ومركب، ويكاد يشمل العديد من المجالات، وتظهر خطورته في أنه سيؤثر في هوية وبناء الحضارة الغربية برمتها.

لهذا فإن الغرب في القرن الواحد والعشرين، لن يكون هو الغرب في القرن العشرين، وهذا سيكون من أبرز ملامح التغير السياسي في القرن الجديد.

- 3 -

هل يحتاج الغرب إلى هوية؟

ذكر صمويل هنتنغتون في كتابه (صدام الحضارات)، أن في منتصف التسعينيات من القرن العشرين، ظهرت مناقشات جديدة حول طبيعة الغرب ومستقبله، وأخذ الأمريكيون يناقشون طبيعة هويتهم، وهل هم غربيون أم هم غير ذلك؟ وهل تتخلى الولايات المتحدة الأمريكية عن غربيتها؟ وهل رفض العقيدة والحضارة الغربية يعني نهاية الولايات المتحدة؟ أو أن مصير الحضارة الغربية معلق بمصير الولايات المتحدة؟.

لا شك أن هذه من أخطر التساؤلات التي طرحها الغرب على نفسه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد دخلت هذه التساؤلات في مجال التداول الفكري والسياسي هناك، وحرضت على نقاشات ثقافية شديدة الحساسية. فلم تكن هذه التساؤلات من نوع التساؤلات الساذجة، أو التي تفتقر إلى الدهشة. كما لم تكن من التساؤلات التي تظل في الهامش ولا تحرك ساكنًا، فقد تحولت إلى تساؤلات لاستشراف مستقبل الغرب ومصير الحضارة الغربية.

ومن طبيعة هذه التساؤلات حين تطرح، أن أجلها لا

يكون قصيرًا، وإنما تظل مفتوحة، ومن الصعب أن تكون الإجابات عنها حاسمة ونهائية. خصوصًا في الغرب المفعم بالنقاشات النقدية، ومع انبعاث تيار ما بعد الحداثة، ارتفعت وتيرة هذه النقاشات النقدية والسجالية وحدتها.

وغياب التهديد السوفياتي وانهيار معقله ومعسكره الشرقي، وتصدع عقيدته وأيديولوجيته الماركسية، كان باعثًا على طرح هذا النمط من التساؤلات. فقد عكس غياب هذا التهديد كما يقول هنتنغتون القلق حيال مستقبل وحدة الغرب، كما أن مقولة الفيلسوف الياباني تاسكيشي أوموهارا كانت ماثلة أمام الغرب، وحاضرة في ذلك النقاش. وفي هذا السياق استشهد بها هنتنغتون، حيث اعتبر أوموهارا أن انهيار الاتحاد السوفياتي هو النذير الوحيد فقط لانهيار الليبرالية الغربية، فالليبرالية ستكون التالية في السقوط.

يضاف إلى هذه البواعث، مخاوف البعض من أن الغرب إذا تلفت باحثًا عن بديل يقف إزاءه ولم يجده، ضعف إحساسه بالهوية التي يمكن أن ينتهي إليها.

وقد سبق لروزا لوكسمبرغ كما يذكر تيري إيجلتون أن تصورت الإمبريالية وهي تمتد إلى الحد الذي لا يعود فيها مناطق تفتحها، فتبدأ بالانفجار بذاتها. وهذا ما يفسر ظهور مقولات من نمط البحث عن عدو جديد، وصدام الحضارات، والشرق في مواجهة الغرب إلى غير ذلك.

ولعل المكوّن الفكري والتاريخي لهذا الإحساس هو

أن الغرب محكوم بذهنية الصدام والنزاع والتسابق والتنافس. وهذا ما عبرت عنه بعض الفلسفات الكبرى التي تأثر منها الغرب بصورة عميقة، ومن هذه الفلسفات صراع البقاء عند دارون، وقانون التناقض عند هيغل، والصراع الطبقي عند ماركس، ونظرية القوة عند نيتشه، وغيرها أيضًا.

وأمام سؤال الهوية، هل يحتاج الغرب إلى هوية خاصة به؟ أم أنه وصل إلى مرحلة ما بعد الهوية، بحيث لم تعد هذه الهوية تمثل ضرورة، ولا تبعث على قلق، وأنه قد تجاوز تلك المرحلة التي يجعل نفسه مؤطرًا في هوية، هو أكبر من أن يضيق نفسه فيها، ولم يعد بحاجة إليها، فقد أصبح العالم كله تحت تأثيراته وتموجاته، وهو الذي يؤثر في العالم ولا يتأثر به!

ومن الإجابات المثيرة للجدل في هذا الشأن، ما طرحه الكاتب والناقد الإيرلندي تيري إيجلتون، في كتابه (فكرة الثقافة) الصادر سنة 2000م، حيث أراد أن يطمئن الغرب إلى ذاته، وإلى مصير حضارته ومستقبله في العالم، وأن لا خشية على هذه الهوية حسب رأيه في داخل الغرب ومحيطه، وهكذا في إطار علاقته بالعالم. وذلك من جهتين، من جهة أنه لا يحتاج إلى مثل هذه الهوية، ومن جهة أن لا خشية على هذه الهوية.

فعن الجهة الأولى يقول إيجلتون: فالغرب ليس له هوية مميزة خاصة به، لأنه لا يحتاج إلى مثل هذه الهوية. ويبرر ذلك بقوله: فمن جماليات أن تكون حاكمًا ألا تحتاج

لأن تقلق حيال هويتك، وأن تعتقد ولو بصورة خادعة أو مضللة، أنك تعرف مسبقًا من أنت.

ذلك أن الثقافات الأخرى والكلام لإيجلتون، هي المختلفة، في حين أن شكلك الحياتي هو المقياس الذي نادرًا ما يمثل ثقافة أيما ثقافة، فهو بالأحرى ذلك المعيار الذي يظهر الأشكال الحياتية الأخرى على أنها ثقافات بعينها، بكل فرادتها الساحرة أو المهددة.

وأما من جهة تبرير عدم الخشية على هذه الهوية فيقول إيجلتون: أن لا حاجة لدى الغرب لأن يخشى على هويته بعد الآن، ذلك أن كوننة ثقافته الخاصة تنطوي على الدفاع عن هذه الهوية إزاء الخارجين البرابرة، فضلًا عن انطوائها على تحطيم أنظمة الحكم التي تجرؤ على تحدي سيطرتها.

والثقافة الغربية كما يضيف إيجلتون كونية بالقوة أو بالإمكان، الأمر الذي يعني أنها لا تضع قيمها قبالة قيم الآخرين أو تعارضها معها، بل تكتفي بأن تذكرهم بأن قيمهم الخاصة هي قيمهم أيضًا في جوهر الأمر.

والحقيقة أن هذا لا ينفي الخشية بقدر ما يؤكدها، لأن الغرب بدأ يتغير بالنسبة إلى ذاته من جهة، ولأن العالم بدأ يتغير بالنسبة إلى الغرب من جهة أخرى.

ـ 4 ـ

هل هناك أزمة هوية في أوروبا؟

على غلاف عددها الصادر في 4 مايو 2004م، نشرت مجلة نيوزويك العربية عنوانًا لافتًا جدًا وسجاليًا في الوقت نفسه، حول نهاية أوروبا، وذلك على خلفية توسع أوروبا نحو شرقها وانضمام عشر دول جديدة دفعة واحدة إلى اتحادها وتكتلها.

الحدث الذي فتح نقاشات واسعة داخل أوروبا نفسها، وعلى مستوى الغرب بصورة عامة، حول هوية أوروبا ومستقبلها، وهوية الغرب ومستقبله أيضًا.

ومن طبيعة هذا النمط من النقاشات أن تتعدد فيه وجهات النظر وتتباين كذلك، والغربيون يشجعون على هذه النقاشات ويحرضون عليها، ويؤكدون دائمًا على أهميتها وقيمتها، وضرورة الاستماع والإصغاء إليها. فالفكر الغربي ظل يجدد نفسه بالنقد والفكر النقدي، وهو يفتش عن النقد دائمًا خوفًا وحذرًا من السكون والجمود، وهكذا هي الحال مع المجتمعات الغربية التي تجعل من النقد حافزًا على الحركة والتجدد.

وقد اعتبر مايكل ماير الذي كتب موضوع (نهاية

أوروبا)، أن كل بداية هي نهاية لشيء آخر، وحقبة التوسع الأوروبي الجديد لن تكون استثناء. وحدد ماير ثلاثة أبعاد لمفهوم نهاية أوروبا، وأن بعض هذه النهايات حسب رأيه ستبقى زمنًا أطول.

وهذه الأبعاد هي، أولًا اعتبار أن نهاية أوروبا على أنها الغرب، وأشار في هذا الشأن إلى مقولة جان ماري كولومباني مدير جريدة لوموند الفرنسية التي يقول فيها (إذا أردت أن تقرأ مستقبل أوروبا فانظر إلى الشرق)، ويرى كولومباني أن مركز ثقل القارة القديمة سينتقل إلى الشرق.

النهاية الثانية هي نهاية أمريكا في أوروبا، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية كما يقول مايكل ماير، كانت الولايات المتحدة قوة أوروبا حيث أوجدت حلف الناتو، وغرست بذور الاندماج الأوروبي بجعلها خطة مارشال للمساعدة متوقفة عليها، وكانت الضامنة لأمن الحرب الباردة، لكنها تغيرت مصالحها فيما بعد. ويستشهد بكلام لمؤلف كتاب (إغراءات دولة عظمى) رونالد ستيل الذي يقول: (إن مصالح الولايات المتحدة الاستراتيجية انتقلت منذ زمن طويل إلى الشرق الأوسط وآسيا)، ويعقب ماير على ذلك بقوله: إذا كانت أمريكا حاضرة أثناء إنشاء نظام أوروبا بعد الحرب، فإنها الآن تقول وداعًا لزواله.

والنهاية الثالثة هي نهاية اتحاد وثيق، فأوروبا التي حافظت على هذا القدر الوثيق من التماسك، وبنت هياكلها ومؤسساتها الاتحادية، فهل ستحافظ على اتحاد

وثيق بعد هذا التوسع الكبير، هناك من يواجه هذا الموقف بمنطق الشك.

والحقيقة أن أوروبا بهذه الخطوات والمسلكيات، تقدم إلى العالم تجربة متقدمة في الاتحاد والتكامل بين دول ومجتمعات متعددة اللغات والقوميات، وبينها ذاكرة مؤلمة من الصدامات والحروب، وكيف أنها تغلبت على كل المعوقات القديمة والقائمة والمفترضة من خلال فكرة وعجلة التقدم. فالمجتمعات التي تتقدم وتتمدن هي المجتمعات التي بإمكانها أن تتحد وتتكامل، لأن التقدم هو الذي يصنع المشتركات والجوامع، ويضمن الحقوق والمصالح، ويخلق روح الاتحاد والتكامل، ويهذب طرائق التعامل مع الخلافات والنزاعات.

وهذا التوسع والامتداد نحو الشرق الأوروبي يأتي في سياق احتواء هذه الدول والمجتمعات، وإدماجها، وتحريك عجلة التقدم فيها، والارتقاء بها لكي تكون في مستوى متكافئ مع دول ومجتمعات أوروبا الغربية، لأنها جزء من مصير ومستقبل كامل أوروبا، لذلك يمكن القول إن ما يجري في أوروبا هو نهاية وميلاد معًا.

وقد طرح هذا التوسع تساؤلات فيما إذا كان هذا الحدث سيغير من هوية أوروبا، ويكون إيذانًا بنهاية أوروبا القديمة، واستحوذت هذه القضية على أوسع النقاشات هناك، كما فتحت الحديث عن هوية أوروبا الجديدة، ومستقبل دولة الرفاهية في أوروبا.

وارتبط الحديث عن الهوية هناك بتأثير عاملين،

العامل الأول: إمكانية تزايد الهجرة البشرية القانونية وغير القانونية إلى دول الاتحاد الأوروبي، وتأثيرات هذه الهجرة في الطبيعة الديموغرافية والثقافية الأوروبية.

والعامل الثاني يتعلق بتزايد التنوع العرقي والثقافي مع انضمام هذه الدول الجديدة، ومدى إمكانية استيعاب هذا التنوع، وتأثيراته في تماسك النسيج الاجتماعي، ونظام التكافل الاجتماعي والرفاه الاقتصادي.

حول العامل الأول ظهرت نقاشات تلفت النظر إلى العامل الإسلامي، في محاولة للتهويل منه، وكونه يمثل مشكلة ومصدر قلق. فحين تسأل توني جدت مدير معهد ريمارك في جامعة نيويورك: إذا كانت هذه هي نهاية أوروبا القديمة فما البداية الآن؟.

ويرى هو وكثيرون سواه كما يقول مايكل ماير صاحب مقالة (نهاية أوروبا)، أن مستقبل أوروبا سيتمثل في تدبر تنوعها المتزايد، ذلك أن الهجرة المتزايدة حسب قول توني جدت، خصوصًا الإسلامية ستغير تغيرًا كبيرًا المشهد العرقي والثقافي الأوروبي، وستهدم الديموغرافيات المتغيرة وضع أوروبا التقليدي كدولة رعاية اجتماعية.

وتصل درجة التهويل عنده إلى أعلى درجاتها خطورة حين يربط هذه الهجرة المتزايدة على حد وصفه بمفهوم صدام الحضارات، حيث يرى أنه سيكون عصرًا من الشقاق وصدام الحضارات ضمن دول ومجتمعات لم تعد تحدث بصورة كبيرة فيما بينها.

ويرى كاتب آخر هو سترايكر ماكغواير، أن الهجرة سوف تعيد صياغة أوروبا، ومصدر القلق في ذلك حسب رأيه، أن الحجم الكبير للقطاع السكاني الأوروبي من غير المسيحيين، هو الأسرع نموًا من بين جميع القطاعات على مستوى القارة، ويمثل على ذلك بالوجود الإسلامي، ففي هولندا كما يقول حسب بعض التقديرات، سيشكل طلبة المدارس من المسلمين الأغلبية عام 2050م.

وإذا كان الاهتمام بهذا العامل يتركز على الأبعاد الثقافية والاجتماعية، فإن الاهتمام بالعامل الثاني يتركز على الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية.

فقد تساءل ماكغواير: هل ستؤدي الهجرة الجماعية إلى تقويض دولة الرفاهية في أوروبا؟ وهل ستكون أوروبا المستقبل مثل السويد أم مثل أمريكا؟ وهل سيحل التنوع الاجتماعي مكان التكافل الاجتماعي؟ وهل سيقدر لدولة الرفاهية الأوروبية أن تعيش بعد ذلك؟

ووجهة نظره في هذا الشأن هي أن الهجرة تجلب حالة من التنوع السكاني، الذي يؤدي بدوره إلى القضاء على الحس الجمعي بالقيم المشتركة، ويستشهد بمقالة نشرها ديفيد غود هارت من اليسار البريطاني، في مجلة بروسبيكت، عدد فبراير2004م، وكان عنوانها (أهو تنوع يزيد على الحد؟) حيث اعتبر أن التنوع والرفاهية الاجتماعية لا يلتقيان.

وفحوى نظريته كما شرحها ماكغواير أن دولة الرفاهية

الأوروبية قائمة على التجانس، والناس المتشابهون أقدر على التنازل بعضهم لبعض، مثل دفع الضرائب، واهتمام بعضهم ببعض. ويرى أن التنوع من شأنه تقويض هذا العقد الاجتماعي كما جرى في أمريكا.

وحين يريد أن يكون صريحًا حسب قوله: فإن معظمنا يفضل الناس ممن هم على شاكلته، ونتشارك في ثروتنا عندما يقع أناس مثلنا في المصاعب ويحتاجون إلى المساعدة. ويتمم كلامه بالقول: ونحن قلقون من المهاجرين، أو أشخاص آخرين ممن لا يشاركوننا في هذه القيم.

ويختم ماكغواير مقالته التي نشرها في النيوزويك العربية بتاريخ 4 مايو 2004م، بقوله: إن مستقبل أوروبا هو عبارة عن تجربة اجتماعية ضخمة لا يمكن إعادتها إلى الوراء، وعلى أوروبا أن تتعامل مع الأمر بطريقة صحيحة.

هذه هواجس ومخاوف لن ينقطع الحديث عنها، لكن خيار الوحدة والتكامل أكثر قيمة وضرورة عند النظر إلى المستقبل.

ـ 5 ـ
قبرص.. ومشكلة انقسام الهوية

قطار الوحدة الذي كان يتحرك بسرعة في أوروبا لضم مجموعة كبيرة من دول القارة إلى دول الاتحاد الأوروبي، لماذا لم يصل إلى جزيرة قبرص الصغيرة والمقسمة لأسباب عرقية وثقافية.

ومنطق الوحدة الذي كان يهيمن على العقل الأوروبي لماذا لم يسر إلى أجزائه كافة ليصل إلى قبرص التي فشلت مع خيار الوحدة.

ولعل هذا الفشل كان مرغوبًا فيه هذه المرة، ليس على مستوى قبرص اليونانية فحسب، وإنما على مستوى أوروبا أيضًا.

ويمكن القول إن تجربة قبرص مع الاستفتاء الأخير، حول خطة الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة كوفي أنان لإعادة توحيد الجزيرة، وضعت علاقات الإسلام والغرب على المحك. والملاحظ بصورة عامة أن هذه العلاقات كلما وضعت على محك الاختبار كانت تزداد تعقيدًا، ويشوبها القلق والتوجس، وهذا ما تشير إليه وتؤكده العديد من الوقائع الفعلية.

ولا شك أن فشل إعادة توحيد الجزيرة له صلة بطبيعة الأبعاد الدينية والثقافية المتباينة بين شطريها، الشمالي الذي يرجع إلى أصول إسلامية تركية، والجنوبي الذي يرجع إلى أصول مسيحية يونانية. وهذا الذي يفسر أن قطار الوحدة الذي انطلق بسرعة في أوروبا لم يصل إلى قبرص، لأنه لا يراد له أن يصل.

ولو أردنا أن نتعامل مع الحدث بمنطق المعادلات، لكننا نقف أمام معادلة محيرة بعض الشيء، قد يصعب تفسيرها مع شدة وضوحها. فالأمة التي تفشل أو لا ترغب في توحيد نفسها، كيف تقدم وتبادر إلى الوحدة مع غيرها! وكيف يتقبل الآخرون الاتحاد مع أمة فشلت أو لم تكن راغبة في توحيد نفسها!

والمعادلة الموضوعية المفترضة في هذا الشأن، أن الأمة التي فشلت في الوحدة مع ذاتها، لا يمكن لها أن تقدم للوحدة مع غيرها، لأن لا حوافز ولا مبررات، ولا حتى أرضيات يفترض أن تدفع إلى هذا الخيار من الوحدة. ولو أقدمت على هذه الخطوة فإن فشلها سيكون حتميًا. أو أنها لا يمكن أن تقبل من الآخرين التوحد معها ما دامت لم تستطع التوحد مع ذاتها.

لكن المعادلة اختلفت هذه المرة، ومنطق المعادلات انقلب على ذاته، فالأمة التي فشلت في إعادة توحيد نفسها، دخلت في مشروع وحدة مع مجموعة كبيرة من الأمم، وهذه الأمم قبلت الوحدة مع أمة تعلم أنها رفضت

خيار التوحد مع نفسها، وتوحدت مع شطر منها، دون الشطر الآخر الذي يمثل ثلث المساحة.

لذلك فإن منطق التفسير ينبغي أن يختلف مع هذه الحالة، فالقبارصة اليونانيون كانوا يعلمون سلفًا قبولهم في الاتحاد الأوروبي، بغض النظر عن نتيجة الاستفتاء.

ولعلهم كانوا يعلمون أيضًا أن الأوروبيين لا يحبذون هذه الوحدة مع الشطر الإسلامي، لذلك لم يشترطوها، ولم يمارسوا ضغطًا في قبولها، ولو كانوا يحبذونها لاشترطوها، وهذا الذي لم يتم، لأن الأوروبيين أرادوا الوحدة فقط مع قبرص المسيحية، وليس قبرص بشطريها المسيحي والإسلامي.

وذلك لكي يبقى الاتحاد الأوروبي ناديًا خاصًا للمسيحيين، ولكي لا تتأثر الهوية الأوروبية أو تتعرض لضعف أو تغيير، وحتى لا يتنامى ويتضاعف الوجود الإسلامي هناك، وتتزايد هجرتهم إلى دول الاتحاد الأوروبي. وهذه القضايا أخذت تشغل اهتمام الأوروبيين في الآونة الأخيرة، وتبعث على قلقهم.

لكن الحقيقة المهمة في هذا الشأن، هي أن أوروبا ما زالت تعاني أزمة ثقافية وتاريخية في علاقتها بالإسلام.

ـ 6 ـ
تركيا وأوروبا.. ومشكلة ازدواج الهوية

تركيا وأوروبا مظهران من مظاهر التعارض بين الثقافة والدين، الثقافة التي تشكل منظور تركيا إلى أوروبا، وتجعل تركيا منسجمة مع أوروبا. والدين الذي يشكل منظور أوروبا إلى تركيا، ويجعل أوروبا غير منسجمة مع تركيا.

وتركيا وأوروبا نموذجان لمشكلة الهوية المزدوجة، بين هوية ناقصة وهوية خائفة. والنقص والخوف حالتان نفسيتان وذهنيتان تولدان الشعور بالتوتر والإحساس بالضعف.

فتركيا ما زالت تنظر إلى هويتها على أنها هوية ناقصة لعدم دخولها إلى الاتحاد الأوروبي، والانتساب إلى العالم الحديث والحر والمتقدم.

وأوروبا التي تمثل ناديًا مسيحيًا لديها خوف على هويتها، من دخول تركيا الدولة غير المسيحية إلى ناديها واتحادها.

من هنا حدث الازدواج في مشكلة الهوية بين تركيا وأوروبا، تركيا التي ظلت تبحث عن هويتها في أوروبا منذ تخليها وارتدادها وانقلابها على الخلافة العثمانية، وماضيها الإسلامي. وتركيا التي أرادت أن تغلب الجغرافيا على

التاريخ، الجغرافيا التي تنسب قدرًا ضئيلًا من مساحة تركيا إلى أوروبا، حيث تقدر هذه المساحة بما يقرب من 3% من مساحة البلاد، وتقع في أقصى الطرف الشرقي من جنوب أوروبا، وتضم هذه المساحة مدينة اسطنبول، وهذا ما يعزز من أهمية وحيوية هذا الإقليم الذي يطلق عليه اسم تراقيا.

في مقابل التاريخ الذي جعل من تركيا دولة زعامة وخلافة على العالم الإسلامي، وعلى الوجود الإسلامي في أوروبا وآسيا. وتركيا التي ظلت تفاخر بعلمانيتها وتتبجح بها، وجعلت من المؤسسة العسكرية حامية لوجود هذه العلمانية وبقائها، وضمانًا لتطبيقها والسير على نهجها. وقد وصلت الحال بهذه العلمانية إلى درجة الإفراط والمبالغة، وأخذت توصف بالتطرف، لكن هذا التفاخر بقي منقوصًا، تصاحبه الشكوك لعدم انضمام تركيا إلى أوروبا، العالم المثالي للعلمانية في نظر الأتراك.

وأوروبا التي كافحت لتفكيك الخلافة العثمانية، حتى أطاحتها، وجعلت من تركيا الدولة التي تحظى برعايتها، لتكون نموذجًا لدولة علمانية تفصل بين الدين والدولة، يحتذى بها في العالم الإسلامي، ولكي تقدم على أنها الدولة الحديثة الأكثر تقدمًا وتمدنًا بسبب علمانيتها وارتباطها بالغرب. وظلت أوروبا تغري تركيا باللحاق بها، وحينما تقدمت تركيا في وقت لاحق، وبعد زمن طويل من اللحاق بأوروبا، بطلب الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، نشأت الصدمة والمفاجأة عند الأتراك، الذين وجدوا أن الأوروبيين ليسوا على استعداد لتقبلهم، لكونهم دولة غير

مسيحية. فتركيا التي انتظرت بحماسة كبيرة، الوقت الذي ترى نفسها وهي جزء من أوروبا، ولها كامل العضوية في اتحادها، وجدت أنها غير مرحب بها.

والأتراك والأوروبيون يعلمون بوضوح كبير أن جوهر المشكلة وحقيقتها، ليس لأن تركيا لم تف بتلبية المعايير السياسية والاقتصادية والثقافية التي يفرضها الاتحاد الأوروبي كشروط أساسية للحصول على عضوية الاتحاد، وإنما المشكلة في ازدواج الهوية.

وقد تفجرت هذه المشكلة، وظهرت إلى السطح، ودخلت مجال التداول السجالي، حينما وافقت قمة هلسنكي المنعقدة في ديسمبر 1999م، على قبول تركيا كمرشح لعضوية الاتحاد الأوروبي، لكنه قبول مشروط بتلبية معايير الاتحاد، وفي طليعتها معايير كوبنهاغن.

وفي ذلك الوقت ظهرت عبارات في بعض الصحف الأوروبية تصور تركيا على أنها دولة غريبة عن أوروبا، ووجه الغربة لا شك أن هوية تركيا من ناحية الدين تختلف عن هوية أوروبا. وبوضوح كبير عبر حزب الرئيس الفرنسي آنذاك جاك شيراك عن موقفه المعارض لعضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي في أبريل 2004م، على أساس أن ذلك يؤدي إلى ضعف الهوية الأوروبية.

وفي الجانب التركي يرى حسين باغتشي من جامعة الشرق الأوسط التقنية في أنقرة، أن الجدل الحقيقي بين تركيا وأوروبا في باطن صناع القرار، ويكمن حول قضايا الدين والثقافة.

- 7 -
تركيا وأوروبا.. وأوهام الهوية

تصلح تركيا أن تكون نموذجًا سهلًا ومهمًا، لمن يريد دراسة مشكلة الهوية في أكثر تجلياتها وضوحًا وانبعاثًا. فتركيا تمثل نموذجًا لدولة تنكرت لهويتها وتراثها وتاريخها، وحاولت اللحاق بالعالم الغربي المتقدم، سعيًا لاكتساب صفة الدولة الحديثة والعصرية التي تنتمي إلى عالم المدنية والحداثة.

وقد ظلت مشكلة الهوية تنبعث في تركيا باستمرار، وتتجلى في العديد من المواقف والسياسات والمسلكيات بأبعادها ومجالاتها المختلفة، الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ومن هذه المواقف الحديثة، ما ظهر في حديث الرئيس التركي الأسبق أحمد نجدت سيزار خلال لقائه الرئيس الأمريكي آنذاك جورج بوش على هامش انعقاد قمة الناتو، أواخر يونيو 2004م في اسطنبول، حين قال: رغم أن الشعب التركي شعب مسلم، إلا أن تركيا ليست دولة إسلامية، وإن الدين والسياسة في تركيا منفصلان تمامًا أحدهما الآخر، ولا يجب النظر إلى تركيا حسب قول الرئيس التركي على أنها نموذج لدولة إسلامية.

وفي نظر المحللين فإن هذا الكلام، يأتي ردًا على ما ظل يصرح به رجب طيب أردوغان رئيس الوزراء التركي، من أن تركيا نموذج لدولة إسلامية يتعايش فيها الإسلام والديموقراطية.

وكلا الموقفين على اختلافهما السياسي والأيديولوجي، يحملان رسالة واحدة لأوروبا التي ترغب تركيا في تسريع الانضمام إلى اتحادها الأوروبي. فسيزار يريد أن يبدد هواجس الأوروبيين في النظر إلى تركيا باعتبارها دولة إسلامية، وهي ليست كذلك في نظره. وحين يخاطب الرئيس الأمريكي بهذا الكلام، فذلك باعتباره الطرف الذي تتقوى به تركيا لتدعيم موقفها عند الأوروبيين.

وقد وصلت هذه الرسالة إلى الرئيس الأمريكي، الذي تحدث في الجلسة قبل الختامية لقمة الناتو حاثًا الأوروبيين على قبول تركيا في عضوية الاتحاد، قائلًا: إن تركيا تتحرك بسرعة للوفاء بمتطلبات الانضمام للاتحاد، وإن قبولها سيعزز الروابط بين العالم الإسلامي والغربي... وسيبرهن على أن أوروبا ليس ناديًا يقتصر على دين واحد، ودخول تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، والكلام للرئيس الأمريكي سيكشف أن صدام الحضارات أسطورة من أساطير التاريخ.

أما أردوغان فهو يتحرك برسالة أخرى، وبفلسفة مختلفة، فهو يريد إقناع الأوروبيين بأن تركيا يمكن أن تكون النموذج الذي يتعايش فيه الإسلام والديموقراطية، ليس هذا فحسب، فأردوغان يريد أن يقدم صورة عن تركيا لا تخلو من مبالغة واندفاع، فقد تحدث أمام تجمع للشباب

في اسطنبول خلال أيام انعقاد قمة الناتو قائلًا: إن تركيا ستصبح رمزًا لامتزاج وانسجام مختلف ثقافات وحضارات العالم، ليس لقوتها العسكرية والاقتصادية فحسب، ولكن لقدرتها على استيعاب وتفهم القيم والمعايير الدولية، مما يسهل عليها التعامل مع كل المناطق في العالم.

والأوروبيون وحتى الأمريكيون بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، باتوا يتطلعون إلى نموذج في العالم الإسلامي يتعايش فيه الإسلام والديموقراطية.

وفي كل مرة يجري فيه الحديث عن انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، تظهر بعض الأصوات التي تثير مخاوف الأوروبيين على هويتهم، وما يمكن أن تتعرض له هذه الهوية من تغيير أو ضعف أو ازدواجية.

وفي هذا النطاق يأتي التقرير الذي نشره أوين ماثيوز في مجلة نيوزويك العربية بتاريخ 4 مايو 2004م، حيث اعتبر أن تركيا إذا انضمت إلى الاتحاد الأوروبي، فسيكون هنالك عدد أكبر من المسلمين الذين يرتادون المساجد في أوروبا، مقارنة بأتباع الطائفة البروتستانتية الذين يؤمون الكنائس. وخلال عقد من الزمان سيفوق تعداد سكان تركيا سكان ألمانيا، وبالتالي وفي النظام الجديد للتصويت المعتمد على عدد السكان، فإن تركيا سيكون لديها عدد من الأصوات يوازي تلك الأصوات المخصصة للدول الأوروبية الصغيرة الـ18 مجتمعة داخل مجلس الوزراء، وهو المؤسسة الأكثر نفوذًا في الاتحاد الأوروبي.

كما أن انضمام تركيا سيشجع على الهجرة الاقتصادية الجماعية، وما سيؤدي إليه ذلك من تحولات في ديموغرافيات الدول الأوروبية الغنية. مع ملاحظة حسب التقرير أن تركيا دولة بالغة الاتساع، وسكانها ذوو نزعة وطنية، يصعب عليهم الذوبان في أوروبا. إلى جانب أن سكان أوروبا يكبرون سنًا وعددهم في تناقص، أما سكان تركيا البالغ عددهم 70 مليونًا يغلب عليهم الشباب، وينمو بمعدل مذهل يصل إلى 2.3 بالمائة سنويًا.

والمشكلة أن هذه التصويرات والملاحظات، لا تأتي في سياق توجيه التعامل مع هذه الحالة، وإنما في سياق صناعة الخوف والفزع، ومن أجل تكوين صورة نمطية، الغاية منها خلق الممانعة والرفض.

وهل من المعقول أن أوروبا تخاف على هويتها من تركيا التي لا هوية متماسكة لها، والتي تبحث أساسًا عن هويتها في أوروبا، والحقيقة أن المشكلة ليست في الهوية، وإنما في أوهام الهوية.

ـ 8 ـ
من صدام الحضارات
إلى سؤال من نحن؟

ما بين كتاب (صدام الحضارات) لصمويل هنتنغتون الصادر سنة 1996م، وكتابه الصادر في مايو 2004م، بعنوان (من نحن.. تحديات الهوية الوطنية الأمريكية)، هناك اتصال واضح ووثيق من جهة السياق والأطروحة.

فكلا الكتابين ينتميان إلى حقل معرفي مشترك، هو الحقل الذي يعنى بدراسة العلاقة بين الثقافة والسياسة. الحقل الذي شهد تقدمًا وازدهارًا في البيئة الأكاديمية الأمريكية، التي أدركت حاجتها إلى هذا الحقل منذ وقت مبكر، وكان الحافز على هذا الاهتمام هو طبيعة التعدد والتنوع في مكونات المجتمع الأمريكي، الذي يضم ثقافات وهويات تنتمي إلى مجتمعات وأقوام متعددة، حيث اقتضت الضرورة توثيق التجانس السياسي بين تلك الأقوام المتعددة الثقافات، وتوحيد مفهوم الدولة والأمة لديها، وترسيخ العقيدة السياسية المشتركة، والقائمة على مبادئ المواطنة والحرية والمساواة والحقوق الفردية وسيادة القانون.

ومن جانب آخر يشترك الكتابان في أنهما يعبران عن

ظاهرة الالتفات إلى تزايد نفوذ وحضور الثقافة والفعل الثقافي في المجال السياسي، وفي مجال العلاقات الدولية، وفي هذا الشأن صدرت العديد من الكتابات والمؤلفات التي حاولت الكشف عن هذه الظاهرة، وتفسير مكوناتها وعلائقها وتشابكاتها.

كما يشتركان أيضًا في التعبير عن هاجس الهوية، الذي بات مصدر قلق عند بعض الغربيين في أوروبا وأمريكا. ولا شك أن إحساس الغربيين بهذا الهاجس، يختلف كليًا عن إحساس المجتمعات الأخرى، لأن هاجس الخوف على الهوية عند هذه المجتمعات غير الغربية، كان مصدره دائمًا هو الغرب الذي حاول تنميط العالم أو تغريبه، والتعامل معه وفق قانون المركز والأطراف.

لهذا فحينما يأتي هاجس الخوف على الهوية من الغرب، فذلك يعني أن تغيرًا مهما قد جرى عند الغربيين أنفسهم، ويتصل هذا التغير برؤية الغرب إلى العالم. فلم يعد الغرب هو الطرف المؤثر من جانب واحد في العالم، فقد تحول العالم إلى طرف آخر يؤثر في الغرب أيضًا. وبدأ الغرب يدرك هذا التأثير فيه ويتحسسه ويشعر بالخوف منه، أي إن العالم لم يعد صامتًا أمام الغرب، لا صوت له ولا إرادة أو تأثير.

أما المفارقات بين الكتابين، فمنها أن كتاب (صدام الحضارات) كان ناظرًا إلى الآخر المختلف في الثقافة والحضارة والهوية والدين، أما كتاب (من نحن؟) فكان

ناظرًا إلى الذات التي يراد منها أن تأتلف في الثقافة والهوية والدين. وبالتالي فإن كتاب (صدام الحضارات) هو أشبه ما يكون بإجابة عن سؤال من هم؟ أي من هم أولئك الآخرون المختلفون عن الغرب، والكتاب الآخر هو إجابة عن سؤال من نحن؟.

وهذان السؤالان يشتركان في إجابة واحدة، فالإجابة عن سؤال من نحن؟ هي إجابة من بعد آخر عن سؤال من هم؟. فقد ظل الغرب يرى ذاته، وتأكيد هذه الذات، من خلال رؤيته إلى الآخر المختلف.

ومن هذه المفارقات أيضًا، أن كتاب (صدام الحضارات) كان يراد منه لفت نظر الغرب إلى التحديات الخارجية التي سوف يحتك بها، وهي التحديات القادمة من ثقافات وهويات وديانات الحضارات الأخرى غير الأوروبية، أما كتاب (من نحن؟) فيراد منه لفت النظر إلى التحديات الداخلية، التي هي من نمط وطبيعة تلك التحديات الخارجية، حيث تتصل بالثقافة والهوية والدين.

وإلى جانب هذه المشتركات والمفارقات، هناك بعد آخر له علاقة بمفهوم التحول، فهناك ما يشبه التحول بين كتاب (صدام الحضارات) الناظر إلى الصدام على مستوى الحضارات الكبرى الباقية في العالم، وكتاب (من نحن؟) الناظر إلى الصدام في نطاق الحضارة الواحدة، وهذا يعني أن الصدام ليس بين الحضارات فحسب، وإنما هناك صدام أيضًا في نطاق الحضارة الواحدة.

وما كان يريد هنتنغتون أن يخفيه، أو لم يصرح به بشكل واضح في كتابه (صدام الحضارات)، كشف عنه بوضوح أكثر في كتابه (من نحن؟)، حيث رأى ضرورة الحاجة إلى العدو في حماية الهوية وتماسكها، فالعداء للآخر حسب رأيه يلعب دورًا أساسيًا في تشكيل هوية الجماعات، وتاريخيًا، استفاد الأمريكيون في تشكيل هويتهم من الأعداء، الذين دخلوا في حروب ونزاعات معهم على مدى التاريخ، بداية من الهنود الحمر، والمستعمرين الفرنسيين، ثم المستعمرين البريطانيين، وانتهاء بالحرب الباردة والصراع مع الاتحاد السوفياتي.

فمع سقوط الاتحاد السوفياتي وعدم تبلور عدو جديد، يتخوف هنتنغتون أن يساهم هذا الوضع في ضعف التفاف الأمريكيين حول هويتهم مع أواخر القرن العشرين.

من هنا جاءت ضرورة الحاجة في رؤية هنتنغتون إلى عدو من أجل صمود الهوية وبقائها وتماسكها، فالغرب كان بحاجة إلى فكرة صدام الحضارات، لكي يحافظ على تماسك هويته المتراخية، وفي داخل الغرب فإن أمريكا بحاجة إلى عدو، لكي تحافظ هي الأخرى على تماسك هويتها المفككة.

والحقيقة أن ما يطرحه هنتنغتون، إنما يكشف عن وجود أزمة وتأزم في الفكر الغربي، حين يكون هاجسه البحث عن عدو.

ـ 9 ـ

ماهية الغرب.. الحدود والمحددات

نشر المفكر والاقتصادي الفرنسي غاي سورمان، في صحيفة بروجيكت سنديكيت ـ عالم أوروبا. مقالة هامة عنوانها (ماهية الغرب)، قامت بترجمتها صحيفة العرب القطرية، ونشرتها في الثاني من شهر مايو 2008م. وتعد هذه المقالة من نمط المقالات الجدلية التي تفتح بطبيعتها نقاشًا اختلافيًا، لا يتحدد بالضرورة بمكان، ولا ينتهي بزمان، ويمكن أن يكون عابرًا بين الثقافات والمجتمعات.

علمًا أن الحديث عن قضية ماهية الغرب وهويتهم، ليس جديدًا في ساحة الجدل والنقاش عند الغربيين، والأوروبيين منهم بشكل خاص، والفرنسيين بشكل أخص، وليس قديمًا أيضًا، وسيظل ساريًا ومفتوحًا على ما يبدو، وسيكون من الصعب وضع حد وخاتمة لهذا النقاش، في ظل وضعيات بات فيها العالم برمته يتغير ويتحول، وتتغير معه صورته، ورؤية الناس إليه.

ومن الواضح أيضًا، أن هذه القضية لم تعد تعني الغربيين فحسب، وإنما باتت تعني العالم بكل ثقافاته ومجتمعاته، وذلك نتيجة تعقيدات العلاقة من النواحي كافة بين الغرب والعالم.

العالم الذي طالما حاول الغرب تغريبه وتملكه، وفرض مركزيته عليه، وتحويله إلى جيوب هامشية، وضواحي خلفية، ومدارات حزينة، وجعله تابعًا وخاضعًا له ولسياساته الثقافية والاقتصادية، هذا العالم له كلمته التي يريد أن يقولها للغرب، وحان الوقت الذي يصغي فيه الغرب إلى العالم، وهو يعيد النظر في الرؤية إلى ذاته وهويته، وعلى أمل أن يصحح رؤيته وعلاقته بالعالم.

وبالعودة إلى مقالة غاي سورمان هناك وقفات نقاشية عديدة، منها مقاربته لمقولة صدام الحضارات من جهة رؤية هنتنغتون لمفهوم الغرب، حيث اعتبر سورمان أن خطأ هنتنغتون الأساسي يتلخص في حصر الغرب داخل حدود وطنية، في حين أنه يرى أن الغرب لا يتحدد بحدود وطنية، ولا خريطة جغرافية له، ولا يمكن في نظره رسم خريطة للغرب ما دامت بعض الدول الآسيوية غربية مثل اليابان وتايوان، وما دامت المجموعات غير الغربية مثل المسلمين في أوروبا تعيش في بلدان من المفترض أنها غربية، وما دامت بعض الدول الشرقية تتبنى أسلوبًا شبه غربي، وبعض الدول الغربية مثل روسيا لا تتبنى أسلوبًا غربيًا كاملًا.

وبالتالي فمن الأيسر حسب رؤية سورمان تعيين الحدود الفكرية للغرب، بدلًا من محاولة تعيين حدوده الجغرافية.

وبالطبع فإن هذا الرأي لا يحسم النقاش حول ماهية الغرب، وليس باستطاعته تحقيق هذا الحسم لا عند

الغربيين، ولا عند غيرهم أيضًا، وقصارى ما يصل إليه أنه يكشف عن وجهتي نظر داخل الغرب عن الغرب نفسه، بين وجهة نظر تحاول أن تحدد الغرب على أساس مفهوم الحدود الجغرافية والمكانية، ووجهة نظر أخرى تحاول أن تحدد الغرب على أساس مفهوم الحدود الفكرية والثقافية.

إلى جانب وجهة نظر ثالثة لم يشر إليها سورمان تحاول تحديد الغرب على أساس مفهوم الدين بتصوير أن الغرب يتحدد في نطاق المسيحية، إلى جانب وجهات نظر أخرى!

ومن الوقفات التي تستدعي النقاش كذلك، والنقاش المستفيض والنقدي محاولة سورمان، تصوير الغرب بوصفه العالم الفريد والمتفرد والمتفوق حتميًا على بقية العوالم الأخرى، والمبالغة في مدح الغرب، وكأن ما دونه عوالم أقل حظًا في الإبداع، وأدنى درجة في الذكاء، وأنزل رتبة في الخيال.

وحتى يصل سورمان إلى تحديد صائب ودقيق لماهية الغرب، يرى أن هناك ثلاث سمات جوهرية، لا يمكن العثور عليها بسهولة في نظره فيما يسمى بالحضارة الشرقية، ومن يكتسب هذه السمات مجتمعة منتمٍ إلى الغرب، مهما كان موطنه في عالم الجغرافيا، حتى لوّ كان في أبعد بقعة من أوروبا، ومن يفقدها أو يتخلى عن بعضها خارج عن عالم الغرب حتى لو كان موطنه في أوروبا، باعتبار أن الغرب في رؤية سورمان إنما يعبر عن أسلوب فكري لا غير.

وهذه السمات الثلاث هي:

أولاً: الرغبة في الإبداع والتجديد، حيث يرى سورمان أن التحية المعتادة منذ العصر الهليني كانت بين المعارف والأصدقاء ما الجديد؟، وهذه التحية في نظر سورمان تجسد جوهر العقلية الغربية، أما غير الغربيين فإنهم يضعون التقاليد في مرتبة أعلى من الإبداع. ويضيف سورمان أن الإبداع باعتباره قيمة جوهرية يفسر النجاحات العلمية التي حققها الغرب، كما يفسر الصراعات الحتمية مع المجتمعات المحافظة غير الغربية، ويفسر كذلك ما يجب علينا ـ والكلام لسورمان ـ أن نطلق عليه تغريب الغرب.

ويتمم سورمان كلامه بالقول: إن الغرب يواصل تدمير تقاليده، بما في ذلك معتقداته الدينية، وهي العملية التي وصفها الاقتصادي جوزيف شومبيتر بالتدمير الخلاق.

ثانيًا: القدرة على انتقاد الذات، التي تشكل في نظر سورمان سمة أساسية للغرب، ويرى أن أغلب الحضارات غير الغربية، إن لم يكن جميعها تعمل الكبرياء، وحب الذات على صد انتقاد الذات، أو على الأقل منع الفرد من انتقاد حضارته، ويضيف أن المفكر المسلم أو الصيني لا يمكن وصفه بالمسلم أو الصيني الحقيقي، إذا ما تعرض لعالمه بالانتقاد، وأما في الغرب فالأمر ليس كذلك، إذ يظل المفكر الغربي يتمتع بشرعيته الكاملة حين يحكم بالموت على القيم الغربية.

ثالثًا: المساواة بين الجنسين، فبعد أن ظلت هذه الفكرة كما يقول سورمان، تشكل موضوع نزاع في الغرب طوال قرون من الزمان، أصبحت اليوم قاعدة ثابتة، بخلاف واقع الحال في أغلب الحضارات غير الغربية.

هذه هي محددات ماهية الغرب في نظر سورمان، التي تجعل منه عالمًا فريدًا ومتفردًا على بقية العالم.

ولا أعلم على وجه التحديد ما هي وجهات نظر الغربيين الآخرين حيال هذه المحددات، لكنها محددات لا يمكن المرور عليها بدون نقاش، ولا حتى التسليم بها، والركون إليها، ولا تصلح أساسًا لهذا الغرض، لأنها محددات نسبية وليست مطلقة، بمعنى أن هذه المحددات لا ينفرد بها الغرب بصورة كلية ومطلقة، ولا تنعدم في الحضارات غير الغربية بصورة كلية ومطلقة أيضًا، فالإبداع والتجديد ليسا حكرًا على الغرب، وليسا شأنًا غربيًا بالتأكيد، والمفارقة نسبية، وهذه النسبية لن تظل ثابتة بالمطلق، ويمكن أن تتبدل لغير مصلحة الغرب في لحظات تاريخية غير محسوبة.

ومن جهة أخرى، إن اليابان التي حرص الأوروبيون على إدماجها في مفهوم الغرب، والتي عرف عنها الإبداع والتجديد إلا أنها لم تدمر تقاليدها، ولم تتخل عنها، وما زالت تحافظ عليها. والصين التي هي خارج مفهوم الغرب، تشهد حركة في الإبداع والتجديد بطريقة متوثبة بدأت تلفت بشدة انتباه العالم برمته، الأمر الذي يؤكد أن الإبداع

والتجديد لا يتنافيان مع فكرة التقاليد التي تكون حية ونابضة كما في مثال اليابان، وأن الإبداع والتجديد ليسا شأنًا غربيًا ولن يكونا مطلقين، والصين مثال على ذلك.

ومن جهة ثالثة، إن التاريخ لم يحدثنا عن حضارة لم تشهد إبداعًا وتجديدًا، وإذا كان الغرب اليوم يشهد تفوقًا في هذا الشأن على بقية الحضارات الأخرى، فليس لأنه غربي ويتفرد بأسلوب فكري لا نظير له، إنما هو حصيلة عجلة التقدم من جهة، وتراكم منجزات التقدم الإنساني بصورة عامة. وبالتالي فإن التفوق في الإبداع والتجديد هو سمة الحضارة المتفوقة، التي كانت سمة للحضارة الإسلامية في عصور تفوقها، وستكون سمة لكل حضارة متفوقة، وليس شأنًا وامتيازًا أوروبيًا أو غربيًا.

وأما بشأن القدرة على انتقاد الذات، فهي ليست سمة حميدة بالمطلق أو سيئة بالمطلق، كما أنها ليست سمة غائبة أو منعدمة في بقية الحضارات، وليس فخرًا للغرب أن يتظاهر بتدمير معتقداته الدينية.

وأما بشأن المساواة بين الجنسين، فإن الغرب الذي دافع عن حقوق المرأة، وفي المقابل تحطمت مؤسسة الأسرة، وهذا ما يعرفه الغربيون أنفسهم قبل غيرهم، ليس هذا فحسب وإنما تغيرت حتى هوية مؤسسة الأسرة، وانحرفت عن طبيعتها السوية بعد الاعتراف بالزواج المثلي، الذي هو بخلاف قانون الطبيعة، وإعطاء هذا النمط من الزواج وصف الأسرة، مع ضمان الحق القانوني.

وبالتالي فإن مسألة المرأة والأسرة في الغرب، هي أكثر أمر بات يخيف المجتمعات غير الغربية، ولا يحق للغرب أن يتبجح بهذه السمة، التي كان يفترض أن تنبه الغرب إلى ذاته!

ـ 10 ـ
لماذا تخشى أوروبا على نفسها؟

ظهرت في أوروبا وأمريكا كتابات تتشاءم من مستقبل أوروبا، وتنذر بمصير قاتم، وتصور أوروبا وكأنها شارفت الزوال والانتهاء، وكشفت عن مخاوف وهواجس شديدة الحساسية والخطورة، وتلفت النظر إلى ما يواجه الهوية الأوروبية المسيحية من خطر محدق بات يؤثر في وجودها ورسوخها، ويعرضها للتمزق والاختراق.

من هذه الكتابات ما نشرته مجلة نيوزويك العربية على غلافها في مايو 2004م بعنوان (نهاية أوروبا)، وكانت هذه قضية العدد التي أعدها الكاتب مايكل ماير، وجاءت على خلفية انضمام عشر دول من المعسكر الشرقي السابق إلى دول الاتحاد الأوروبي.

وفي نوفمبر 2006م نشر الكاتب الأمريكي دانيال بايبس مقالة في صحيفة نيويورك صن عنوانها (أوروبا في حكم المنتهية)، حذر فيها ما أسماه تهديد الإسلام المتشدد للغرب.

وفي يونيو 2008م نشر رئيس تحرير جريدة عالم أوروبا غايلز ميريت مقالة عنوانها (اختفاء أوروبا)، تساءل

في مطلعها بقوله ترى ماذا قد يعني بالنسبة إلى أي منا أن يكون أوروبيًا بعد ربع قرن من الآن؟، معتبرًا أن الأوروبي الأصلي أصبح نوعًا معرضًا لخطر الانقراض.

ومن أحدث هذه الكتابات الكتاب الذي نشره هذا العام الكاتب السياسي والاقتصادي الألماني تيلو ساراتزين عضو مجلس إدارة البنك الاتحادي الألماني، بعنوان (ألمانية تلغي نفسها)، وأثار به جدلًا واسعًا داخل المجتمع الألماني، وأحدث انقسامًا في الرأي، وقيل أن طبعته الأولى نفدت خلال أيام، وكانت تقدر بعشرين ألف نسخة، وصدرت منه طبعة ثانية، ويحتمل أن تتوالى طبعاته.

والجدل الواسع الذي أحدثه هذا الكتاب، جاء متأثرًا ومنفعلًا بظروف الأزمة الاقتصادية الصعبة التي مر بها الاقتصاد الألماني والاقتصادات الأوروبية بصورة عامة، واضعًا مستقبل ألمانيا على المحك، الأمر الذي يقتضي حسب رأي تيلو ساراتزين إنقاذ ألمانيا قبل فوات الأوان، لأنها تسير في نظره نحو الهاوية، فلا بد من العمل والعمل الشاق لإيقاف هذا الانحدار.

وعند النظر في هذه الكتابات، يمكن القول إنها تلتقي وتشترك في التركيز على قضيتين رئيسيتين، الأولى لها طبيعة اقتصادية واجتماعية، والثانية لها طبيعة ثقافية ودينية.

وتتحدد القضية الأولى فيما وصفه غايلز ميريت بالانكماش السكاني في أوروبا، وتدني نسبة الولادات فيها، وتعرض سكان أوروبا الأصليين إلى التضاؤل

والتناقص، وحسب وصف تيلو ساراتزين فإنها تتحدد في انخفاض معدلات المواليد الجدد لدى الطبقات المتوسطة، في مقابل ازدياد عدد المهاجرين وارتفاع نسبة المواليد لديهم، والعيش على المساعدات الاجتماعية التي تقدمها لهم الدولة، وبشكل يستنزف موارد الدولة، وينذر بكارثة ديمغرافية.

ومن جهته يرى ميريت أن أوروبا بحاجة ماسة إلى المهاجرين، إلا أنها لم تستعد بعد على المستوى الثقافي للترحيب بهم، وهذا يعني في نظره أن أوروبا ستشهد في العقود المقبلة قدرًا أعظم من التغير الاجتماعي، إلا أن طبيعة هذا التغير بعيدة كل البعد عن الوضوح.

وتتحدد القضية الثانية في تنامي الوجود الإسلامي في أوروبا، وهذا ما أراد ساراتزين أن يحذر منه، ويدق ناقوس الخطر معلنًا استحالة اندماج المسلمين في المجتمع الألماني وفي المجتمعات الأوروبية عمومًا، مستندًا إلى موقف غريب ومستهكم، حيث يرى أن الجينات الوراثية للمسلمين تختلف عن الجينات الوراثية عند الألمان والأوروبيين.

وهذا كلام خطير يكرس العنصرية ويشرع لها، ويذكر بالنزعة النازية التي تفاضل بين الأجناس، وأكثر ما يلفت النظر في هذه الكتابات أنها تتعامل مع الوجود الإسلامي في أوروبا بطريقة خاطئة، وتكرس الخطأ بهذه الطريقة التي تفسد ولا تصلح، ولا تجلب معها إلا الضرر.

- 11 -
خرافة مقولة أسلمة أوروبا

تحدث بعض الغربيين أوروبيين وأمريكيين عن مقولة حساسة ومثيرة للقلق، هي مقولة (أسلمة أوروبا)، ولعل هذه واحدة من أغرب المقولات المصنعة في الغرب، ولا أدري مدى اقتناع الأوروبيين بهذه المقولة، وهل هي من المقولات الجادة فعلًا، أم أنها من المقولات التي تخفي وراءها بواطن يجري التستر عليها، لكنها لم تأت من فراغ، وبدون مقدمات، فهناك بواعث وأرضيات كانت محرضة على نحت هذه المقولة بهذه التركيبة المستفزة بشدة.

ولتفسير هذه المقولة وتحديد طبيعة وجهات النظر المعبرة عنها، يمكن الكشف عن الخلفيات والأبعاد التالية:

أولاً: هناك من تحدث عن هذه المقولة بقصد التحريض على المسلمين في أوروبا، ودفع الأوروبيين إلى الصدام مع المسلمين، وفي هذا النطاق تأتي المقالة التي نشرها الكاتب الأمريكي المتشدد دانيال بايبس في مايو 2004م بصحيفة نيويورك صن بعنوان (أوروبا المسلمة)، حيث اعتبر فيها أن أوروبا تصبح يومًا بعد يوم إقليمًا من أقاليم الإسلام، أو مستعمرة إسلامية، ويرى أن الإسلام أخذ يغزو معقل المسيحية القديم أوروبا.

ثانيًا: هناك من تحدث عن هذه المقولة بقصد الاحتجاج على تعاظم انتشار الإسلام في المدن والعواصم الأوروبية، وفي هذا النطاق يأتي موقف رجل الدين الألماني المتقاعد رولاند فيسلبرغ في نوفمبر 2006م، الذي أثار دهشة الجميع حين أقدم على إضرام النار في نفسه بساحة دير مدينة إيرفورت وسط ألمانيا، وكتب في رسالته الوداعية أنه أقدم على هذه الخطوة ليحذر من خطر أسلمة أوروبا.

ثالثًا: هناك من تحدث عن هذه المقولة بقصد إظهار الخشية على الجذور المسيحية في أوروبا، وفي هذا النطاق يأتي ما أشار إليه في يوليو 2007م جيورج جاينزفاين السكرتير الخاص لباب الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر في مقابلة مع مجلة زودوتيشه تسايتونج الألمانية بقوله لا يجب إغفال محاولات أسلمة الغرب، وأن الخطر الذي يهدد أوروبا يجب ألا يتم تجاهله بمبررات مثل الاحترام القائم على مفاهيم خاطئة، ومشددًا على عدم تجاهل الجذور المسيحية لأوروبا.

رابعًا: هناك من تحدث عن هذه المقولة بقصد توجيه النقد إلى السياسات الاقتصادية في بلده، وفي هذا النطاق يأتي ما أشار إليه الكاتب السياسي والاقتصادي الألماني تيلو ساراتزين في كتابه المثير للجدل (ألمانيا تلغي نفسها) الصادر سنة 2010م، حيث حمل ما أسماه السياسات الفاشلة لحكومة بلاده التي تشجع المسلمين حسب قوله على القدوم ونشر أفكارهم وعقائدهم الثقافية والدينية داخل

المجتمع الألماني، بما يشكل خطرًا على الهوية الأوروبية والمسيحية في ألمانيا، ومحذرًا من أنه إذا لم يتم تدارك الأمر فإن ألمانيا ستتحول إلى دولة إسلامية خلال المائة سنة القادمة.

في مقابل هذا المنحى وعلى الضد منه، هناك من وجد أنه ينبغي توجيه الشكر للمسلمين لأنهم ساهموا في إعادة الاهتمام بالدين في المجتمعات الأوروبية التي تراجع فيها هذا الاهتمام، وأشار إلى هذا الرأي الكردينال جان لويس توران رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان في خطاب نشرته أوسرفاتوري رومانو الصحيفة الرسمية للفاتيكان، حيث اعتبر أن الفضل في ذلك يعود إلى المسلمين الذين طالبوا بوجود مساحة للدين في المجتمع، بعد أن أصبحوا أقلية مهمة في أوروبا.

وعند النظر في مقولة أسلمة أوروبا، فإنها لا تعدو أن تكون مجرد خرافة تكشف عن أن أوروبا بدأت تواجه أزمة في هويتها، وما هذه المقولة إلا أحد تداعياتها.

الفصل العاشر

هل الغرب في أزمة؟

- 1 -
قوة الغرب..
هل هي في تقدم أم تراجع؟

هناك صورتان حول قوة الغرب داخل الغرب نفسه، صورة الغرب المتفوق والمنتصر والمهيمن الذي لا ينافس، ولا يخشى على مصيره وزعامته ومستقبله من أي قوة وحضارة أخرى، لأنه يتربع على قمة العلم والحداثة، ويمتلك مفاتيح العولمة، ويتحكم في إدارة النظام العالمي، وبإمكانه أن يبدل ويغير ويفرض القرارات والقوانين والأنظمة الدولية، ويقرر مصير العالم بلا منازع، وهو القابض على اقتصادات العالم، وأنه بات يمثل نهاية التاريخ.

وهناك صورة أخرى للغرب، وهي صورة الغرب الذي دخل في طور الأزمة، وبدأ فيه العد التنازلي للتراجع، ولم يعد يمثل النموذج الأمثل للاقتباس في رؤية المجتمعات والحضارات الأخرى، وأخذ بريقه اللامع في العالم بالانحسار، كما فقد سحر الحضارة والتقدم في نظر شعوبه، وظهر عليه الاعتلال والعجز في معالجة الأزمات والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية، والقائمة طويلة في هذا الشأن.

ومنذ عقد التسعينيات في القرن العشرين والمناقشات ما زالت جارية في الغرب حول هاتين الصورتين المتعارضتين، حيث تتعدد وتتباين حولهما وجهات النظر، واتجاهات التفكير والتحليل والاستشراف.

فهناك من ينتصر إلى الصورة الأولى، مثل الكاتب والناقد الإيرلندي تيري إيجلتون، الذي يرى بأن الغرب مع نهاية القرن العشرين قد خطا خطوات جريئة إلى الأمام بوصفه بطل الإنسانية جمعاء ونصيرها.

وهناك من يأخذ بالصورة الثانية، أو يحاول أن يلفت النظر إليها باهتمام، وهذا ما تذهب إليه الباحثة الفرنسية في شؤون الاستراتيجية والدفاع ماريلسول تورن، حيث اعتبرت في كتابها (تقلب العالم.. جيوبوليتيك القرن الواحد والعشرين) الصادر سنة 1995م، أن الغرب لم يعد يكتب التاريخ، محذرة من تصدع جبهة الغرب، ومن صعود القوى الجديدة في آسيا.

ويؤكد على هذه الصورة أيضًا الفيلسوف الفرنسي إدغار موران، الذي اعتبر في كتابه (نحو سياسة حضارية) الصادر سنة 2002م، أن الحضارة الغربية دخلت في طور الأزمة، حيث تحولت منجزاتها حسب رأيه إلى أعراض مرضها، وغدت تولد الأمراض في داخلها وخارجها، فالتقدم الصناعي الذي بدأ في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وكأنه معجزة أوروبا العظيمة، بات يهدد في نهاية القرن العشرين بتعريض المجتمعات الإنسانية لخطر تدمير البيئة والإيكولوجيا الكونية.

وتمتد هذه الأزمة في نظر موران إلى مختلف المجالات المعرفية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فعلى الصعيد المعرفي يتم التقدم المذهل في مجال المعارف والعلوم على حساب نكوص المعرفة، نتيجة غلبة الفكر التجزيئي والتخصصي الدقيق على الفكر والمعرفة الكليين.

وقد تحدث هنتنغتون عن هاتين الصورتين بوضوح كبير في كتابه (صدام الحضارات)، وكشف عن تلك النقاشات النقدية والمتباينة هناك حول مصير قوة الغرب، وكيف أن هذه القضية وثيقة الصلة والارتباط بنظرية صدام الحضارات.

فعن الصورة الأولى طرح هنتنغتون بعض الحقائق التي تبرهن عليها، كما لخصها أحد المؤلفين حسب قوله دون أن يذكر اسمه، ومن هذه الحقائق، أن الغرب هو الذي يملك ويشغل النظام المصرفي العالمي، ويتحكم في كل العملات الصعبة، وهو المستهلك العالمي الرئيسي، والمزود لأغلب دول العالم بالمواد والسلع المصنعة، والمهيمن على أسواق رأس المال العالمية، والملاحة البحرية، والقادر على التدخل العسكري الواسع، والمطبق لأحدث وسائل البحث والتطور التقني المتقدم، والمتحكم في التعليم التقني الراقي والقيادي، والمسيطر على صناعة غزو الفضاء، وعلى الاتصالات العالمية.. وغيرها.

أما الصورة الثانية فقد تحدث عنها هنتنغتون باهتمام واضح يفوق ما تحدث به عن الصورة الأولى، وحسب رأيه

فإن حضارة الغرب في حالة اضمحلال، ونصيبها من القوة العالمية السياسية والاقتصادية والعسكرية آخذ في الهبوط بالقياس على قوة الحضارات الأخرى، وأن الغرب بدأ يواجه نموًا اقتصاديا بطيئًا، وركودًا في عدد سكانه، وتفاقمًا هائلًا في العجز الحكومي، واضمحلال أخلاقيات العمل، وأن رغبة المجتمعات الأخرى في قبول ما يمليه الغرب، وفي الإخلاص لمواعظه آخذة في التبخر بشكل سريع، وكذلك الحال بالنسبة إلى ثقة الغرب بنفسه وإرادته في الهيمنة.

وما يريد هنتنغتون أن يتوصل إليه، هو الإجابة عن سؤال طرحه، وهو: أي من هاتين الصورتين المتناقضتين عن مكانة الغرب في العالم تصف الحقيقة؟ ويرى أن الإجابة تنطبق إيجابيًا على كلتيهما. فالغرب حسب رأيه مهيمن كليًا الآن، وسيبقى الأول في القوة والنفوذ خلال القرن الواحد والعشرين.

ومن جهة أخرى يرى هنتنغتون أن هناك تغيرات تدريجية شديدة وجوهرية تحدث في توازنات القوى بين الحضارات، وأن قوة الغرب بالقياس على تلك الحضارات الأخرى سوف تستمر في الاضمحلال، وأهم زيادة في القوة ستكون للحضارات الآسيوية.

وهذه التحولات في القوة كما يضيف هنتنغتون بين الحضارات، تؤدي وستؤدي إلى إحياء وتأكيد الذات الثقافية المتزايدة للمجتمعات غير الغربية، ورفضهم المتزايد للثقافة الغربية.

والسؤال المحير هو: لماذا يخاف الغرب من انبعاث الحضارات الأخرى؟ ولماذا يكون محكومًا بفرضية أن انبعاث تلك الحضارات يمكن أن يؤدي إلى صدام الحضارات! ولماذا لا يؤدي إلى خيار آخر يستبعد مثل ذلك الصدام!

ـ 2 ـ

الصدام الحقيقي.. صدام الغرب مع نفسه

منذ اليوم الذي شغلت مقولة صدام الحضارات اهتمام العالم، سنة 1993م حينما ظهرت في مقالة، وسنة 1996م حينما ظهرت في كتاب، وعرف بها صمويل هنتنغتون، وإلى هذا اليوم وهي تستقطب الاهتمام وتثير الجدل في مختلف مراكز العالم.

إلى جانب هذه المقولة، وردًا عليها، وتشكيكًا فيها، كانت هناك مقولة أخرى مغايرة لها ومتزامنة معها، وكان يفترض لهذه المقولة أن تلفت النظر باهتمام كبير في وقتها، لكن هذا لم يحدث منذ ذلك الوقت وإلى اليوم.

وهذه المقولة هي (تصادم الغرب مع نفسه)، التي طرحها الكاتب الأمريكي جيمس كورت أستاذ العلوم السياسية بكلية سوارتمور، في دراسة له عنوانها (الصدام الحقيقي)، نشرت في خريف 1994م.

في هذه الدراسة تساءل جيمس كورت ما هي الصراعات السياسية الرئيسية التي سيشهدها المستقبل؟

وهذا السؤال حسب رأي كورت هو الذي يفرض نفسه على الجدل الدائر حول الشؤون الدولية، وبعد أن شرح اتجاهات العالم في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، وبعد مناقشة مقولة صدام الحضارات التي اعتبرها من أكثر الإجابات شمولًا وإثارة للجدل، وأن صمويل هنتنغتون بهذا المفهوم حسب رأيه فجر صدامًا كبيرًا بين الكتاب، خرج بالاستنتاج النهائي وهو أن صدام الحضارات الحقيقي والأكثر أهمية لن يكون بين الغرب وغيره، بل هو ذلك الصدام الدائر بالفعل في الغرب ذاته، وخصوصًا داخل قوته الرئيسية أي الولايات المتحدة الأمريكية، وهو صدام بين الحضارة الغربية، وبين تحالف مختلف يتألف من حركات متعددة الثقافات والحركات النسوية.

إنه باختصار والكلام ما زال لجيمس كورت، صدام بين الحضارات الغربية وما بعد الغربية. ففي أوساط الليبراليين كما يقول نجد أن مصدر الطاقة السياسية هو الكوادر المؤمنة بالتعددية الثقافية، وأما بين المحافظين فإن مصدرها هو المتدينون. فالمحافظية لم تعد حديثة، بل أصبحت ما قبل حديثة، وهؤلاء الليبراليون وأولئك المحافظون كلاهما لا يؤمنون بالحضارة الغربية، فالليبراليون متوافقون مع مجتمع متعدد الثقافات أو ما بعد الحضارة الغربية، بينما يتوافق المحافظون مع النصرانية أو ما قبل الحضارة الغربية.

لا شك أن هذه مقولة لافتة جدًا، وتحتوي على ما يمكن أن يثير جدلًا واسعًا داخل الغرب وخارجه، واللافت

في هذه المقولة أنها لم تحظ بقدر كبير من الاهتمام المفترض، وهذا ما يبعث على التساؤل! وكان بإمكانها أن تساهم في الحد من فاعلية ودينامية مقولة صدام الحضارات، أو تغير من صور واتجاهات السجال الواسع والحاد الذي فجرته تلك المقولة.

وتفترق هذه المقولة عن مقولة صدام الحضارات في أنها حاولت توجيه أنظار الغرب إلى داخل حضارته، إلى عالمه الثقافي، واعتبار أن التحدي والصدام اللذين سوف يواجههما الغرب سيكونان من داخله وفيما بينه. بسبب انقسامات ثقافية حول المفهوم الكلي للحضارة الغربية ومراجعة هذا المفهوم.

في حين سعت مقولة صدام الحضارات إلى توجيه أنظار الغرب إلى خارج حضارته، وخارج عالمه الثقافي، واعتبار أن التحدي والصدام اللذين سيواجههما الغرب سيكونان من خارج حضارته، بسبب انقسامات ثقافية ودينية حول مفاهيم كلية ترتبط بالرؤية إلى الدين والثقافة والهوية والعالم.

وإذا كانت مقولة جيمس كورت تكشف عن انقسامات الغرب على نفسه وحول حضارته، فإن مقولة صمويل هنتنغتون كانت تحرض الغرب على توحيد جبهته الداخلية، وتحصين كتلته الغربية، حفاظًا على تفوقه الحضاري وتفرده العالمي.

ولعل هذه المفارقة كانت واضحة عند البعض هناك،

خصوصًا عند أولئك الذين كانت لديهم هواجس البحث عن عدو جديد يوظف في خلق الشعور بالتحدي، لكي تحافظ تلك المجتمعات على تماسكها، وديناميةالتنافس فيها، خوفًا من الإحساس بالتراجع بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وتصدع الماركسية.

الطرف والأيديولوجيا اللذان وظفهما الغرب لتعزيز الشعور بالتحدي والمنافسة والتسابق في داخل المجتمعات الغربية، والذين لديهم مثل هذا الإدراك لهذه المفارقة لا شك أنهم ينتصرون لمقولة صدام الحضارات.

أما الذي يلفت نظرنا مجددًا إلى مقولة جيمس كورت، فهو أنها تفسر لنا طبيعة التحول الراهن في الثقافة الأمريكية، التي تشهد صعود المحافظين الجدد واليمين المسيحي، وهم الذين وصفهم كورت بأنهم يمثلون مرحلة ما قبل الحضارة الغربية، وهي المرحلة التي كان الدين يمثل فيها مركزًا أساسيًا.

ويتصل بهذا المنحى الكتاب الذي أصدره الكاتب الفرنسي أندريه غلوكسمان بعنوان (غرب ضد غرب أو الغرب ضد نفسه)، حيث كشف فيه عن الانقسامات الداخلية في الغرب، وما يجري بين أمريكا وأوروبا من تجاذبات وانقسامات وتباعدات، على مستوى الأفكار والسياسات والاقتصادات، مما يعزز من هذه الصورة. وهكذا الحديث عن أوروبا القديمة وأوروبا الجديدة هو الآخر يجسد واقعًا فعليًا لهذه المقولة.

- 3 -
غربيون يناقشون هل يضمحل الغرب؟

كتاب المفكر الألماني أزوالد اشبنغلر (أفول الغرب)، أو (تدهور الغرب)، أو (انحطاط الغرب)، بحسب اختلاف الترجمات، منذ صدوره في العقود الأولى من القرن العشرين، الجزء الأول اكتمل تأليفه عند نشوب الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، وصدرت طبعته الأولى بعد نهاية الحرب سنة 1918م، أما الجزء الثاني فقد صدر سنة 1922م.

منذ صدور هذا الكتاب الذي أثار جدلًا واسعًا في وقته ولزمن طويل داخل الفكر الغربي، والمؤلفات والدراسات التي تبشر بنهاية الغرب أو بسقوطه واضمحلاله وتراجعه، أو بهذه النزعة التشاؤمية بأقسامها الثقافية والتاريخية كما وصفت في الكتابات الغربية، لم تتوقف أو تنحسر، بل ظلت في حالة من الاستمرارية والتراكم والتعدد، في الحقب والأزمنة المتلاحقة، ومن مختلف المصادر والمنابع الفكرية، وليس فقط من النخب اليسارية المعارضة للنزعة الرأسمالية والليبرالية، أو من الملونين، أو من الأقليات العرقية واللغوية الناقمة بشدة على أنماط التمييز العنصري والطبقي الممارس ضدها. أو من بعض

الجماعات الدينية التي تبشر بنهاية العالم، أو تلك التي تعارض طغيان الإفراط المادي والانحلال الأخلاقي والاجتماعي، كما أنه ليس من بعض المنشقين على النظام الفكري هناك كالذين اعتنقوا الإسلام مثلًا، وإنما تشمل حتى الذين ينتمون إلى تيارات فكرية شديدة التوافق والاندماج مع الاتجاه العام هناك.

ولعل أوسع كتاب تحدث عن هذه الاتجاهات والجماعات والمنابع الفكرية في الغرب، هو كتاب (فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي) الصادر سنة 1997م، لمؤلفه آرثر هيرمان أستاذ التاريخ بجامعة جورج ماسون ومنسق برنامج الحضارة الغربية.

ويحاول هذا الكتاب الثري في مصادره ومراجعه، وفي كثافة أفكاره وأطروحاته، أن يطرح أسئلة المصير التي ظلت وما زالت تواجه الغرب، وكيف تطورت النقاشات الفكرية والنقدية وتلاحقت حولها، من خلال تتبع فكرة الاضمحلال.

وحسب رأي المؤلف، إن هذا الكتاب يتحدث عن أصول انتشار فكرة ثقافية قديمة هي فكرة اضمحلال الغرب، وسوف نرى كما يضيف كيف شكلت هذه الفكرة الأساس المظلم للفكر الأوروبي الحديث في القرن التاسع عشر، وكيف أصبحت تقريبًا الموضوع الأكثر سيادة وتأثيرًا في الثقافة والسياسة في القرن العشرين، وفي مقابل كل مثقف غربي يخشى اضمحلال مجتمعه هناك مثقف آخر يتطلع إلى ذلك بلهفة وفرح.

ويعتبر هيرمان أن السؤال الرئيسي الذي يطرح أمام الغرب اليوم، ليس هو هل بالإمكان إنقاذ الحضارة الغربية؟ وإنما السؤال هو: هل تستحق الإنقاذ أم لا؟ وهذه النظرة القاتمة والأكثر راديكالية كما يقول عنها هيرمان ويصفها بالتشاؤمية الثقافية، التي تجسد رؤية خاصة للتاريخ الحديث، متمثلة في عنوان كتاب أزوالد اشبنغلر (أفول الغرب).

وتدعي هذه التشاؤمية الثقافية، أن العالم الحديث والإنسان الحديث مأسوران في فخ عملية اضمحلال وتدهور وسقوط حتمي، لذلك فإن قضية المستقبل الملحة حسب هذه الرؤية ليست هي بقاء الحضارة الغربية أو زوالها، وإنما هي ماذا سيحل محلها؟.

ويختتم هيرمان مقدمته بأن بذرة اليأس والشك الذاتي قد أصبحت عامة ومتغلغلة في حياتنا، لدرجة أننا أصبحنا نقبلها كموقف ثقافي عادي، حتى عندما يكون واقعنا متناقضًا معها على نحو مباشر.

وفي خاتمة الكتاب، وفي الأسطر الأخيرة منه، اعتبر هيرمان أن مستقبل المجتمع لن يكون من صنع قانون حتمي للتقدم أو الضعف، وإنما هو ما يقرره أعضاؤه، وبضربة واحدة تنكسر الثورة، وتتبدد دورة الوهم واليأس، لا في العالم أو في الخارج، وإنما حيث هي موجودة بالفعل في عقول البشر.

وإذا كانت هذه هي النتيجة أو الحصيلة النهائية التي

توصل إليها هيرمان، فلا شك أنها سهلة وبسيطة ولا تحتاج إلى عناء في توثيقها والاستدلال عليها.

والموقف الأشد إثارة في هذا الشأن، هو ما جاء في كتاب (موت الغرب) لمؤلفه باترك جيه بوكنان الذي كان مستشارًا كبيرًا لثلاثة من الرؤساء الأمريكيين، ومرشحًا رئاسيًا لحزب الإصلاح سنة 2000م، وصاحب كتاب (جمهورية لا إمبراطورية)، وقد صدر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأثار جدلًا واسعًا، وانقسمت حوله اتجاهات الرأي هناك.

وقد أعاد هذا الكتاب طرح تساؤلات المصير، وفتح الحديث مجددًا عن نهاية الغرب أو موته كما يصفه المؤلف، كما طرح تساؤلات حساسة وحرجة. من هذه التساؤلات: هل نحن في وقت شفق الغروب في الغرب؟ وهل موت الغرب لا رجعة عنه؟ أم أن هذا القول مثله، مثل كل التنبؤات السابقة عن انحطاط الغرب، وموته لن يقع. وأن هذه الكأس أيضًا سوف تبتعد وتمر، ويكشف أن جميع الذين قالوا لابد لنا أن نشرب هذه الكأس كانوا حمقى؟ فلماذا لا تنتمي التنبؤات بموت الغرب إلى الرف الخلفي نفسه، مثل التنبؤات عن الشتاء النووي والاحترار الكوني؟.

وحسب رأي بوكنان فإن موت الغرب ليس تنبؤًا بما سيحدث، إنه تصوير ما يحدث الآن، ويضيف بوكنان: إن أمم العالم الأول تموت، وهي تواجه أزمة مميتة، ليس

بسبب ما يحدث في العالم الثالث، ولكن بسبب ما يحدث في عالم الغرب.

لا شك أن هذه ظاهرة تلفت الانتباه بشدة، وذلك لتعاقبها وعدم توقف الحديث عنها، حتى أصبحت تمثل تيارًا ثقافيًا ممتدًا في منظومة الفكر الغربي، وهي ظاهرة بحاجة إلى تحليل وتفسير.

ابتداءً لابد من القول: لست من الذين يبشرون بنهاية الغرب وسقوطه وأفوله، وترويج مثل هذه الكتابات والحماسة لها، بقصد إرضاء الذات أو الكشف عن عيوب الغرب، وكيف أن مفكريه يعترفون بموته واضمحلاله، كما جرت على ذلك بعض الكتابات، التي طالما بشرت بسقوط الغرب لكنها لم تغير من واقعنا شيئًا، وبقي الجهل والاستبداد والتخلف على حاله بدون تغيير.

من جهة أخرى، فإن هذا النمط من الكتابات لا يثير الخوف أو الرعب داخل الفكر الغربي والمجتمع الغربي، كما لا يجري التعامل معه بنوع من الإهمال أو عدم الاكتراث، وإنما ينظر إليه على أنه كتابات منبهة تلعب دور اليقظة، من خلال فتح النقاش الواسع حولها.

فقد تعودت المجتمعات الغربية وبرهنت على قدرتها على الاستجابة للتحدي الذي يعترضها، وهي تتعامل معه بطريقة استثارة العقول والطاقات، وتدفع العقلاء والحكماء وأهل الخبرة والاختصاص نحو تحمل المسؤوليات والنهوض بالواجبات، والتعاطي مع المشكلات، ومواجهتها

بالتفكير الجماعي والتخطيط المنهجي والاستشراف المستقبلي، وبذل أقصى درجات الجهد والطاقة والفاعلية، والرهان يجري غالبًا في نطاق التغلب على المشكلات والتحديات، وفي مجال القدرة على التجاوز والتجدد الذاتي، وهذا ما ينبغي أن ندركه ونتعلمه نحن!

- 4 -
أحداث سبتمبر تحرك النقاش الفكري والفلسفي في الغرب

توقف العديد من العلماء والمفكرين في الغرب، وفي العالم، أمام أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لكي يقدموا قراءات غير سياسية، ومختلفة عن زوايا نظر المحللين السياسيين، وكانت رؤية هؤلاء، أن هذه الأحداث ينبغي أن تقرأ في إطار المنظور الكلي إلى العالم، وعلى قاعدة المدة الطويلة للتاريخ، وبمنهجيات غير تلك التي اعتادها معظم الناس، في النظر إلى مثل هذه الأحداث الكبيرة والفاصلة.

بمنهجيات قادرة على تكوين تصورات شاملة، وتفسيرات كلية وجامعة، فلم تكن مقنعة لهؤلاء العلماء والمفكرين، تلك النظرات والتحليلات التي قد يعتبرونها قاصرة من جهة أحادية الرؤية، ولحظية الموقف، ومحدودية الأفق، ولا تلامس إلا ما هو قريب ومباشر ونسبي.

فهؤلاء العلماء والمفكرون تستوقفهم عادة وباهتمام، الأحداث الكبرى والمؤثرة في مجريات التاريخ الإنساني العام، التي بإمكانها أن تغير مسارات الأفكار، وتقلب

حركة المفاهيم، وتدفع العالم لأن يطرح على نفسه أسئلة المستقبل والمصير.

كما إن هؤلاء العلماء والمفكرين، يجدون في مثل هذه الأحداث، مجالًا حيويًا لاختبار النظريات والمنهجيات والمفاهيم، وكذلك البراهين والاستدلالات، واكتشافها والتعرف إليها من جديد، فبعضها تتحقق قيمتها وفاعليتها وتماسكها بعد هذه الأحداث، وبعضها الآخر يظهر عليه الضعف والقصور والتهافت.

وهذا ما يظهره لنا التاريخ الإنساني ويعرفنا به، فقد ارتبط مصير النظريات والمنهجيات والمفاهيم، صعودًا وهبوطًا، تقدمًا وتراجعًا، بقاء وفناء، بأحداث كبرى كانت شديدة الفاعلية والتأثير على مستوى الاجتماع الإنساني والفكر الإنساني.

فعصر النهضة في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي، ارتبط بأحداث كبرى في ذلك العصر، منها سقوط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية سنة 1435م، وسقوط الأندلس سنة 1492م، واكتشاف أمريكا في السنة نفسها.

وارتبط عصر الأنوار في القرن الثامن عشر بالثورة الفرنسية، التي وصفها المؤرخون الأوروبيون بالثورة الكبرى سنة 1789م، وكذلك ارتبطت الحداثة هناك في القرن التاسع عشر بالثورة الصناعية.

وفي التاريخ المعاصر، يبرز واضحًا ما آلت إليه

الماركسية التي تصدعت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وأحداث سنة 1989م وفي مقدمتها سقوط جدار برلين.

وتجري هذه القاعدة أيضًا على التاريخ الإسلامي، وبدون التوغل في العصور القديمة، ومع الاقتراب من العصور الحديثة والمعاصرة، نلاحظ أيضًا ارتباط مصير النظريات والمنهجيات والمفاهيم صعودًا وهبوطًا ببعض الأحداث الكبرى، فمع سقوط الخلافة العثمانية سنة 1924م تلاشت نظرية الجامعة الإسلامية، التي كانت نظرية المصلحين المسلمين في نهضة العالم الإسلامي.

ومع نجاح الثورة المصرية سنة 1952م صعدت الفكرة القومية، ومع نكسة حرب حزيران ـ يونيو 1967م تراجعت الأفكار القومية والاشتراكية والعلمانية، ومع انتصار الثورة في إيران صعدت الأفكار الإسلامية، إلى غير ذلك من أحداث تؤكد ارتباط مصير النظريات والأفكار، بأحداث تحرك الواقع وتغير اتجاهاته ومصائره.

وفي هذا السياق تأتي أحداث الحادي عشر من سبتمبر، التي فتحت وما زالت نقاشات فكرية وفلسفية في غاية الجدية، واكتسبت هذه النقاشات أهمية من جهة موضوعاتها وقضاياها، ومن جهة نوعية الأشخاص المشاركين والمنخرطين فيها، وكذلك من جهة استشرافاتها.

ومن طبيعة النقاشات التي ترتبط بأحداث من نوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر وحجمها، أن تتعدد حولها وجهات النظر وقد تتباين أو تتصادم.

ومن هذه النقاشات ما فتحته المجلة الفلسفية البريطانية

في عددها الصادر خلال الربع الأول من سنة 2003م، حيث أعلنت في أحد مقالاتها نهاية وموت فلسفة ما بعد الحداثة، وحسب ما جاء فيها: يؤسفنا أن نعلم قراءنا بوفاة ما بعد الحداثة المريضة منذ سنوات عديدة، والتي لفظت أنفاسها أخيرًا، بسبب الجراح القاتلة التي أصابتها في إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م... نحن نعتقد أن حركة ما بعد الحداثة وصلت إلى المحطة الأخيرة، وبالتالي هي لم تعد قادرة على أن تنتج شيئًا مهمًا.

هذا النقد لفلسفة ما بعد الحداثة، يتوجه أساسًا إلى المبادئ التي ترتكز عليها هذه الفلسفة، كالنسبية والشك واللانهائية، وتصوير أن هذه الفلسفة غير قادرة على فهم وتحليل وتفسير أحداث أيلول ـ سبتمبر، أو التعاطي معها.

وفي اتجاه آخر من هذه النقاشات، ما طرحه المفكر الفرنسي مارسيل كونش، في محاورة فكرية معه وردت في كتاب صدر سنة 2003م عنوانه (اعترافات فيلسوف)، حيث وجد أنه قد حان الأوان لتشكيل فلسفة كونية، تناسب جميع الشعوب وتتجاوز تناقضاتها وصراعاتها، وتؤدي إلى اندماج المجتمع البشري وانتشاله من أحقاده وأضغانه، سواء أكانت عرقية وقومية أم دينية وطائفية، فالبشر متحدون في تكوينات طبيعتهم الإنسانية.

ولتشكيل هذه الفلسفة الكونية الجديدة، يدعو كونش إلى إيجاد طريقة توحد فلسفة الغرب وفلسفة الشرق، حول بعض المبادئ الأساسية والمشتركة التي يمكن للبشرية أن تتمحور حولها.

ويعتبر كونش أن بلورة فلسفة جديدة للبشرية، هي ما ينبغي أن يكون الرد على أحداث 11 سبتمبر في حجمها ومستواها.

ويقارب هذا الرأي ما طرحه الدكتور محمد أركون، في كتاب مشترك مع عميد كلية العلوم الاجتماعية والاقتصادية بالمعهد الكاثوليكي في باريس جوزيف مايلا، صدر الكتاب سنة 2003م، بعنوان (من منهاتن إلى بغداد.. فيما وراء الخير والشر)، حيث يرى أركون أنه ينبغي لحكومة الولايات المتحدة أن تفهم هذه الكارثة، على أساس أنها نداء يائس صادر من الأعماق، إنه نداء يدعو إلى توليد فكر جديد، وممارسة سياسة جديدة على مستوى العالم كله.

والمطلوب حسب رأي أركون تحويل هذا الحدث المأسوي إلى حدث تدشيني، أي يدشن تاريخًا جديدًا من التضامن، وليس التصارع بين الأمم والشعوب. ويدعو أركون إلى أن لا يكون الرد الأمريكي عسكريًا وحربيًا، لأن المشاكل والتحديات التي أثارتها أحداث سبتمبر لها طابع فلسفي وروحاني، والطريقة التي يفضلها أركون، هي الطريقة القائمة على معالجة المشاكل والقضايا من جذورها، وبأسلوب إنساني متضامن مع آلام البشر ومعاناتهم.

أما عن تفسيره لهذا الحدث، فإنه يكشف حسب رأي أركون عن ذلك الصراع الطويل، الذي اندلع في حوض البحر الأبيض المتوسط منذ ظهور الإسلام قبل خمسة عشر

قرنًا، والذي كان سببًا لتراجع المسيحية وانحسارها في الشرق. ومنذ ذلك التاريخ ابتدأت الخصومة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ثم تعمقت مع الحروب الصليبية، وتجددت مع الحروب العثمانية، وامتدت إلى الحروب الاستعمارية، وصولًا إلى الصراع الطويل بين العرب وإسرائيل.

لهذا فإن زخم التاريخ، والعداء المستحكم بين الطرفين الإسلامي والأوروبي، هما اللذان أديا حسب رأي أركون إلى مثل أحداث سبتمبر.

وعلى هذا الأساس حاول أركون أن ينخرط في نقد جذري للانغلاقات المزمنة كما يصفها داخل التراث الإسلامي، ونقد جذري من جهة أخرى لانحرافات الحداثة الغربية. وأما المعركة الجارية فهي في رأي أركون غير متكافئة على الإطلاق، لأنها تتم بين مجتمعات مسحوقة تعيش أسوأ ظروفها التاريخية والانتكاسية، وبين مجتمعات قوية ومتقدمة تفرض خياراتها الفلسفية والسياسية على العالم كله.

وبخلاف هذه الرؤية الفلسفية والأخلاقية التي تحدث عنها مارسيل كونش ومحمد أركون، والتي قد يصنفها البعض في إطار الفلسفة المثالية، هناك من يدفع بالعودة إلى فلسفة المفكر الإنجليزي توماس هوبز، الذي تقوم فلسفته على التشكيك في الطبيعة البشرية، حيث يعتبرها ميالة إلى الشر والأنانية، وأن أشد ما يحرك الناس هو الرغبة في

القوة والخوف من الآخرين، وبالتالي لابد من تحكيم القوة وفرض السيطرة في العلاقات بين الناس.

وحسب هذه الفلسفة فإن سياسة الأخلاق والقانون لا تجدي نفعًا، والاحترام لا يفرض إلا بالقوة. وهذه الفلسفة تمثل في الوقت الحاضر جوهر السياسات الأمريكية. وعودة هذه الفلسفة كانت على حساب الفلسفات التي ترتكز على نزعات أخلاقية، وترى إمكانية تربية وتهذيب الطبيعة البشرية لكي تصبح ميالة إلى الخير ونابذة للشر.

والمفارقة اللافتة في هذه النقاشات الفكرية والفلسفية، هي ما يظهر عليها من تباعد أو تمايز بين أنظمة التفكير الأوروبية وأنظمة التفكير الأمريكية، أو بين النزعات الفلسفية الأوروبية والنزعات الفلسفية الأمريكية.

ومنشأ هذا التباعد أو التمايز، هو أن أوروبا قد اختبرت فلسفاتها وجربتها على الأرض، ودخلت في سجالات ونقديات طويلة ومعمقة حولها، لذلك فإن رؤيتها لهذه الفلسفات ومنازعها واتجاهاتها تتصف بالنضج والإدراك.

في حين أن أمريكا لم تختبر تلك الفلسفات وتجربها في محيطها وعالمها وتاريخها، لذلك فإن رؤيتها هي أقل نضجًا وعمقًا. ولعل هذا ما يفسر اندفاع الأوروبيين أو بعضهم إلى تبني فلسفات أخلاقية وإنسانية، في مقابل اندفاع الأمريكيين إلى تبني فلسفات تنزع نحو القوة والهيمنة.

- 5 -

أفول الإمبراطورية الأمريكية وسقوطها

منذ صدور كتاب (أفول الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وتحديدًا سنة 1776م حين طبع في جزئه الأول، لمؤلفه إدوارد جبسون، والحديث يتردد عن سقوط الإمبراطوريات، وكيف أن المآل النهائي لهذه الإمبراطوريات هو الأفول والسقوط الحتمي، كما هي حال الإمبراطورية الرومانية التي عدت أعظم إمبراطورية ظهرت في التاريخ الأوروبي القديم، وجسدت أفضل مثال لفكرة الدولة الإمبراطورية عند الأوروبيين، ومثلت النموذج الذي تقارن به وتقاس عليه بقية الإمبراطوريات الأخرى التي ظهرت قبلها وبعدها، وما زالت إلى اليوم هي موضع مقارنة وقياس في الغرب.

وقد فتح كتاب جبسون خيال الأوروبيين مؤرخين وسياسيين على فكرة مزعجة وغير محبذة، وهي فكرة سقوط الإمبراطوريات مهما كان مجدها وعظمتها، ومهما وصلت قوتها وشوكتها، ومهما امتدت وتوسعت مساحتها ورقعتها الجغرافية والبشرية، ومهما طغت وتجبرت وغزت واستعمرت فإن مصيرها إلى زوال وأفول.

ويبدو أن البريطانيين كانوا من أكثر الشعوب الأوروبية

الذين شبهوا حالهم بحال الإمبراطورية الرومانية، وهذا ما كشفه وأكده الكاتب البريطاني بيرس برندون في كتابه (أفول الإمبراطورية البريطانية وسقوطها 1781 ـ 1997م) الصادر سنة 2007م، الذي تقصد اختيار هذا العنوان لكي يجاري ويحاكي كتاب جبسون، ويضع مصير الإمبراطورية البريطانية على طريق الإمبراطورية الرومانية، وذلك للتشابه الكبير بينهما، الذي كان مدركًا عند البريطانيين أنفسهم ليس الآن فحسب، وإنما يرجع حسب تقدير برندون إلى عصر الإمبراطورية الكلاسيكي القديم، حيث كان حكام المستعمرات مدركين على الأغلب التشابه الكبير بين إمبراطوريتهم والإمبراطورية الرومانية.

كما أن اختيار هذا العنوان أراد منه برندون التذكير بكتاب جبسون الذي يسبقه بما يزيد على قرنين وعقدين من الزمان، بقصد أن يكون متصلًا ومقترنًا به، بشكل يذكر فيه كل كتاب بالكتاب الآخر ويعرف به، بمعنى أن برندون أراد القول بأن البحث عن أسباب أفول الإمبراطورية البريطانية وسقوطها يتطلب العودة إلى تحليل أسباب أفول الإمبراطورية الرومانية وسقوطها هذا من جهة، ومن جهة أخرى لعل برندون أراد من هذا التشابه كما لو أنه يريد أن يقتفي أثر جبسون في كتابه الذي بدأ يتردد منذ زمنه شبح تداعي الإمبراطورية وسقوطها.

وتأكدت عند برندون أن الإمبراطوريات مهما طال عمرها، لابد أن تتصدع وتضمحل عمليًا، وذلك لأن الاستيلاء والسيطرة هما باستمرار موضع ازدراء ومقاومة.

وكما كانت روما أكبر وأهم إمبراطورية في عصرها، كذلك كانت بريطانيا أكبر وأهم إمبراطورية إلى ما قبل نهاية النصف الأول من القرن العشرين، وتجلت فيها بوضوح كبير ملامح وسلوك الدولة الإمبراطورية، واحتفظت بهذا الوصف لفترة طويلة بدون منازع، وظل يتردد على لسان الجميع بدون تشكك أو ريب، حتى عرفت بالإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، لكن غابت عنها وأفلت الشمس، وحل مكانها الضباب.

واليوم بدأت الأنظار تتجه صوب الإمبراطورية الأمريكية التي ورثت في العصر الحديث الإمبراطورية البريطانية، وهي الإمبراطورية التي بشر بها المؤرخ البريطاني أرنولد تويمبي في كتابه (دراسة التاريخ)، حين أعلن أن القرن العشرين هو القرن الأمريكي الذي سيشهد صعود أمريكا كقوة عالمية مسيطرة.

وتجدد هذا الإعلان صراحة حين نشر مؤسس مجلة تايم الأمريكية هنري لويس سنة 1941م مقالته الشهيرة التي حملت عنوان (قرن أمريكا)، حيث قرر فيها أن أمريكا لكي تستطيع الهيمنة على العالم عليها ألا تبدو الأقوى فحسب بل الأفضل أيضًا، وأن تشاطر الآخرين قمرة القيادة.

هذه المقالة يجري تذكرها اليوم عند الأمريكيين أنفسهم، لكن ليس للحديث عن صعود أمريكا وتفوقها على العالم، وإنما عن تراجع أمريكا وانحدارها في العالم، حيث تغيرت الصورة جذريًا عن أمريكا وقوتها وتفوقها ما

بين مطلع القرن العشرين، ومطلع القرن الواحد والعشرين، وهذا ما يعرفه الأمريكيون قبل غيرهم.

وحين أشار إلى هذه المقالة الكاتب الأمريكي كريستوفر لاش في مقدمة كتابه (ثقافة النرجسية) الصادر سنة 1979م، كتب يقول: بعد أكثر من ربع قرن بقليل من إعلان هنري لوس القرن الأمريكي، هبطت الثقة الأمريكية بشدة، فالذين كانوا يحلمون بالسلطة العالمية، يائسون الآن من حكم مدينة نيويورك، الهزيمة في فيتنام، الكساد الاقتصادي، النضوب الوشيك للموارد الطبيعية، كلها عوامل أدت إلى إحداث حالة من التشاؤم في الدوائر العليا، تنتشر الآن في أرجاء المجتمع، حيث فقد الناس الثقة بقيادتهم كما تحكم أزمة الثقة هذه قبضتها على الدول الرأسمالية الأخرى.

وقبل أن يودع القرن العشرون نهايته، ظهرت العديد من الكتابات والدراسات التي جلبت التشاؤم على أمريكا ومستقبلها في العالم، ودقت ناقوس الخطر، منذرة بأفول الإمبراطورية الأمريكية وسقوطها، رابطة هذا المصير بمصير الإمبراطورية الرومانية في التاريخ القديم، والإمبراطورية البريطانية في التاريخ الحديث.

واللافت في هذه الكتابات والدراسات هو تكاثرها وتواترها خصوصًا مع مطلع القرن الحالي، بشكل يستوقف الانتباه، ويدعو إلى التأمل في هذه الظاهرة التي لم يعد بالإمكان تغافلها، والتنكر لها، وعدم الاكتراث لها،

والتقليل من شأنها، والتعاطي معها كما لو أنها تنتمي إلى تلك النزعة التي طالما ظهرت في التاريخ الثقافي الأوروبي الحديث، وعرفت بالنزعة التشاؤمية الثقافية، التي تحولت فيما بعد إلى أدب بات يعرف بهذا المسمى، ويجري الحديث عنه كما يجري الحديث عن غيره من الأنماط الأدبية الأخرى.

وما يؤكد جدية هذه الكتابات والدراسات وقيمتها أنها تنتمي إلى حقول معرفية متعددة فكرية وتاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية، وصدرت عن علماء ومفكرين وباحثين ينتمون إلى هذه الحقول المعرفية وغيرها، ويرجعون في أصولهم إلى بيئات أوروبية، مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا، إلى جانب أمريكا نفسها.

وبات من الصعوبة حصر هذه الكتابات والدراسات والإحاطة التامة بها، لأنها ما زالت تتوالى، ويبدو أنها مرشحة للتزايد وعدم التوقف والانقطاع، وما سوف أشير إليه هو مجرد عينة في هذا الشأن، لكنها عينة شديدة الأهمية والدلالة، ولعلها الأكثر أهمية في هذا الوقت.

من هذه الكتابات ما أشار إليه الباحث الأمريكي بول كيندي في كتابه (قيام القوى العظمى وسقوطها) الصادر سنة 1987م، الذي تحدث فيه أن أمريكا ستواجه المصير نفسه الذي واجهه البريطانيون من قبل في نهاية القرن التاسع عشر، وهو التراجع والانحدار كقوة عالمية، نتيجة التوسع الإمبريالي المفرط.

ونقل الدكتور آرثر هيرمان في كتابه (فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي) الصادر سنة 1997م، أن هناك من حاول الاستعانة بكتاب بول كيندي في تدعيم مواقفه وتحليلاته التي تصب في المنحى نفسه، ومن هؤلاء المحلل السياسي الأمريكي كيفن فيلبس الذي استخدم أفكار كيندي للمقارنة بين عواصم الإمبراطوريات الثلاث واشنطن دي سي، ولندن القرن التاسع عشر، وروما الإمبراطورية، معتبرًا أن كثيرًا مما حدث آنذاك يحدث اليوم، كانتشار الترف والانحلال الاجتماعي، وفقدان الوطنية القديمة، وكثرة الشكوى من الانهيار الأخلاقي، الوضع الذي يعني في نظر فيليبس أن أعراض الاضمحلال تقف دليلًا على الاضمحلال ذاته.

وفي أواخر تسعينيات القرن العشرين أثار الباحث الروسي إيغور بانارين جدلًا واسعًا امتد من أوروبا إلى أمريكا، حين تحدث بثقة عالية عن انهيار الولايات المتحدة وتفككها في القرن الواحد والعشرين، وحسب رأيه إن الأزمة الأخلاقية والاقتصادية في أمريكا يمكن أن تقودها في المستقبل المنظور إلى تصدعات واضطرابات اجتماعية وسياسية تضاهي الحرب الأهلية، وسيتمخض عنها تفكك الولايات المتحدة وانشطارها إلى ستة أجزاء، أو ستة أقاليم، وستغدو هذه الأقاليم واقعة تحت تأثير قوى خارجية متاخمة لها مثل الاتحاد الأوروبي وكندا وروسيا والمكسيك والصين واليابان.

وسيحدث هذا التصدع والتفكك في نظر بانارين نتيجة

أسباب ثلاثة، السبب الأول يعود إلى الجانب النفسي، حيث يقف المجتمع الأمريكي اليوم على شفا كارثة نفسانية، ويعود السبب الثاني إلى طبيعة الأزمة الاقتصادية وفقدان الدولار وظيفته كعملة عالمية، أما السبب الثالث فيرجع إلى المقاومة المتصاعدة التي تتعرض لها السياسات الأمريكية الخارجية على نطاق عالمي.

وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، اعتبر الباحث الأمريكي في جامعة ييل إيمانويل فاليرشتاين مؤلف كتاب (نهاية العالم كما نعرفه)، أن السلام الأمريكي انتهى، وأن التحديات من فيتنام والبلقان إلى الشرق الأوسط و11 سبتمبر كشفت حدود التفوق الأمريكي، وبات السؤال الآن في نظره هو: هل تخبو الولايات المتحدة بهدوء أم أن المحافظين الأمريكيين سيقاومون ذلك وسيحولون الانحدار التدريجي إلى سقوط خطر وسريع!

أما الحدث الذي كان له أعمق الأثر في النقاش السائد حول إمكانية تراجع الإمبراطورية الأمريكية وأفولها، هو الحدث العراقي، حيث تحول غزو العراق واحتلاله إلى كارثة وصفها الجنرال الأمريكي المتقاعد وليام أودوم بأنها أكبر كارثة استراتيجية في تاريخ الولايات المتحدة، ووصفها رئيس مجلس الأمن القومي الأسبق زبيغنيو بريجنسكي بأنها كارثة تاريخية واستراتيجية.

فقد استنزف هذا الغزو والاحتلال أمريكا سياسيًا واقتصاديًا وماليًا وبشريًا، والأكثر خطورة من كل ذلك هو

أنه استنزفها نفسيًا، وأطاح هيبتها وصورتها الأخلاقية في العالم، وأثار الكثير من المخاوف والهواجس القلقة حيال أمريكا ومستقبلها في العالم.

ونتيجة لذلك ارتفعت الأصوات التي تنذر بخطر تراجع الولايات المتحدة وانحدارها، ففي إثر زيارة الرئيس الصيني جنشاو إلى أمريكا في أبريل 2006م، اعتبرت صحيفة الأنديبندنت البريطانية أن هذه الزيارة تؤكد حتمية فقدان واشنطن تفوقها الاقتصادي لمصلحة الصين في المستقبل القريب، ونقلت عن من أسمتهم خبراء ومحللين اقتصاديين وسياسيين أمريكيين ودوليين قولهم بأن الولايات المتحدة تدخل مرحلة الانحطاط الحتمي، شبيهة بتلك التي تعرضت لها بريطانيا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وتفكك إمبراطوريتها.

وفي وقت آخر، حذر المراقب العام للولايات المتحدة ديفيد ولكير في حوار مع صحيفة فايننشال تايمز البريطانية في أغسطس 2007م، من احتمال سقوط الإمبراطورية الأمريكية على غرار الإمبراطورية الرومانية من قبل، وذلك لوجود الأعراض التي أدت إلى زوال سلطة روما وأفول شمسها إلى الأبد. فهناك تشابه كبير في نظر ولكير بين الوضع الحالي للولايات المتحدة وما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية في آخر عهدها، من حيث الغطرسة والثقة الزائدة بالنفس، والتوسع العسكري في البلدان الأخرى، وتزايد ديون الحكومات الأجنبية على الحكومة الاتحادية الأمريكية.

ومن أكثر الكتابات وضوحًا في هذا الصدد، مقالة فيليب غولوب في لوموند ديبلوماتيك الطبعة الإنجليزية عدد أكتوبر 2007م، التي حملت عنوان (شمس القرن الأمريكي تغرب مبكرة بعد نهاية الإمبراطورية)، في هذه المقالة قدم غولوب تحليلًا سياسيًا ارتكز فيه على حدثين كبيرين مختلفين من حيث الطبيعة والوظيفة، الحدث الأول يتصل بالحاضر، ويمثل العامل الذي لعب دور المأزق، وهو حدث غزو العراق واحتلاله. والحدث الثاني يتصل بالتاريخ، ويمثل العامل الذي لعب دور المقارنة والتشبيه، وهو حدث تصدع الإمبراطورية البريطانية ونهايتها.

فقد افتتح غولوب مقالته من السطر الأول بقوله: إن غزو واحتلال العراق تسببا بنشوب أزمة في أوساط نخبة السلطة في الولايات المتحدة، هي أعمق من تلك التي نجمت عن الهزيمة التي لحقت بها في فيتنام قبل ثلاثين سنة.

وذلك لكون هذه الحرب الكارثية قد كسرت في نظر الأمريكيين الجيش الأمريكي تقريبًا، وأوهنت دولة الأمن القومي، وخفضت بحدة إن لم يكن نهائيًا من مشروعية أمريكا الكونية، وقدرتها على تشكيل العالم ووضع الأجندة الكونية.

وهذا يعني في نظر غولوب أن كارثة العراق وضعت حدًا لنهاية حلم الإمبراطورية الأمريكية التي اعتبرت نفسها منذ أربعينيات القرن العشرين أنها أصبحت الوريث الشرعي

والوحيد للأصول الاقتصادية والسياسية للإمبراطورية البريطانية حيث انتقل الصولجان إليها، لكن وبعد ستين عامًا بدأ هذا الحلم يتلاشى، وبدأت الشمس تغرب عن القرن الأمريكي مبكرة.

وفي هذا السياق أيضًا، جاءت مقالة الكاتب الأمريكي تشارلي ديز في ديسمبر 2007م، بعنوان (الإمبراطورية الأمريكية تسير إلى الاضمحلال)، واختتمها في الأسطر الأخيرة منها بقوله: إنني أرى أن إمبراطوريتنا تسير نحو الاضمحلال والانهيار.

وفي هذا السياق كذلك، جاء كتاب المؤرخ والأنثروبولجي الفرنسي إيمانويل تود الذي حمل عنوان (ما بعد الإمبراطورية.. دراسة في تفكك النظام الأمريكي) الصادر سنة 2002م، حيث اعتبر فيه أن الإمبراطورية الأمريكية هي اليوم في طور التفكك والأفول، مستندًا في ذلك إلى عوامل ومعطيات، وحقائق وأرقام، اقتصادية وفكرية وديمغرافية وعسكرية، ومستعينًا بخبرته في المركز الوطني الفرنسي للأبحاث العلمية.

هذه عينة من المواقف والكتابات التي نعرفها، ولا نعلم ما يدور في المواقف والكتابات التي لا نعرفها، أو تلك التي ستأتي لاحقًا. والمؤكد في هذه المواقف والكتابات أنها لا يمكن أن تكون كلها بعيدة عن جادة الصواب، كما لا يمكن تخطئتها كلها، خصوصًا بعد هذا التعاضد والتواتر.

والشيء الأكيد في كل هذه المواقف والكتابات أن الوهن بدأ يدب في كيان الإمبراطورية الأمريكية، والوهن هو أخطر ما يصيب الأمم لأنه يظل يسري في الخفاء، وبدون انكشاف، ولا يتوقف عند حد، وأعراضه لا تظهر سريعًا، إلى أن يتمكن ويستفحل وعندئذ يصعب ضبطه والسيطرة عليه.

وكما كان البريطانيون لا يتخيلون نهاية إمبراطوريتهم التي ضمت ربع مساحة العالم، مع ذلك أفلت إمبراطوريتهم وغابت عنها الشمس، واعترف البريطانيون بهذا الأفول والسقوط، كذلك الأمريكيون قد لا يتخيلون نهاية إمبراطوريتهم، لكن النهاية قادمة لهم، لأن الأفول والسقوط لا يأتيان عاجلًا وفي دفعة واحدة، وهناك دائمًا في قوانين المدنيات والحضارات مسافة طويلة ما بين بداية السقوط ونهايته.

الفصل الحادي عشر

إصلاح الرؤية إلى العالم

- 1 -
إصلاح الرؤية إلى العالم

كشفت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ما قبلها وما بعدها، عن اختلالات عميقة في منظورات الرؤية إلى العالم. ما قبلها عن تلك المنظورات التي تحاول أن تصادم العالم، وتنقطع عنه، وترفض الاندماج فيه وأن تكشف لنفسها عالمًا خاصًا بها، تتكيف معه حسب نماذجها الفكرية وقواعدها السلوكية، لكي تبرهن من خلاله على إمكانية بناء نموذج يختلف كليًا عما هو سائد من نماذج، في هذا العصر الذي تقاطعه بصورة كلية، وترجع إلى التاريخ بطريقة ارتدادية لتجعل منه مصدر استلهام لها.

هذا النمط من المنظورات، ينتمي إلى بعض الخطابات الفكرية في العالم الإسلامي، التي لا تستطيع أن تنظر إلى العالم إلا من زاوية المنطق المطلق، والماهية الثابتة، والحتميات الكلية.

والعالم حسب هذا المنطق ينقسم إلى دار حرب ودار إسلام، ولأن الإسلام في تقدير هؤلاء لا يطبق على الوجه الصحيح، فيتحول العالم كله إلى أشبه شيء بدار الحرب.

وهذا المنطق هو الذي أوصل العالم إلى مثل أحداث

الحادي عشر من سبتمبر، التي جعلت العالم في حالة من التقلب والفوضى والانفلات.

وما بعد هذه الأحداث، هناك اختلال آخر في منظورات الرؤية إلى العالم، هو الاختلال الناشئ من النظرة إلى العالم من زاوية الإرهاب، وهي النظرة التي حاولت الولايات المتحدة الأمريكية تعميمها وإقناع العالم بها، وبناء شراكة دولية على أساسها، والتحريض على الانخراط فيها، وتحديد أنماط علاقاتها مع الدول على أساسها أيضًا.

وقد أثارت هذه النظرة جدلًا واسعًا في العالم، وتعرضت لانتقادات شديدة، لأنها كشفت عن محدودية الفهم عند الأمريكيين أو الإدارة الأمريكية للعالم. وهذا ما عبر عنه بشكل واضح وصريح العديد من المفكرين والسياسيين الأوروبيين، الذين وصفوا هذه النظرة بالسطحية والأحادية والناقصة والتخويفية.

فالأمريكيون ليس لهم تاريخ عريق في استكشاف العالم والتعرف إليه، بخلاف الأوروبيين الذين يذكر لهم التاريخ الحديث كشوفاتهم الجغرافية وعبورهم بين البحار والمحيطات، وبين الصحارى والجبال، وكذلك حفرياتهم التاريخية وتنقيباتهم الأثرية تحت الأرض وفي قاع البحار، وجمعهم للوثائق والمخطوطات القديمة والنادرة. بالإضافة إلى خضوع الكثير من الدول والمجتمعات في آسيا وأفريقيا لسيطرتهم واستعمارهم لزمن طويل، جعلهم يمتلكون أكبر وأهم أرشيف في العالم.

لذلك فإن الأوروبيين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أكثر خبرة ومعرفة واطلاعًا على العالم من الأمريكيين. وهي الحقيقة التي اعترف بها الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون، حيث أشار إلى أنهم كانوا يرجعون في قضايا الخليج والشرق الأوسط إلى أرشيف البريطانيين، وفي قضايا أفريقيا إلى أرشيف الفرنسيين.

وأكثر من هذا فإن الأوروبيين يرون أنهم هم الذين اكتشفوا أمريكا وعرفوها إلى العالم، وعرفوا العالم بها، وكانوا جسرهم إلى العالم. وهذا من أشد ما يفسر انزعاج القادة الأوروبيين من طريقة الأمريكيين في الاستفراد بالقرارات الدولية، وتقرير مصير العالم بمفردهم، وفرض وصايتهم على الجميع، وعدم التعامل بشراكة متوازنة ومتكافئة معهم.

والاستثناء الوحيد الذي ما زالت الولايات المتحدة الأمريكية تدرك الحاجة الفعلية للرجوع إليه، هو بريطانيا الشريك الأساسي في سياساتها وخططها واستراتيجياتها في العالم، وهي المعروفة بخبرتها وحنكتها ومعرفتها بالعالم.

أما ما يشهد فيه للأمريكيين بالتفوق على العالم، فهو في مجالات عالم الفضاء الخارجي وليس في عالم الأرض، فهم يرصدون ميزانيات خيالية في أبحاثهم واستطلاعاتهم لعالم الفضاء، يفوق ما ترصده الدول الأخرى في هذه المجالات، لذلك تحظى أبحاثهم وتقديراتهم وفرضياتهم في هذا الشأن بموثوقية أكبر.

ويتأكد هذا الاختلال، أو محدودية الفهم في النظرة إلى العالم، من خلال تقسيمه إلى ثنائية محور الخير ومحور الشر، أو ثنائية مع الإرهاب أو ضد الإرهاب. هذه النظرة بوعي أو بدون وعي تنتمي في جذورها وأساسياتها إلى المنطق اليوناني التقليدي القديم، الذي كان يعرف بمنطق ثنائي القيم، فالأحكام حسب هذا المنطق، وتجاه كل القضايا، إما أن تكون صادقة، وإما كاذبة، والمبدأ الثالث كما يقول المناطقة مرفوع. وقد برهن الفكر الحديث على عقم هذا المنطق وقصوره وتخلفه وتهافته، وكشف عن إمكانيات أوسع وأشمل في النظر والتفكير والتفسير، تتجاوز منطق ثنائي القيم إلى المنطق المتعدد القيم.

من جهة أخرى فإن أحداث سبتمبر فتحت الحديث عن إمكانية تغيير العالم، أو إدخال تغييرات جوهرية وأساسية إلى تركيبته وهيكلياته، أو إلى توازناته واتجاهاته. وبدأ يظهر الحديث على نطاق واسع عن العالم ما بعد سبتمبر، وكأن عصرًا جديدًا بدأ يفصل العالم، ويقلب التاريخ.

وحسب تساؤلات الخبير الاستراتيجي الفرنسي باسكال بونيفاس: هل عاش العالم ثورة استراتيجية بعد هذا الحدث الضخم الذي يشبه الزلزال؟ وما هو وضع الدول العظمى؟ وهل اختلفت عما كان قبل هذا التاريخ؟ وهل يشكل الحادي عشر من سبتمبر قطيعة تاريخية تشبه تلك القطيعة التي جرت سنة 1945م، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وانهيار النظام العالمي القديم، وانبعاث نظام القطبية

الثنائية، أو سنة 1989م بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وانهيار الكتلة الشرقية، التي غيرت معها موازين القوى في العالم؟.

جاءت هذه التساؤلات في دراسة تعتبر من دراسات النخبة في فرنسا، وكان عنوانها (الاستراتيجية 2003م: تحليل الرهانات الاستراتيجية والدبلوماسية والاقتصادية العالمية)، صدرت عن معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية في باريس، وشارك في إعدادها ما يقارب ثلاثين باحثًا متخصصًا.

ومن النتائج الأساسية التي تخلص إليها هذه الدراسة، أن ما جرى في أيلول ـ سبتمبر، يعد حدثًا مهمًا بدون شك، وبكل المقاييس السياسية والاستراتيجية والاقتصادية، لكنه لم يعدل بصورة جوهرية تركيبة العالم والمشهد الدولي فيه، وأن موازين القوى العالمية لم تتغير إلا بشكل طفيف.

لقد أصبح العالم مخيفًا في ظل هيمنة مثل هذه المنظورات التي تبعث على الإحباط واليأس، والعالم اليوم أكثر اقتناعًا من أي وقت مضى بضرورة إصلاح الرؤية إلى العالم، التي تبعث أملًا بالمستقبل، مستقبل الجميع، على قاعدة شراكة الجميع.

ـ 2 ـ
بناء النزعة الإنسانية

الباحثون والمفكرون الأوروبيون المعاصرون يؤرخون لبدايات تشكل وانبعاث الفكر الأوروبي الحديث، مع ظهور ما سمي في أدبياتهم بالحركة الإنسانية أو النزعة الإنسانية، التي نقلت الفكر الأوروبي من زمن وتقاليد العصور الوسطى، إلى زمن وتقاليد العصور الحديثة، ومنها إلى مراحل التقدم والتمدن الأخرى التي شهدتها المدنية الأوروبية.

وحينما حاول الكاتب الأمريكي كرين برينتون أن يبحث عن كيفية تشكل العقل الأوروبي الحديث، في كتابه (تشكيل العقل الحديث) الصادر في بداية خمسينيات القرن العشرين، رأى أن المرحلة الأولى التي يؤرخ لها في بناء العالم الحديث بحسب وصفه، هي مرحلة الحركة الإنسانية، وختم الحديث عن هذه المرحلة بقوله: لقد خلف الإنسانيون أعمالًا فنية خالدة لا تبلى مع الزمن، وأدوا دورهم في تدمير اتجاهات العصور الوسطي، كما قاموا بدورهم الإيجابي في إقامة الدولة الإقليمية الحديثة، وتحديد معاييرها وحافزها إلى الكفاية والفاعلية.

وقد أعادت هذه النزعة الاعتبار إلى الإنسان في

أوروبا، وشكلت له نظرة جديدة إلى العالم، مختلفة عن تلك النظرة اللاهوتية المسيحية المتشددة، التي كانت سائدة في العصور الوسطى، وحلت مكانها النظرة العقلانية الصارمة التي تطابق بين العقل والطبيعة، وترى أن الكون يعمل بنظام يشبه نظام العقل عند الإنسان.

كما أن هذه النزعة ألهمت مختلف المعارف والعلوم والآداب والفنون هناك، وأصبحت حكمتها الجديدة، التي حددت لتلك المعارف والعلوم والآداب والفنون مساراتها ومسلكياتها، وأثرت في أسسها ومنطلقاتها، بحيث أصبحت هذه المجالات والحقول تميز بهذه النزعة الإنسانية، كتعبير عن شدة التحول المعرفي والبنيوي الذي حدث فيها.

من جهة أخرى، إن هذا الربط والاتصال ساهم بصورة كبيرة في إثراء وإنماء النزعة الإنسانية بالمعارف والأفكار والآداب، وبمصادر العلوم والفنون الأخرى.

لقد اكتشف الأوروبيون أن هذه النزعة بحاجة لأن تتحول إلى ثورة في الفكر الأوروبي، بحيث تغير جوهر هذا الفكر وأساسياته، وتقلب أنظمته وموازينه، لهذا ظل الأوروبيون يتبجحون بهذه النزعة، ويعطون أنفسهم حق اكتشافها، وتعريف العالم بها، وكأنهم يتصدقون بها على العالم.

مع ذلك، فقد تعرض الفكر الأوروبي والغرب عمومًا، لانتقادات شديدة وعنيفة من داخله، حول طريقة سلوكه وتعامله مع هذه النزعة، التي حولها وكأنها شأن

أوروبي لا تصلح إلا للشعوب الأوروبية، ولا تطبق إلا في المجتمعات الراقية أو المتمدنة، وبحسب المعايير والمقاييس الأوروبية.

وهي النظرة التي انتقدها المفكر الألماني ألبرت اشفيتسر، الحائز جائزة نوبل للسلام سنة 1952م، لنزعته الإنسانية الشاملة، ودعوته المستمرة إلى السلام بين الناس، في كتابه الصادر سنة 1923م بعنوان (فلسفة الحضارة)، القسم الأول من هذا الكتاب، شغل اهتمامه منذ عام 1900م، ونضج عنده بصورة نهائية كما يقول وهو في سكون الغابة داخل أفريقيا الاستوائية، فهناك وخلال السنوات من سنة 1914م إلى سنة 1917م، نمت خطوط هذه الفلسفة في الحضارة، وتحددت نهائيًا حسب رأيه.

وكان عنوان هذا القسم (انحلال الحضارة وإعادة بنائها)، لذلك جاءت رؤيته للحضارة مفعمة بالنزعة الإنسانية والأخلاقية، وعن هذه الرؤية يقول: إن الحضارة بكل بساطة معناها بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية، من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم، من أي نوع كان، في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي.

وهذا الموقف العقلي كما يضيف اشفيتسر يتضمن استعدادًا مزدوجًا، فيجب أولًا أن نكون متأهبين للعمل إيجابيًا في العالم والحياة، ويجب ثانيًا أن نكون أخلاقيين، ولن نستطيع القيام بمثل هذا العمل، بحيث ينتج نتائج ذات قيمة حقيقية، إلا إذا كنا قادرين على أن نهب العالم والحياة معنى حقيقيًا.

هذا في نطاق سلوك الغرب مع المجتمعات الأخرى، أما في نطاق الداخل وسلوكه مع ذاته، فلم تسلم هذه النزعة من النقد بصورة قاسية أيضًا، نتيجة ما أحدثته التكنولوجيا والتقنيات المتطورة، وأنماط الحياة المعاصرة، من خلخلة الحياة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية في تلك المجتمعات.

وفي هذا الشأن نشر عالم البيولوجيا الفرنسي رينيه دوبو الحائز جائزة نوبل للعلوم، سنة 1976م بالاشتراك مع عالم آخر، كتابًا صدر في بداية سبعينيات القرن العشرين، وصف هذا الكتاب في وقته بأنه يتضمن هجومًا مدمرًا على المجتمعات الغربية المعاصرة، وكان عنوانه (يا لإنسانية هذا الحيوان).

في هذا الكتاب يقول المؤلف إن الإنسان اليوم ليس غريبًا عن أخيه الإنسان وعن الطبيعة فحسب، بل ما هو أهم بكثير أنه غريب معزول عن أعماق ذاته... ونحن نشكو - والكلام لدوبو - تجريد الإنسان من إنسانيته، في حين يخبرنا علم الأجناس، أن الإنسان يكتسب مشاعره الإنسانية من خلال صلاته الحميمة بالأحياء الآخرين من حوله، وأن كل أطوار نموه متكيفة دائمًا بالإثارات الاجتماعية التي يتلقاها خلال فترات حياته.

وحينما دعا روجيه غارودي إلى انخراط الغرب في حوار الحضارات، كان بقصد أن يستعيد تلك الأبعاد الإنسانية المفقودة والفرص الضائعة من الحضارات

الأخرى، التي بإمكان الغرب أن يتعلم منها كما يرى غارودي، ولا يمكن أن يتحقق ذلك حسب رأيه، إلا إذا اعتبرنا الإنسان الآخر والثقافة الأخرى كجزء منا نحن ـ والخطاب موجه إلى الغرب ـ وتغمرنا وتوحي لنا بما ينقصنا.

الغرب الذي اكتشف لنفسه كما يدعي هذه النزعة الإنسانية، هو الغرب الذي ارتدّ على هذه النزعة، وانقلب عليها في سلوكه المتوحش والاستعماري مع الأمم والمجتمعات الأخرى، ولم يعمم هذه النزعة على العالم، وقد تراجعت حتى في داخل عالمه ومحيطه وحضارته.

لهذا فإن العالم اليوم بأمس الحاجة إلى بناء نزعة إنسانية عالمية وشاملة، تكون بديلًا من منطق الحروب، وجبروت السياسة، وطغيان الاقتصاد، وعنصرية الثقافة، وازدواجية القيم. وبديلًا من ذلك النسق من المفاهيم، الذي يقسم الناس إلى طبقات ومستويات ودرجات، تختل فيها موازين الكرامة والحقوق، واحترام الإنسان بما هو إنسان، بغض النظر عن لونه وعرقه ودينه، وحتى ثروته وماله وقومه.

لقد تضرر العالم كثيرًا من انحدار النزعة الإنسانية وتراجعها، وأصبح معظم الناس يعيشون حياتهم بألم شديد، ألم الفقر والجوع والمرض، وانعدام الحياة الكريمة، وألم الحروب والطغيان والاستبداد.

ولن تكون هناك نهاية للكوارث والنكبات والحروب

ما لم يتم بناء نزعة إنسانية عالمية وشاملة، تكون لها تجليات صادقة وشفافة في السياسة والاقتصاد والثقافة والتربية والإعلام والعلاقات الدولية.

وعلينا أن نكتشف قوة الإلهام في النزعة الإنسانية، وعظمة الإشعاع فيها، وشفافية تجلياتها، ويكون لدينا الاستعداد للتخلق بها، والإصغاء إليها، والاقتباس منها، من أجل أن يكون لهذه الحياة ذلك المعنى الذي يبعث على الأمل.

- 3 -
تنوعنا الخلاق

في سنة 1991م اتخذ المؤتمر العام لليونسكو في جلسته السادسة والعشرين، قرارًا بإنشاء لجنة عالمية مستقلة للثقافة والتنمية، تضم أعضاء من دول وقارات مختلفة، نساءً ورجالًا بغية إعداد تقرير عالمي حول الثقافة والتنمية، وتقديم مقترحات عن الأنشطة العاجلة والطويلة المدى للوفاء بالمتطلبات الثقافية في إطار تكاملها بالتنمية على مستوى العالم.

وبدأت هذه اللجنة عملها في ربيع 1993م، في عالم وصفه رئيس هذه اللجنة آنذاك الأمين العام السابق للأمم المتحدة خافيير بيريز ديكوييار، بأنه مشحون بالوعود، الأبواب الجديدة مفتوحة، لكنه أيضًا مشحون بالشكوك والآمال المحبطة.

وفي سنة 1995م أصدرت هذه اللجنة تقريرًا بديعًا وخلاقًا ومفعمًا بالنزعة الإنسانية والأخلاقية، وكان عنوانه لامعًا هو (تنوعنا الخلاق)، الذي هو أعظم ثروة وإثراء في حياة البشر، لأنه يكشف عن طاقات لا تحد، وقدرات متجددة، وإبداعات وخيالات وأذواق دفاقة، وأصوات

ومشاعر ونبضات شفافة. لكنها ثروة مهدورة ومبددة ومضيعة.

وهذا التقرير هو محاولة لاكتشاف عظمة هذا التنوع البشري الخلاق، وبناء جسور التواصل والتفاهم والتضامن بين الناس، والبحث عن الجوامع والمشتركات الإنسانية والأخلاقية والثقافية، والدفاع عن قيم العدل والحق والحرية والكرامة، وتأكيد القيمة الشاملة للأخلاقيات العالمية، وبعث الأمل بالمستقبل.

ويعطي التقرير دورًا فاعلًا وأساسيًا للثقافة، باعتبارها وسيلة بناء وتوجيه وتخليق، وإعادة النظر في علاقة الثقافة بالتنمية، ونقد المفهوم التقليدي أو الأحادي للتنمية الذي يربط التنمية بمعايير اقتصادية صرفة، وإعادة ربطها بمعايير ثقافية وإنسانية. فالمعايير الاقتصادية وحدها لا تؤدي كما يقول ديكويبار إلى حفظ كرامة البشر وتحسين أحوالهم... لذلك لابد من إيجاد طرق متعددة للتنمية، يدعمها اعتراف بأن العوامل الثقافية هي التي تشكل الطريقة التي تتصور المجتمعات بها مستقبلها، وتختار الوسائل اللازمة لبلوغ أهدافها.

وحين يشرح ديكويبار هدف اللجنة التي يرأسها يقول: إن هدفنا هو أن نبين أن الثقافة تشكل فكرنا وتحكم سلوكنا، فالثقافة بالنسبة إلى الجماعات والمجتمعات هي الطاقة والروح والتمكين والمعرفة والاعتراف بالتنوع والتعددية، فإذا كانت الثقافة وراءنا وحولنا وأمامنا، كما

يقول كلود ليفي شتراوس، فعلينا أن نتعلم كيف نترك لها الفرصة لتقودنا لا إلى الصدام بين الحضارات، بل إلى التعايش المثمر والعمل على التوفيق بينها.

لهذا يعتبر التقرير أن التنمية الاقتصادية جزء من ثقافة أي شعب، وإذا انفصلت التنمية، عن سياقها الإنساني والثقافي تصبح كائنًا بلا روح. وبناءً على هذا كما يضيف التقرير فلابد من الاعتراف بالدور الحيوي للثقافة في التنمية، وفي الوقت نفسه إدراك أن هذا ليس كل ما تعنيه الثقافة في تقييم التنمية، فهناك أيضًا دور الثقافة بوصفها غاية مطلوبة في حد ذاتها، لأنها تضفي على وجودنا معنى.

ولإنجاز هذه الغايات النبيلة، يدعو التقرير إلى إعادة التفكير في السياسات الثقافية، الأمر الذي يتطلب التوسع في مفهوم السياسة الثقافية، فسياسة التنمية ينبغي لها أن تكون بعمق الثقافة، ومستوحاة منها. لكن المشكلة الكبرى في السياسة الثقافية كما يرى كولين ميرسيه ليست في نقص المصادر، بل في نقص الإرادة والالتزام، وفي نقص تزامن السياسة مع الوقت الذي تتم فيه، إنها مشكلة بلورة أو سوء تعرف إلى موضوع السياسة ذاتها، ألا وهو الثقافة.

والتقرير غني بالأفكار والتصورات والاستشرافات وحتى الأخلاقيات، ويتدارك التقرير أن يوصف بالمثالية أو اليوتوبيا، فيشير إلى أن هذه ليست يوتوبيا، بل إنها شرط مسبق لبقاء الإنسان، والتقدم الإنساني على هذا الكوكب، ولكن مثل هذا الإطار لتنوعنا الثقافي الخلاق، لن ينبثق

بشكل أوتوماتيكي، إنه سيتطلب قدرًا كبيرًا من المجهود الدائم.

وحينما صدرت الطبعة العربية من هذا التقرير سنة 1997م، عن طريق المجلس الأعلى للثقافة في مصر، بإشراف الدكتور جابر عصفور، الذي تحمس لترجمة التقرير ضمن المشروع القومي للترجمة، لعله كان يتوقع أن يحظى هذا التقرير بدرجة عالية من الاهتمام في العالم العربي، من المثقفين والباحثين والمهتمين بقضايا الثقافة والتنمية، ولكن الذي جرى هو خلاف ذلك تمامًا.

وهذا التقرير على قيمته وأهميته لم يكن لافتًا للكثيرين، أو لعل الكثير منهم لم يتعرف إليه، في حين تتأكد قيمته وتتعاظم، في اعتباره يمثل خطابًا بديلًا ومعاكسًا، ومتعارضًا مع أبرز الخطابات التي عبرت عنها تلك المقولات الرائجة بدفع وقوة في نطاقات عالمية، كالعولمة، وصدام الحضارات، وحتى نهاية التاريخ.

فالتقرير يدافع عن حق البشر في التنوع والتعدد، واحترام جميع الثقافات، وحماية الحقوق الثقافية، والحفاظ على التراث الإنساني، ورفض أن تتحول تقنيات الاتصال الجديدة إلى أداة في يد الأغنياء والأقوياء وحدهم.

كما يعتبر التقرير أن المشكلة الرئيسية التي تواجه الأفراد والجماعات في عالم سريع التغير، هي مشكلة التقدم والتكيف مع التغيير، دون التخلي عن العناصر القيمة في التراث. لذلك يعمل التقرير على إمداد أجيال الحاضر

والمستقبل بالأدوات اللازمة لمواجهة هذا التحدي، وتوسيع نطاق معارفها، واكتشاف العالم بتعدديته المحتومة، والسماح لكل الأفراد بحياة كريمة دون فقدان هويتهم وإحساسهم بالجماعة، ودون إهمال تراثهم.

وهذا الخطاب هو بخلاف خطاب العولمة، الذي قد يوجه إلى إقصاء الهويات وتهميش التراث، وفرض الاتجاه الواحد، وتنميط العالم وقولبته في إطار ثقافة المسيطر، وانتهاك الحقوق الثقافية للبشر.

وهو أيضًا بخلاف خطاب صدام الحضارات، لأنه يحاول أن يؤسس جسور التواصل بين الثقافات والحضارات، وينتقد أساليب الوصاية والتعالي والفوقية من ثقافة على أخرى، ويتبنى مفاهيم السلام والتسامح والحقوق، بعكس ما يذهب إليه خطاب صدام الحضارات الذي يشعل فتيل التوتر بين الثقافات.

وهو أيضًا بخلاف خطاب نهاية التاريخ، لأنه لا يعطي حق الغلبة والتفوق والانتصار لثقافة على جميع الثقافات الأخرى.

لذلك فإن خطاب تنوعنا الخلاق هو أفضل خطاب للتواصل مع العصر، والاندماج في العالم، والتكامل مع المجتمع الإنساني. وهذا الخيار هو الأفضل للثقافات من خيارات العزلة والانغلاق والانكماش، أو الاكتفاء بإظهار الخوف والشك والقلق، لأن أي مستقبل لن يكون خارج العالم.

- 4 -
عبور الانقسام

في سنة 1996م فاز النمساوي روبرت كالينا في مسابقة أجريت على مستوى أوروبا، لاختيار أفضل تصميم لليورو، العملة الأوروبية الموحدة، التي أصبحت قيد التداول في دول الاتحاد الأوروبي، ابتداءً من كانون الأول 2002م، وكان الشرط الرئيسي في هذه المسابقة، أن يعبر التصميم عن القواسم المشتركة بين مختلف بلدان أوروبا، وأن لا يبرز بلدًا على حساب بلد آخر.

وكان كالينا يعمل مصممًا للعملة في المصرف النمساوي الوطني منذ وقت طويل، وقد تبين له أن تصميم سبع أوراق نقدية من اليورو ذات جاذبية عالمية، مهمة صعبة لا يستهان بها. وبعد تأمل وبحث وتفكير، وقع اختياره لصور الجسور العتيقة، وأقنية جر المياه الرومانية، والأبواب والنوافذ القديمة التي رسمت على خلفية الريف الأوروبي الأخضر.

وقد وصف البعض رؤيته إلى التعبير عن التكامل الأوروبي بأنها متماسكة وقوية، وأوضح كالينا أن اختياره للجسور هو تعبير عن التواصل بين البلدان الأوروبية من

ناحية، وبين أوروبا والعالم من ناحية أخرى، وأن النوافذ والأبواب ترمز إلى المستقبل والنفاذ من خلالها إلى آفاق جديدة.

وجاء اختيار هذا التصميم، عن طريق المعهد النقدي الأوروبي الذي استعان بعدد من الخبراء في مجالات التاريخ والجغرافيا وعلم النفس، إلى جانب عدد من الخطاطين والرسامين.

وبتطبيق نظام اليورو، شعرت أوروبا لأول مرة في تاريخها الحديث، أنها اكتشفت لنفسها هوية مشتركة، تعبر من خلالها عن وحدتها وتكاملها وتضامنها.

وبذلك تكون أوروبا قد تجاوزت تاريخًا قاسيًا من الصدامات العنيفة، وتخلصت من ذاكرة الحروب المؤلمة، التي تجرح الكرامة الوطنية لا محالة كما يقول المفكر الفرنسي ريجيس دوبريه.

الحروب التي كان بإمكانها أن تجعل أوروبا أبعد ما تكون عن التكامل والوحدة بعد حربين عالميتين متقاربتين زمنيًا، وهما من أشد الحروب تدميرًا وتخريبًا خلال القرن العشرين، حيث راح ضحيتهما 70 مليون نسمة. مع ذلك، استطاعت أوروبا أن تعبر إلى القرن الواحد والعشرين، بإرادة موحدة ومصير مشترك، وجعلت شعوب هذه القارة تنظر إلى المستقبل بأمل وعنفوان.

لقد جسد النمساوي كالينا في اختياره الجسور للعملة الأوروبية المفهوم الذي عبر عنه تقرير الأمم المتحدة، حول

حوار الحضارات لسنة حوار الحضارات، الذي كان عنوانه (عبور الانقسام)، وهذا العنوان هو أفضل وصف يمكن إطلاقه على أوروبا، التي استطاعت عبور الانقسام إلى التكامل والاتحاد، بعد تاريخ طويل من الصراعات والنزاعات والحروب.

ولم يكن بإمكان أوروبا عبور هذا الانقسام إلا بعد أن تمكنت ألمانيا من تجاوز هذا العبور، لأن جدار برلين لم يكن تقسيمًا لألمانيا فحسب، وإنما كان تقسيمًا لأوروبا بأجمعها. فهو الجدار الذي كان يرمز إلى عناوين الانقسام والانشطار والشرخ العميق في الكيان الأوروبي. لذلك أصبحت ألمانيا بعد عبورها من الانقسام، المحرك الرئيسي والفاعل نحو التكامل والاتحاد بين البلدان الأوروبية.

كان (عبور الانقسام) عنوانًا لافتًا ومعبرًا، في اختياره لتقرير الأمم المتحدة، حول سنة حوار الحضارات، وهو من تحرير الإيطالي جياندو مينكو بيكو ممثل الأمين العام للأمم المتحدة لشؤون حوار الحضارات، وبمشاركة مجموعة من الباحثين والمفكرين وأصحاب الرأي، يمثلون قارات العالم المختلفة، وثقافاته ودياناته المتعددة.

وقد صدر هذا التقرير بعد شهر واحد من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ولعل هذه الأحداث عجلت بصدوره، وتركت ظلالها عليه، أو حرضت على العناية الفائقة به، ليكون معبرًا عن رؤية عقلانية وأخلاقية، تجعل العالم متماسكًا ومترابطًا بعد تلك الأحداث التي حاول

البعض تصويرها بأنها تمثل التجسيد الفعلي لمقولة صدام الحضارات.

وهي الفرضية أو النتيجة التي كان التقرير حذرًا من التعبير عنها، والترويج لها، بالشكل الذي يعمق من حدية الانقسامات على مستوى الثقافات والحضارات، ويؤجج نزعات التعصب والعنصرية والكراهية والتطرف.

لذلك حاول التقرير أن يشكك في مثل هذه النتيجة أو الفرضية، ويظهر الخوف منها، ويؤكد في المقابل على ترسيخ الاقتناع بضرورة الحوار بين الحضارات، فالغالبية العظمى في العالم حسب التقرير صرخت مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر، مؤكدة أنه ما من دين أو تاريخ أو أيديولوجيا أو تقاليد، يمكن أن تبرر هذه الأحداث الإرهابية أو تدعو إليها.

وإذا كانت هذه الأحداث قد رفعت من وتيرة الوعي بخطورة الصدام والانقسام، فإنها أكدت من جهة أخرى على ضرورة البحث عن مساحات مشتركة للتفاعل والتعاون والحوار.

وفي هذا النطاق يدعو التقرير الأمم المتحدة إلى صياغة منظور جديد للعلاقات الدولية باعتبارها المنظمة الراعية للحوار العابر بين الثقافات والقوميات واللغات، لأن المنظور القديم للعلاقات الدولية لن يكون بتلك الفاعلية في مواجهة ما يحدث في العالم من كوارث ونكبات مدمرة وخطيرة.

وما جرى في الولايات المتحدة قد يجري في أي مكان من العالم، وهو يجري بالفعل لكن بصور وأشكال مختلفة، وبطريقة مفككة ومفتتة. الأمر الذي يتطلب الالتفات إلى هذه الظاهرة في نطاقها العالمي الواسع، وتكوين المعرفة بجذور هذه الظاهرة الشديدة الاحتقان والانفعال، من تلك السياسات التي تقوم على الاستئثار بثروات العالم والاستحواذ عليها، وترك عالم الجنوب يعاني الفقر والجوع والمرض وانعدام الحياة الكريمة لملايين البشر.

والأمم المتحدة هي أكثر من يعلم بهذه الحقائق، وتجمع حولها دوريًا وسنويًا عن طريق منظماتها ومؤسساتها المتخصصة، الأرقام والإحصائيات المذهلة والمفجعة في الوقت نفسه، لكنها أرقام باردة وميتة، لا جدوى منها إلا بحفظها في ملفات وأرشيفات الأمم المتحدة.

فالبحث عن منظور جديد للعلاقات الدولية، ينطلق من مفاهيم العدالة والمساواة والكرامة والحقوق، ويدفع العالم نحو عبور الانقسام، وذلك دعوة حسنة في ذاتها، لكن الأمم المتحدة تفتقد القدرة والمصداقية أيضًا، على فرض الالتزام بسلوك دولي يتناغم وهذا المنظور الجديد.

يضاف إلى ذلك، أن هذا التقرير جاء في وقت، العالم مرشح إلى تزايد الانقسامات، بأنماط وصور عديدة ومختلفة، لذلك التفت إلى ما يواجه المؤسسات والأوطان والمجموعات وحتى الأفراد، من اتجاهين متضادين هما:

نزعة العولمة ونزعة المحلية، ومحاولة التحكم في هاتين النزعتين والسيطرة عليهما، والنظر إليهما ليس بمنطق الشر المطلق، والتضاد التام، وإنما بالاستفادة من مكتسباتهما، حتى لا تتحول العولمة إلى آليات في الضم، وتتحول المحلية إلى آليات في التفتت، والنتيجة أن العالم ما زال بحاجة إلى مسافات طويلة لكي يتمكن من عبور الانقسام.

- 5 -
بناء الثقة

تستوقف انتباهي بصورة كبيرة، نوعية الشعار الذي يطلقه على أعماله سنويًا المنتدى الاقتصادي العالمي بدافوس، الشعار الذي يفترض فيه أن يكون متناغمًا مع مناخ العصر، وقريبًا من اتجاهات التفكير العالمي، الذي يعبر عن رؤية قطاع كبير من نخبة العالم إلى طبيعة المشكلات العالمية، أو المشكلة الأكثر حضورًا وتجليًا وتأثيرًا في النطاق العالمي، حسب تقدير هذه النخبة التي تضم شرائح من الاقتصاديين والسياسيين والأكاديميين والتكنولوجيين والإعلاميين، التي تجتمع سنويًا في منتدى دافوس.

فقد وصل عدد المشاركين في منتدى سنة 2003م الذي عقد ما بين 23 ـ 28 من شهر يناير، إلى ما يقارب 2150 شخصًا من نحو 99 دولة، بينهم 37 زعيمًا دينيًا، و172 خبيرًا أكاديميًا، و71 ممثلًا للمنظمات غير الحكومية، و239 وجهًا عامًا، و264 ممثلًا للصحافة ووسائل الإعلام، بالإضافة إلى أكثر من 1300 شخص يمثلون الشركات وقطاعات الأعمال.

وكان الشعار الذي تم اختياره بعناية فائقة، كما

ذكرت ذلك بعض التقارير العالمية، هو (بناء الثقة)، وعن خلفيات وحكمة اختيار هذا الشعار، تحدث رئيس المنتدى كلاوس شفاب، أن العام 2002م شهد انهيار الثقة بكثير من القطاعات التي تتشكل منها كل المجتمعات، ولذلك أصبحت مسألة استعادة الثقة واحدة من أهم التحديات التي تواجهها القيادة في عصرنا الحاضر.

واعتبر شفاب أن المنتدى يعد فرصة لابتكار أفكار جديدة، ووسيلة عملية للخروج بتحرك ملموس، ومناقشة الخطوات الضرورية لبناء الثقة بالقيادة والمؤسسات، من خلال منظور يعتمد على تعدد الأطراف المشاركة.

وكان فرنسيس فوكوياما قد أصدر في سنة 1995م كتابًا عنوانه (الثقة)، جاء بعد كتابه (نهاية التاريخ) الذي أثار جدلًا عالميًا واسعًا في بداية تسعينيات القرن الماضي، وكتاب (الثقة) وإن جاء متصلًا ولعله كان مكملًا لكتاب (نهاية التاريخ)، إلا أنه أقل تفاؤلًا منه ويقينية وحذرًا.

وفيه يرى فوكوياما أن أهم العبر التي نستخلصها من دراسة الحياة الاقتصادية، أن إصلاح أحوال أية أمة، والحفاظ على قدراتها التنافسية في السوق الاقتصادية، يبقيان مشروطين بتوافر سمة ثقافية وحيدة، ألا وهي الثقة، ومدى توافرها وتأصلها في المجتمع.

وفي النصف الثاني من شهر يناير من العام 2003 م، وقبل ذهابه إلى منتدى دافوس الاقتصادي، تحدث في بيروت رئيس الوزراء الماليزي الأسبق مهاتير محمد عن تجربة ماليزيا في النهوض والتنمية، ومن الملاحظات اللافتة

في حديثه قوله إن الماليزيين شعروا بالنقص في عهد الحكم البريطاني، فاعتقدوا أنهم لن يستطيعوا أن يكونوا أكثر من فلاحين أو صيادين، ولن يصبحوا مهندسين وتقنيين ماهرين إلا إذا اكتسبوا بعض الثقة بأنفسهم، وبدون هذه الثقة لن يكون التصنيع ممكنًا.

وعلى هذا الأساس عمدت الحكومة الماليزية إلى تغيير ذهنية الناس، وزرع الثقة بقدراتهم، واعتمد شعار لإقناع الماليزيين بأنهم يمكنهم القيام بأي عمل يقوم به شعب آخر، هذا الشعار هو (ماليزية قادرة)، وأن بإمكاننا القيام بأي عمل إذا توافرت لدينا الإرادة والاستعداد للتعلم.

وهكذا تشجع الماليزيون على القيام بأعمال لم يحلموا بإنجازها من قبل، وباتوا مستعدين لتسلق قمم الايفرست، وأبحر ماليزي بمفرده حول العالم مسجلًا رقمًا قياسيًا معترفًا به عالميًا، ونزل ماليزي بالمظلة في القطب الشمالي مع سيارة ماليزية.

من هنا ندرك فاعلية بناء الثقة بصنع إرادة التقدم والنهوض، وببناء الأوطان وعمرانها، وبخلق الاندماج الوطني، والتضامن الاجتماعي، والتطور الاقتصادي.

وقد وجدت في شعار بناء الثقة مدخلًا مهمًا بعد تأمل مستفيض في المشهد السياسي العربي الراهن، الذي يوصف بدون مبالغة بأنه خطير جدًا، حيث يضع مصير الأمة على مفترق طرق، ونكاد نجهل ملامح هذه الطرق واتجاهاتها، ومآلات المصير الوضع الذي يفرض على الجميع الانخراط في مراجعات نقدية شجاعة، والإصغاء إلى الصوت

المختلف، والإنصات إلى أكثر من رأي، والالتفات إلى ضرورة أن تعيد الحكومات العربية بناء الثقة بشعوبها، وأن تولي هذا الأمر أكبر عنايتها، بعدما حدث من اهتزاز شديد، وانحدار وترد خطيرين لهذه الثقة.

لقد حان الوقت لأن تتواضع الحكومات العربية لشعوبها وتخفض لها الجناح، وتعيد النظر في رؤيتها للمواطن والمجتمع، فقوة الدولة ليست بإدخال الخوف في نفوس المواطنين، والدفاع عن هيبة الدولة ليست بإظهار الرهبة، وحفظ النظام ليس بالتكشير عن الأنياب.

وإنما قوة الدولة من قوة المواطن، وشجاعة المواطن، وكرامة المواطن، وللوصول إلى مثل هذه الحالة، لابد أولًا من بناء الثقة، وتعزيزها وترسيخها.

وبناء الثقة ليس مجرد تعبير عن رغبات أو آمال، وإنما هي برامج وإنجازات وإرادة حقيقية، في مجالات التربية والتعليم والتأهيل والبناء والعمران، وإنجازات في مجالات التقدم الاجتماعي والتطور السياسي والتنمية الاقتصادية، وإرادة حقيقية تظهر تجلياتها في الشفافية ونظام المؤسسات وسيادة القانون.

وهذا يعني أن بناء الثقة هو أفعال وليس مجرد أقوال، هو ممارسات وليس لافتات، وهو خطط وبرامج وليس مجرد أفكار وتصورات، وهو في اجتماع الإرادات وتضامنها وليس في تفرقها وتشتتها.

- 6 -
التضامن من أجل أخلاقيات عالمية جديدة

عندما طرحت مقولة صدام الحضارات في مقالة سنة 1993م، وفي كتاب سنة 1996م، وعرف بها صمويل هنتنغتون، المقولة التي صدمت العالم وحركت في وقتها وما زالت أوسع السجالات النقدية والنقاشات الاحتجاجية بين مختلف مراكز العالم.

أمام هذه المقولة وردًا عليها ومواجهة لها، جاءت مقولة حوار الحضارات التي تقبلها العالم بسهولة، مع أول مبادرة تقدم بها السيد محمد خاتمي سنة 1998م، وتمثل ذلك القبول في اختيار سنة 2001م سنة عالمية لحوار الحضارات.

وعندما طرحت مقولة العولمة وما صاحبها من هواجس ومخاوف وشكوك، عبرت عنها أمم العالم المتعددة الثقافات والقوميات واللغات، من أجل أن لا تتحول هذه العولمة إلى إمبريالية جديدة غايتها الهيمنة والسيطرة على مساحات واسعة من العالم، أو تنتهي إلى فرض الاتجاه الواحد، وتنميط العالم، والاستفراد به،

والتحكم في ثرواته وأسواقه وأمواله، إلى غير ذلك من أوصاف وتسميات.

وأمام هذه المقولة المندفعة بقوة، جاءت بعض المقولات المقابلة لها، مثل مقولة أنسنة العولمة، أو نحو عولمة عادلة، أو عولمة متكافئة، أو عولمة مسؤولة، أو عولمة رؤوفة.. إلى غير ذلك من تسميات طرحت في نطاقات عالمية، بقصد الحد من سرعة العولمة واندفاعاتها، والتخفيف من أضرارها ومخاطرها، وضبط حركتها، والتحكم في آلياتها، وتهذيبها وأنسنتها.

ولكن عندما طرحت مقولة مكافحة الإرهاب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأصبحت المقولة الأكثر تداولًا وانتشارًا وتحريضًا، على مستوى العالم برمته، في مقابل ذلك لم تظهر مقولة تقابل هذه المقولة وتوازيها.

ولعله لأول مرة يظهر هذا المستوى من الاهتمام الكمي والكيفي تجاه قضية مكافحة الإرهاب، في تاريخ العالم الحديث، فهي القضية التي باتت تتصدر بلا منازع الاجتماعات والمنتديات والمؤتمرات الإقليمية والعالمية كافة، مهما اختلفت وتعددت طبيعة واختصاص هذه الاجتماعات، سواء أكانت ذات طبيعة قانونية وحقوقية، أم ثقافية وتربوية، أم اقتصادية وتجارية، أم إعلامية واتصالية.

إلى درجة أصبحت الدول والحكومات تراقب وتحاسب من جهة سياساتها حول مكافحة الإرهاب، فهي ملزمة بوضع مثل هذه السياسات، وعليها أن تثبت جديتها

في تطبيق مثل هذه السياسات، وتقدم أدلة وشواهد على ذلك، لكي تحصل على شهادة حسن سيرة وسلوك، كما عليها أن تكون شريكة مع العالم في مكافحة هذه الظاهرة بجميع صورها وأنماطها وأشكالها، وهذا ما ألزمت به الأمم المتحدة الدول الأعضاء فيها.

ومن جهتها عملت الولايات المتحدة الأمريكية على أن يعيش معها العالم كله هذا الهاجس والقلق والترقب تجاه الإرهاب، لأنها تريد من العالم أن ينخرط في جبهتها، ويكون في صفها، وهذا هو صك البراءة من تهمة الإرهاب حسب المنطق الأمريكي. لذلك فإن العالم بدأ يتغير في أنظمتة وقوانينه وإجراءاته وسياساته، نتيجة هذه القضية، وبالشكل الذي يؤثر في حياة الناس ومعاملاتهم ومصالحهم وحقوقهم العامة.

وأمام هذه المقولة أو القضية، لم تطرح مقولة أو مقولات مقابلة لها، بحيث يكون لها درجة عالية من الاهتمام العالمي، كما هي حال المقولات السابقة، وكأن الإرهاب قد أعمى العالم، وأعمى الأبصار التي في القلوب.

والحاجة إلى مقولة مقابلة أو موازية لكي لا تتحول قضية مكافحة الإرهاب إلى طغيان وبطش واستبداد، أو إلى انتهاكات وتعسفات وتجاوزات، دونما رادع أو ضابط أو وازع قانوني أو أخلاقي أو إنساني.

فما هي المقولة التي يفترض أن تكون مقابلة لمقولة مكافحة الإرهاب؟

هذه المقولة كما أقدر هي مقولة (التضامن من أجل أخلاقيات عالمية جديدة)، لأن مكافحة الإرهاب سيكون لها تأثيرات وتداعيات ومضاعفات سلبية على الأبعاد الأخلاقية والإنسانية، كتنامي حالات التمييز بصوره كافة، وإشاعة الكراهية، وانتهاكات لحقوق الإنسان وكرامته، وتقليص الحريات العامة، وتهديد السلم الاجتماعي، وسيادة أجواء الخوف والرعب بين الناس... إلى غير ذلك.

يقابل هذه التأثيرات ما يفترض أن تفرزه مقولة (التضامن من أجل أخلاقيات عالمية جديدة)، مثل إشاعة التسامح، وتأكيد النزعة الإنسانية التي تجعل النظرة بين الناس على أساس القيم والمبادئ والاحترام، وترسيخ مفهوم الكرامة، وتعزيز قاعدة العدالة والتضامن والتكافل.. إلى غير ذلك من مفاهيم ومبادئ وقيم إنسانية وأخلاقية ومعنوية.

ولتعزيز هذه المقولة في النطاق العالمي، ينبغي الاستناد إلى تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية الصادر سنة 1995م بعنوان (تنوعنا الخلاق)، الذي أوصى بضرورة الحاجة إلى أخلاق عالمية تحكم السلوك الدولي، وفي هذا الشأن يقول التقرير: (تود اللجنة أن تعلن بوضوح أن نشوء الأخلاق العالمية، وحكم القانون فيما يتعلق بالسلوك الدولي، سيصبح مستحيلًا ما لم ترضخ الأمم القوية لسلطان تلك القواعد العامة، شأنها شأن بقية دول العالم، فالمساواة أمام القانون، والمساءلة الديمقراطية، وشفافية المعلومات، هي مفهومات أساسية استغرقت قرونًا لترسخ

في وجدان الأمم، ولقد آن الأوان لمد هذه المبادئ، حتى تشمل الأخلاق العالمية في القرن القادم) أي القرن الحالي.

والتحدي الذي يواجهنا، هو كيف نقتنع نحن والعالم، بالحاجة الحقيقية إلى أخلاقيات عالمية جديدة، نتضامن من أجلها في مقابل الحملة العالمية لمكافحة الإرهاب.